الغرائز وعلاقتها بالتربية

تأليف

محمد حسين الغمراوي

دراسة وتحرير

د. عبد العزيز رضوان

الكتاب: الغرائز وعلاقتها بالتربية

الكاتب: محمد حسين الغمراوي

دراسة وتحرير: د. عبد العزيز رضوان

الطبعة: **2022**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

فاكس: 35878373

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الغمراوي، محمد حسين

الغرائز وعلاقتها بالتربية / محمد حسين الغمراوي، دراسة وتحرير: د. عبد العزيز رضوان – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

221 ص، **18*21** سم.

الترقيم الدولي: **2 – 415 – 991 – 977 – 978**

أ – العنوان   رقم الإيداع: **27197 / 2021**

الغرائز وعلاقتها بالتربية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

توجه الشيخ محمد حسين الغمراوي إلى المعلم بكتابه الرائد "الغرائز وعلاقتها بالتربية" هذا الكتاب الصادر قبل أكثر من مائة عام (صدر في القاهرة 1912)، وبرر ذلك بقوله "إن الطفل وديعة بين يدي المعلم يقوي جسمه، ويهذب عقله، ويزوده بما ينفعه في مستقبل أيامه؛ والعاقل من أعطاه من كل شيء قدراً مقبولاً، لا يتعدى حد الطاقة، ولا يصل إلى درجة الإهمال، مسدداً عمله بنظام يكفل الموازنة بين القوى الجسيمة والعقلية والخلقية. ولا مشاحة في أن تقويم القوى العقلية في وقت لم يتكامل فيه نظام الجسم مضعف له وربما قضى عليه". فهذه الفقرة تلخص جوهر عملية التربية ودور المعلم فيها، وتستدعي أن يدرك المعلم كل الفوارق بين الغريزة والعقل، فجعلها المؤلف في صدر كتابه موضحا أن "الغريزة قوة فطرية، تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة. والعقل ملكية كسبية، تتولى ضبط الأفعال ضبطاً إرادياً بتدبير خاص، لغرض مقصود.

وباختلاف وسائل الكسب تتفاضل عقول الأشخاص، فتتنوع الأعمال الناجمة عنها؛ على أن عقل الشخص الواحد تتفاوت أفعاله، باختلاف أطواره والمؤثرات فيه. أما الغرائز فكل نوع منها يجري على منوال واحد، قلما أدركت فيه تفاوتاً. فأعمال العقل متخالفة، وأعمال الغريزة متشابهة".

قوتان متصارعتان

ولم يكن الشيخ الغمراوي مدعيا أو مخطئا حينما ذهب إلى ذلك قبل أكثر من قرن من الزمان، فالعلم الحديث يؤكد أن الإنسان تتصارعه قوّتان هما: الغريزة والعقل، فالغريزة قوة فطرية، تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة، والعقل ملكة كسبية، تتولى ضبط الأفعال ضبطا إراديا بتدبير خاص، لغرض مقصود، وباختلاف وسائل الكسب تتفاضل عقول الأشخاص، فتتنوع الأعمال الناجمة عنها، على أن عقل الشخص الواحد تتفاوت أفعاله، باختلاف أطواره والمؤثرات فيه. أما الغرائز، فكل نوع منها يجري على منوال واحد، قلما أدركت فيه تفاوتا، فاعمال العقل متخالفة، وأعمال الغريزة متشابهة، يظهر لك هذا الفرق جليا عند مراقبة شؤون الناس في تدبير مصالحهم، والافتنان في مصانعهم، والتحيل في المنافسة والغلبة،

ولا ترى مثل ذلك لدود القز في صنع الحرير، ولا للنحل في جمع رحيق الأزهار، ولا للخطاف في المهاجرة، وقد جعل بعض الباحثين الغريزة (الالهام) خاصة بالحيوان، وجعل العقل حبسا على الإنسان، ورأى آخرون أن عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان، وكرمه الله فمنحه العقل الذي به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه، وما عرفه من غيره، ومال آخرون إلى أن الغريزة في الحيوان ثابتة الكيان، وتتهذب في الإنسان، ومنها إذاك يتولد العقل، فالغريزة والعقل عند الإنسان قوّتان منفصلتان، فتتولى الغريزة تدبير الجسم في الطور الأول من الحياة، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجيا حتى تتضاءل الغرائز وتتسيطر القوى العاقلة، غير أن الغرائز حينئذ تبقي أثرا يدل على حالتها الأولى، التي اشترك فيها الإنسان والحيوان، ويذهب «وليم جيمس» إلى ضرورة وجود الغرائز، في تركيب الإنسان، ولو بعد استيفاء العقل حظه من الكمال، وأن نمو العقل لا يدل على أن الغرائز ضعفت وفنيت، بل يدل على أنها تهذبت،ليتسنى لها مزاولة الأمور وتدبير الشؤون».

تعريف الغريزة

تُعتبر الغريزة ميلًا فطريًا للتصرف سببها المنبهات الخارجية، إلا إذا غلب عليها الذكاء، عندها يعتبر الكائن مبدعًا وأكثر تنوعًا. من الأمثلة عن السلوكيات الحيوانية التي لا تستند إلى تجربة سابقة: التكاثر والتغذية بين الحشرات، والقتال بين الحيوانات، وسلوك المغازلة الحيوانية، و غرائز الهروب الداخلية، وبناء الأعشاش. يظهر السلوك الغريزي عند طيف واسع من الحياة الحيوانية، وصولًا إلى البكتيريا التي تدفع نفسها نحو المواد المفيدة، وبعيدًا عن المواد الطاردة.

من ناحية أخرى، يعتبر آخرون أن بعض السلوكيات البشرية هي غريزية، مثل المنعكسات الغريزية عند الأطفال (كتبعيد أصابع القدم عند ملامسة أخمص القدم)، نظرًا لأن ذلك لم يتم تعلمه، وكذلك بعض السمات الأخرى مثل الإيثار وردات الفعل السريعة. لا يزال هذا المفهوم موضع جدل كبير. وبناء على ذلك لا يوجد سلوك بشري غريزي. وبالمثل، يعتبر بعض علماء الاجتماع أن الغرائز هي سلوكيات فطرية موجودة في جميع أفراد أي نوع ولا يمكن التغلب عليها، ولكن لأن الحاجة للجنس والجوع يمكن التغلب عليها، فإن هذا التعريف يؤدي أيضًا إلى وجهة نظر مفادها أن البشر ليس لديهم غرائز.

ولكي يُعتبر السلوك غريزيًا، يجب أن يكون:

1- تلقائيًا

٢- لا يُقاوم.

٣- يحدث في مرحلة ما من التطور.

٤- ينشأ عن حدث ما في البيئة.

5- يحدث عند كل فرد من الأنواع.

٦- غير قابل للتعديل.

٧- التحكم بالسلوك من دون أن يحتاج الكائن الحي إلى تدريب (على الرغم من أن الكائن الحي قد يستفيد من التجربة وإلى هذه الدرجة يكون السلوك قابلاً للتعديل). ويشير غياب واحد أو أكثر من هذه المعايير السبعة إلى أن السلوك ليس غريزيًا تمامًا.

وإذا تم استخدام هذه المعايير بطريقة علمية صارمة، فلا يمكن استخدام مصطلح الغريزة للإشارة للسلوك البشري. وبمعنى آخر، في ظل هذا التعريف، لا توجد غرائز بشرية.

وليس هناك إجماع على تعريف دقيق للغريزة والسلوكيات البشرية التي يمكن اعتبارها غريزيةً. وتزعم بعض التعريفات أنه لكي يكون السلوك غريزيًا، يجب أن يكون تلقائيًا ولا يمكن مقاومته، وتسببه المحفزات البيئية، ويحدث عند جميع الأفراد، وغير قابل للتعديل، ولا يحتاج إلى تدريب.

وإن كان أغلب الباحثين يرون أن الغريزة هي التصرف الفطري للكائنات الحية تجاه سلوك أو نمط معين من السلوكيات، مميزة للأنواع، وهي غالبًا ما تكون ردود فعل على محفزات بيئية معينة. تملك كل أنواع الحيوانات مميزات وأنماط استجابة أو تفاعل موروثة بشكل عام، والتي تستخدمها في بيئات مختلفة من دون وجود تعليمات رسمية، أو تعلم، أو أي تأثيرات بيئية أخرى أكثر من حاجتها للبقاء. ومن أمثلة السلوك الغريزي: تتحرك السلاحف البحرية التي تفقس على الشاطئ تلقائيًا نحو المحيط، ويتواصل نحل العسل عن طريق الرقص في اتجاه مصدر الغذاء،

كذلك يُعد سلوك دحرجة الإوز للبيض مثالاً معروفا على نطاق واسع لنمط الفعل الثابت، وهو أحد المفاهيم الأساسية التي يستخدمها أخصائيو السلوك في شرح سلوك الحيوان. وأنماط الفعل الثابتة هي سلوكيات نمطية تحدث في تسلسل ثابت يمكن التنبؤ به استجابة لمحفز بيئي محدد. على سبيل المثال، عند رؤية بيضة بالقرب من العش، فإن الإوزة ستعيد هذه البيضة للعش بمنقارها. وإذا سُحبت هذه البيضة، فإن الإوزة تواصل هذا السلوك، وتسحب رأسها للخلف كما لو أنها مازالت تقوم بدحرجة هذه البيضة بواسطة الجانب السفلي من منقارها. وستحاول أيضًا تحريك أي شيء آخر له شكل بيضة، مثل كرة الجولف أو حتى بيضة كبيرة جدًا لا تستطيع الإوزة نفسها وضعها. وتعتبر الغرائز عمومًا أفعالًا خارجية للكائن الحي، وبالتالي فهي ليست سلوكيات مثل التنفس المستمر والجوع والدافع الجنسي وما إلى ذلك. وبشكل عام يمكن أن يسمى أي سلوك متكرر "غريزيًا"، بالإضافة لأي سلوك له مكون فطري قوي. ومع ذلك، لتمييز السلوك الخارج عن سيطرة الكائن الحي عن السلوك الذي يحتوي على مكون متكرر.

الغريزة والفطرة

الغريزة هي سلوك فطري لكن ليست هي الفطرة، فالفطرة هي ميزان السلوك الداخلي للإنسان (بل الإنسان علي نفسه بصيرة ولو ألقي معازيرة)، أي مهما بحث الإنسان لنفسه عن مبررات وحجج هو في قرارة نفسه يعرف الصواب والخطأ، ولا يكون هذا الميزان صحيحا إلا بسلامة القلب ولا يصح القلب إلا بالدين لذلك كانت الفطرة هي الدين والملة والتي تعني ملة الإسلام كما فسره ابن شهاب راوي الحديث في الصحيحين من رواية ابن معاوية عنه، واستشهاد أبو هريرة بالآية في الحديث يدل علي ذلك وذكروا عن عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قوله تعالي (فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)قالوا دين الله الإسلام وأجمع أهل التأويل والتفسير عليه .

والفطرة التي يولد عليها الإنسان نتيجة ميثاق الله علي بني البشر حين جمعهم قبل خلقهم وأشهدهم علي أنفسهم ألست بربكم قالوا بلي فكل انسان تجد في داخلة صوت الحق وهو الضمير الحي لكن قد يميته الإنسان باماتته لقلبه بكبره وعناده ومغالاته في الذنوب والمعاصي وبمعاداته لله ورسوله

فالفطرة والسلوك الفطري هي سلامة الطبع والاستقامة علي شرع الله وهو سلوك تجده في البشر المستقيم، أما الغريزة والسلوك الغريزي هو لبقاء النوع وهو سلوك في البشر والحيوان، أما العقل السلوك العقلي فهو لتهذيب الغرائز والسمو بها بعيدا عن الحيوانية والشهوانية الغرائزية وجعلها تتماشي مع منهج الله وهو ما يميز البشر في حال سلامة الفطرة.

أنواع الغرائز

أشار علماء النفس الى وجود سبع عشرة غريزة يمكن للأنسان التحكم فيها وبقدر استطاعته على هذا التحكم يكون نجاحه في الحياة بصفة عامة. أما هذا الكتاب، فينتهي بمبحث جامع يشغل نحو نصف عدد صفحات الكتاب وعنوانه "أنواع الغرائز" وفيه يعدد الكاتب خمسة عشر نوعا مختلفا من هذه الأنواع، وكلها تعتمد على أفعال مختلفة تصدر لا إراديا عن الإنسان، أولها ما يسميه الغمراوي "غريزة حب النفس"،

ويراها أساس الحياة فيقول "غريزة حب النفس هي العماد الكبير والوازع العظيم الذي يدفع الكائنات الحية إلى تحصيل أقواتها، والدفاع عن سلامتها؛ فالنبات تسيخ جذوره وتتشعب في باطن الأرض سعياً وراء الغذاء، ومن أجله يعدو بعضه على بعض تسلقاً واستناداً وامتصاصاً. والحيوان طلباً للغذاء يبطش قوية بضعيفه، ووحشية بأليفه. ومع أن الإنسان قد ساد أنواع الحيوان لا يستطيع أن يحصى ما يهاجمه في كل لحظة، فهو ما عاش مهدد بالهوام تتسابق لامتصاص دمه، وحقنه بنفثات سمومها، ومهدد بجيوش الجراثيم تناوئه أينما ذهب متغذياً كان أو متنفساً، وتترقب فيه الضعف فتنقض عليه وتميته".

وهي الغريزة الأولى والأساسية وفقا لرؤيته ومنها تنبثق الغرائز الأخرى، مثل غريزة الخوف، وهي مشتركة بين الحيوان والإنسان، ويجد الكاتب للخوف مزايا عدة فالخوف المعتدل يؤدي إلى إصلاح النفس، والخوف من الله يقودنا إلى الطاعة، أما الشجاعة فهي عنده صفة وليست غريزة.

وتتضافر غريزتا حب النفس والخوف فينتج عنهما غريزة ثالثة هي "الهرب"، أما غريزة الغضب فهي كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول، وتخالفها في أن الخوف يحمل الإنسان على الفرار، وأن الغضب يفضي إلى الهجوم. وهنا لا يفوت الكاتب الانتباه إلى أنه يخاطب المعلم أساسا، فيحذره من أن الاستسلام للغضب يعرقل دوره في تربية النشء، ولذلك اشترطوا في المعلم أن يكون من الحلم والأناة والهوادة وترقب المصلحة بحيث يتمالك نفسه ويصدها عن الغضب إذا قصر التلميذ في واجبه العلمي والأدبي. ويتوالى استعراضه للغرائز ذاكرا أمثلة لكل منها ومستشهدا بآراء المفكرين وخبراء التربية ومنوها إلى دور المعلم مع هذه الغرائز، وإلى كيفية الإفادة من الغرائز في الارتقاء بعملية التعليم.

د. عبد العزيز رضوان

مقدّمة المؤلف

الحمد لله على ما أولى وأنعم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم. (وبعد) فإن لنهوض الأمم، أساساً من عوالي الهمم. ومن تطلع إلى الارتقاء فهيهات أن يظفر به إلا إذا شمر عن ساعده، وميز صحيح الرأي من فاسده. والرأي الحصيف يعوزه التعليم، حتى يبلغ مداه من التعظيم والتكريم. والمرتبي القدير هو الذي يتفقد مطالب الحياة ويفسح لكل منها عناية، ويختبر المدارك ويقدر لكل منها رعاية، ويدرس الميول ويقيم لها وزناً، ويسوس الفطرة الشريفة ويتخذ منها عوناً. ولقد جرى المربون أشواطاً بعيدة وراء التعليم وجعلوه مطمح أنظارهم، ومرمى سهام أفكارهم، باحثين عن مكنونه، مفجرين ينابيع عيونه، منطلقين كالسهم في غضونه، حتى ذللوا مصاعبه، وهجروا مثالبه.

وإنه ليجدر بكل أمة تتطلب المجد أن يكون لها من المجربين عضد تستند إليه، وتعتمد إليه. وإذا طمحت إلى الفوز بدونه فقد طلبت المحال، وسارت في طريق الضلال. وليس من المجربين من يحفل بطرق التعليم التي عانى مشقتها قديماً، ولقي منها عذاباً أليماً، في عهد طفولته، وإبان نشأته؛ ثم يقول لمن ينتقدونه ويمقتونه: إن طريقتي مضمونة؛

ويدلي بالدليل، على أنها خير كفيل.

ولا يخطئ من يعزو جمودنا، وضعف إرادتنا، وظهور آثار الكهولة قبل أوانها فيناً، إلى أمثاله الذين تصدوا وكانوا بقديمهم مستمسكين، وأمام النشء واقفين جامدين.

قابلت سرياً ومعه ولداه يناهز أحدهما الرابعة، ويناهز الآخر السادسة من العمر. أما أكبرهما فأخذ يتلو على مسمع والده نشيداً، وكان تعبيره سديداً. وفي غضون ذلك استولت على أخيه الصغير دواعي الاضطراب، فظنها أبوه خروجاً عن واجب الآداب؛ وعد اضطرابه من الرعونة، وأجبره على التزام السكينة. فصدع الصغير بالأمر قليلاً، ثم انقلب على عقبه مخذولاً، لأن نفسه لا تنفك مطيعة لنزاعات الطبيعة.

فانظر كيف غفل الوالد عن درس الطبيعة الإنسانية في شخص ابنه، وفلذة كبده. ولو تنبه إلى ما كمن في ابنه من أنواع الغرائز، ودرس أطوارها، وتفقد آثارها، لخفف عن نفسه لوعة التعب، ولهرب من وجه الغضب، ولاكتسب مودة ابنه الذي هو أكثر الناس طلباً لها وحباً فيها. نعم إن ابنه ذو نفس صغيرة، لا تصل إلى مستوى نفسه الكبيرة، وإن ميول الابن تتجه إلى المحسوسات الرشيقة، دون المعاني الدقيقة؛ فالنشيد الذي يصغى إليه الوالد لرائع معناه، ليس له ذلك الأثر في ذهن الطفل حتى يدعوه إلى الانتباه. ولما ضقت بهذا الموقف ذرعاً، طلبت إليه أن يعيرني سمعاً، ثم توسلت إليه أن يكل إلى أمر ابنه الذي ظنه عاصياً، وبشئونه متلهياً؛ فأقبلت عليه وقلت: هل تحفظ يا بني ما حفظ أخوك؟ قال: نعم، وجرى في وجهه ماء البشاشة والسرور. هل لك أن تحرك أعضاءك تمثيلاً لهذا النشيد؟ فترنح فرحاً، وأخذ يمزج النشيد بحركات أعضائه حتى استحق عطف والده وإعجابه. فلو أنصف الآباء والمعلمون وأراحوا الطفل من عناء كبير، وشر مستطير، ووصلوا حبل المودة بينهم وبينه، وأقروا عينه، ورغبوا في علاج يكون أثره في النفس جليلاً، لم يجدوا سوى درس الغرائز سبيلاً.

فكم تذهب الأوامر أدراج الرياح، إذا لم تصادف أدنى ارتياح. ولقد يستطيع النفسي، مناجاة الطفل الأبيّ؛ فقد تراكن الحصى بفناء أحدهم وأفرغ قصارى حوله وطوله، مستميلاً الأطفال ليعاونوه على نقله، فلم يعبثوا بقوله، وأعرضوا عنه أيما إعراض، وفروا منه ساخرين، وكانوا برأيه مستهزئين، فلما استعصى عليه الأمر لجأ إلى استحثاث غرائزهم، فنصب هدفاً غير بعيد من الفناء وأخذ يصحبه به، فلما رآه الأطفال أقبلوا عليه بعامل الشوق، ونافس بعضهم بعضاً في الرماية، ونال الرجل أمنيته بدون أن يشعروا.

إن الطفل وديعة بين يدي المعلم يقوي جسمه، ويهذب عقله، ويزوده بما ينفعه في مستقبل أيامه؛ والعاقل من أعطاه من كل شيء قدراً مقبولاً، لا يتعدى حد الطاقة، ولا يصل إلى درجة الإهمال، مسدداً عمله بنظام يكفل الموازنة بين القوى الجسيمة والعقلية والخلقية. ولا مشاحة في أن تقويم القوى العقلية في وقت لم يتكامل فيه نظام الجسم مضعف له وربما قضى عليه.

من المعلمين فريق سادت عقولهم المباديء الصادقة، فاتخذوا من التسويق شركاً للانتباه. ومتى حادثوا الطفل، تنزلوا إلى المنزلة الملائمة له لكي يدركوا مبلغ علمه؛ ثم يتخذوا هذا ذريعة إلى تفهم مزاجه في التعليم. ومنهم فريق طاشوا، فاستعملوا سياسة العنف ليملكوا قياد نفسه قسراً، حتى لقد صدق فيهم وصف بديع الزمان الهمذاني إذ يقول: "زي أوحش من طلعة المعلم".

يحق للمعلمين أن يدرسوا الشئون النفسية في أشخاصهم وهي أظهر لهم؛ ثم يتلمسوها في النشء؛ فيشرفوا عليهم في الدرس وفي الأكل والاستراضة، ويتبادلوا الحديث معهم فيما يثير إحساسهم ويهيج عواطفهم، ثم يتواروا عنهم فيراقبوا حركاتهم من طرف خفي، ليقتبسوا من هذه المظاهر المتنوعة شواهد يعتمدون عليها في معرفة ما انطوت عليه السرائر؛ ويحق لهم زيادة على ذلك أن يتعرفوا الأسر وطباعها ليقفوا على سر الوراثة، وما تنقله المعاشرة، ليكونوا على بينة من الغرائز والميول؛ ويصبح ما يصدرونه من الأحكام سديداً مقبولاً.

قرر الأطباء أن الداء الذي يؤثر في شخص ربما لا يؤثر في آخر. على أن تشخيص المرض –كيفما محص – عرضة للخطأ. وقلما تحقق الطبيب كنه الداء لتشابه أعراض الأمراض في الجملة. ناهيك بما ينجم عن الخطأ في هذا المجال من إبادة الأرواح. والطبيب النطاسي لا يتعجل في العلاج، بل يتريث حتى يدرس طباع المريض وعاداته وأوهامه وشئونه الداخلية، ليتسنى له تكييف المرض فيعالجه بحكمة.

لكل شخص مأكل خاص، وشئون معينة، وبيئة مميزة، واستعداد خلقي. ولا تكاد تجد تشابهاً ناماً بين وجهي توءمين، ولا بين ورقتين من شجرة واحدة. فإذا كان الأطباء يحتاطون في الأمر عند معالجة الأبدان، فما ظنك بحكماء الأرواح الذين يوكل إليهم تهذيب النفوس، فكم تحتاج الأفراد والأمم إلى دراسة واسعة النطاق؟ وكم يعجز الطبيب، ويحار اللبيب، قبل معرفة كنهها، وكنه أعراضها وآفاقها؟ وكم تجربة يزاولها المعلم الغيور، الذي يطمع أن يكون عمله ناجحاً حليف الصواب؟ وكثيراً ما تهن القوى، وتفتر العزائم، تنبهم الأمور، إذا عهد إليه في تعليم طفل واحد. فكيف به إذا زاول تعليم عدد وفير معاً؟ وكان حريصاً على تفهيمهم دقيق المسائل، طامحاً إلى تحبيب العلم إلى نفوسهم، جارياً على سنن العدالة في الجزاء والعقاب، على ما بهم من اختلاف بين من المشارب والأخلاق.

لا يفلح المعلم في إتباع ذلك كله، ما لم يدرس أخلاق النشء جميعاً وفرادى. ونحن نعلم أن لهم نظاماً عاماً مشتركاً عماده المساواة، ونظاماً خاصاً يرجع الفحص عنه إلى الخبرة الشخصية والاجتماعية.

وكيفما بلغت براعة القاضي لا يستطيع تقرير الحكم الصائب، لأن تقدير العقوبة يستلزم درس طبيعة الشخص الذي دلت القرائن على أنه مجرم. فقد يكون عند تلبسه بالجريمة مدفوعاً بباعث قهري لا محيص عنه.

لهذا أردت أن أبسط في هذا الكتاب، ما تمس إليه حاجة المربين من الغرائز على اختلاف أنواعها، وطرق تقويمها، والاستعانة بها في مطالب التعليم؛ كاشفاً عن الأغراض الفلسفية الدقيقة، بالعبارة السهلة المتناول، وبالرسوم المقربة للفهم؛ معرضاً عن الاصطلاحات الفنية؛ معولاً على الحجج المنطقية فحسب. ولم أدع مقاماً يستحق الإفاضة إلا أفرغت الوسع في شرحه وتمحيصه والتغلغل فيه بما وصل إليه علمي؛ وانتهى بحثي؛ ودلتني عليه التجارب. وما توفيقي إلا بالله.

المؤلف

المبحث الأول

الغريزة والعقل

الغريزة قوة فطرية، تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة. والعقل ملكية كسبية، تتولى ضبط الأفعال ضبطاً إرادياً بتدبير خاص، لغرض مقصود.

وباختلاف وسائل الكسب تتفاضل عقول الأشخاص، فتتنوع الأعمال الناجمة عنها؛ على أن عقل الشخص الواحد تتفاوت أفعاله، باختلاف أطواره والمؤثرات فيه. أما الغرائز فكل نوع منها يجري على منوال واحد، قلما أدركت فيه تفاوتاً.

فأعمال العقل متخالفة، وأعمال الغريزة متشابهة. يظهر لك هذا الفرق جلياً عند مراقبة شئون الناس في تدبير مصالحهم، والافتنان في مصانعهم، والتحليل في المنافسة والغلبة. ولا ترى مثل ذلك لدود القز في صنع الحرير، ولا للنحل في جمع رحيق الأزهار، ولا الخطاف في الهاجرة.

وقد جعل بعض الباحثين الغريزة (الإلهام) خاصة بالحيوان. وجعل العقل حبساً على الإنسان. ورأى آخرون أن عند الإنسان غرائز تزيد على ما عند الحيوان، وكرمه الله فنحه العقل الذي به يصوغ الأحكام بالقياس على ما خبره بنفسه، وما عرفه من غيره. ومال آخرون إلى أن الغريزة في الحيوان ثابتة الكيان، وتتهذب في الإنسان، ومنها إذ ذاك يتولد العقل.

فالغريزة والعقل عند الإنسان قوتان منفصلتان، فتتولى الغريزة تدبير الجسم في الطور الأول من الحياة، وبعد ذلك يقوم العقل مقامها تدريجاً حتى تتضاءل الغرائز وتسيطر القوى العاقلة، غير أن الغرائز حينئذ تبقى أثراً يدل على حالتها الأولى التي اشترك فيها الإنسان والحيوان. ويذهب الحكيم وليم جيمس إلى ضرورة وجود الغرائز في تركيب الإنسان، ولو بعد استيفاء العقل حظه من الكمال؛ وأن نمو العقل لا يدل على أن الغرائز ضعفت وفنيت، بل يدل على أنها تهذبت، ليتسنى لها مزاولة الأمور وتدبير الشئون. وقد اعتاد بهذا الرأي المتأخرون من المربين.

الغرائز عند الحيوان

إن العالم مورجان شرح ما عسى أن يكون غريزة بحتة شرحاً تجريبياً. جمع بيض دجاج، وهيأه للأفراخ، فسمع صياح الأفراخ قبل نقف البيض؛ ووجد الفرخ وهو داخل القيض والغرقي، يحاول أن يخز الخزانة الهوائية الداخلية، ليستنشق ما فيها من الهواء، ثم يشق القشرتين بنفسه ليخرج إلى عالم الحياة. وضع هذه الأفراخ في حظيرة، عزل بعضها عن بعض، ورمى إليها حبوباً مخلوطة بالحصى، فشاهدها جميعاً تتبع نظاماً واحداً فتزدرد الحب وتنبذ الحصى، ثم تدلك منقارها بالأرض يمنةً ويسرة، تفادياً مما يكون علق به. ثم عاد فخلط هذا الحصى بالحب، ورمى به إليها، فرآها تفعل ما فعلته أولاً، يهيجها نظر الحب ويبعث فيها الشوق إلى التقاطه، ثم إن ذوقها الفطري يدفعها إلى زرده أو نبذه. كل هذه الحركات المنتظمة المتجانسة خاضعة لسلطان الغريزة ولا دخل للكسب فيها.

ومن يطلع على غرائز الحيوان لا يسعه إلا الدهشة من بديع خلقها، وغريب آثرها. فنمل الحقول بحذقه الفطري ينقل بيضة من ركن إلى آخر تكون حرارته كافية لفقسه. والخفاش يتقي ما يقع أمامه من الحواجز، وهو طائر في جنح الليل، بما يشعر به من الصدى. فإن جناحيه يهزان الهواء، فتنتشر أمواجه، وتنعكس على ما تلاقيه من الأشباح، وتعود إليه فيشعر بها.

والعنكبوت تغزل من لعابها خيطاً، تلصق طرفه بالسقف، ثم تهبط عليه أو تصعد، وتنسج من خوطه شباكاً، تتخذها شركا لصيد الذباب. والحرباء تتلون بلون ما يجاورها، فيكون ذلك ردءاً يدفع عنها العدوان. والقنفذ وقد تسلح جسمه بالحسك، يضم بعضه إلى بعض إذا حس مكروهاً. والحلزون يرتد إلى صدفه. والقط ينتفخ فيحكي صولة الأسد في ساعة الخطر. ولكل حيوان خاصة تناسب أعضاءه يجردها للدفاع عن حياته، ويعرف بغريزته كيف يستعملها ويناضل بها، حرصاً على نفسه وعلى حياة نوعه.

والفراشة عند ما تدب فيها الحياة ينمو فيها الوازع للسعي وراء القوت، ولحفظ النسل، فتعرف أين تضع بيضها، وكيف تدخر القوت لصغارها، ناسجةً في ذلك على منوال سلفها، مع أنها لم تختلط به اختلاطاً يؤذن بالمحاكاة.

أما الإنسان فقد خلق ضعيفاً محتاجاً إلى المعونة في كل مطالب الحياة. ولا يدري أهذه طبيعة فيه؟ أم أثر فيه التحضر، فحرمه منذ أجيال مديدة لذة الاستفادة من تمرين غرائزه، ففقد النخوة، وورث الجمود، وتعود الاستناد إلى غيره؛ ولا يزال الضعف يتسرب إليه من جيل إلى جيل، كلما ارتقت به المدينة إلى معارج الكمال، شأن الحضري إذا قيس بالبدوي.

واعلم أن المعز والبقر يشبهان الغزال وبقر الوحش؛ غير أن البيئة فرقت بين طبيعة كل منها، فضعف المعز، وقوى الغزال، إلى حد أنك لو تركت المعز دون أن تمده بالغذاء لما سعى إلى القوت سعى للغزال، بل تعييه الحيل في الاحتفاظ بحياته فيموت جوعاً.

الأفعال المنعكسة والغريزية والعقلية

الأفعال المنعكسة مصدرها النخاع الشوكي، ويهيجها المؤثر الخارجي، كما إذا حككت قدم نائم فإنها تنسحب من مركز التأثير. وقد حققت التجارب أن الضفدعة إذا جرد مخنها، وضغط أحد جوانبها، فإن قدمها المؤخرة التي في جانب العضو الواقع عليه تأثير الضغط تتحرك لمعارضة المؤثر. ومن هذا النوع بكاء الطفل عقب الولادة عند ما يستنشق الهواء، ومنه العطس والسعال والتنهد والتثاؤب وطرفة العين.

أما الأفعال الغريزية فمجموع أفعال منعكسة، على ما حققه الحكيم سبنسر[1]. فإن غريزة الهرب من العدو مثلاً تتضمن عدم اطمئنان النفس، وخوف البطش، ودهشة الفكر، وغليان الدم، واضطراب الأعصاب، وسرعة التنفس.

---

[1] (Herbet Spencer) هربرت سبنسر توفي سنة 1903م هو الحكيم الإنجليزي الطائر الصبت المشهور بالحكمة والبراعة في الكتابة. طرق كثيراً من أبواب الحياة واشتغل بالهندسة والسياسة والشئون الاجتماعية، وتزود منها بالحقائق الجملة التي ساقته طوعاً أو كرهاً إلى طرق أبواب الحكمة، والتبحر في العلوم العقلية ومباحث التعليم.

أما الأفعال فمصدرها المخ انظر هذا الشكل. فالحواس تنفعل بالأشياء، فترسل أثر انفعالها إلى المخ من طريق أعصاب الحس، وهنا يبتدئ الإدراك ثم الوجدان. وبعد ذلك يهبط الإذن إلى أعصاب الحركة فالعضلات لتنفيذ الحكم دون مانع يعترضه، ما دام الجسم سليم الأعضاء، قادراً على الحركة، مجرداً من قيود الاستعباد، مسوقاً بدافع من الشوق، وإن يكن دقيقاً كما هو في الأفعال الغريزية، فإن لها حالات نفسية كحالات الأفعال العقلية. ومن هذا الشوق ما يشاهد عند القط والكلب من محبة الوطن. ومنه إشفاق الدجاجة على أفراخها، فتخيمها بجناحيها خوفاً عليها من تأثير الجو. ومنه لذة الظفر على العدو والكناية به، ولو تكبد الشخص في سبيل إرهاقه ما لا طاقة له به من التعب. ومنه الميل إلى حفظ النوع عند الأم التي لا تغيب عنها ما تلاقيه من الآلام في الإرضاع والتربية وغيرهما. ويشاهد مثل ذلك عند الدجاجة الحاضنة لبيضها، فإنها لا تنفك ذابلة الجسم مضطربة الأعصاب، وإذا حيل بينها وبين بيضها تثور وتغضب. فهذا كله يدل على أن الوجدان عامل كبير لتحقيق الأعمال، وأن الجسم في سبيل تحقيق مطالب الغريزة لا يبالي أن يحارب النوازل، ويكافح المصائب ليدرك أمانيه.

الوراثة في الغرائز والعادات

عرفت أن الغريزة قوة فطرية تصدر عنها أفعال قهرية لغاية محدودة. أما العادة فإنها مرونة، تحدث من تكرار ما سبق للعقل مزاولته من الأعمال، بحال تجعل عرضها آلياً، بدون الاستعانة بالعقل. فبين الغريزة والعادة شبه في الغاية، وتباين في الوساطة. وقد اتفق العلماء على أن الغرائز تورث. واختلفوا في وراثة العادات، ففريق أجازها، وفرق منعها، وكلاهما يدلي بالحجة.

فمجيزو الوراثة يستدلون بأمر لا يعتد به إلا علماء الآثار الحيوية، وهو ما يشاهدونه من التحسين التدريجي في البقايا المتحجرة من النبات والحيوان. قالوا لم يجئ هذا التحسين عرضاً، وإنما أوجدته الممارسة والتمرين. فالحيوان إذا استعمل عضواً في قضاء مصالحة فإنه يقوي، وتنتقل حالة بالوراثة من الأصل إلى الفرع؛ واستدلوا على ذلك بانتقال المرض بالوراثة من الأب إلى ابنه.

ومانعو الوراثة – وهم النشوئيون – يعتقدون أن هذا التغير إنما أتى بتأثير المصادفات، إذ ليس للوراثة عندهم نظام محدود، فقد تظهر في الطول أو العرض أو اللون أو القوة، والفطرة تختار الأصلح، والحياة جهاد وجلاد، والجسم لا يحيا إلا إذا تغلب على الطوارئ، حتى إذا ضعف عن احتمالها وهن وقضى عليه. بهذا الرأي فسر دارون[2] ومشايعوه مذهب النشوء. ثم دحضوا أدلة مجيزي الوراثة أولاً بأن الجدع والعمى والجهل كلها أمراض ولا ينتقل منها شيء بالوراثة. وعادة بتر أذناب الأغنام شائعة بين الرعاة، ولم يروا في نتاجها تشويهاً مثله. وعادة لبس الصينيات الأحذية الحديدية لتصغير أقدامهن فشت منذ أجيال، وليس لعامل الوراثة فيها من تأثير. وعادة الختان يشترك فيها الوالدان ولا يظهر لها في الأولاد أثر. أما انتقال الأمراض من الآباء إلى الأبناء فسببه العدوى لا الوراثة.

---

[2] (Darwin) دارون توفي سنة **1882** تضلع في علمي للنبات والحيوان، وهو عالم إنجليزي برز في المباحث الطبيعية النشوئية.

ثانياً حقق البحث أن الخلايا الفارزة للمادة الحيوية تخالف خلايا الجسم، وهي مع ذلك منفصلة عنها إلا فيما يتعلق بالغذاء. فالعمل الذي يؤثر وقعه في الجسم، ويحدث كمالاً أو نقصاً، لا شأن له مع المادة المفروزة لحفظ النوع. والفطرة وحدها تسلك بالنوع سبيل الصلاح، وسنن تنازع البقاء تقضي بالحياة أو بالفناء إذا وجدت أو عدمت الأسباب.

وقديماً ظن بعض الطبيعيين أن العضو يحدث الوظيفة، فاليد تكتب، واللسان ينطق، والعين تبصر. ورأى غيرهم عكس ذلك إذا كان في العضو استعداد مخصوص للعمل؛ فاليد إذا تعطلت عن العمل تشنجت، ولا يكون علاجها إلا بالحركة؛ واللسان إذا صمت خرس، ولا يبرئه إلا التمرين؛ والمرأة المرضع يضخم ثدياها، ومن تهملهما لا يكادا يظهران عندها. هذان رأيان لا يخلو كلاهما من تطرف. وصفوة القول أن العضو ووظيفته يؤثر أحدهما في الآخر، إذ العضو آلة العمل، والعمل يرهف من حده، ويزيد تركيبه متانةً بنسبة ما يعانيه من حسن الأداء والمثابرة.

وقد تصدى جلادستون[3] لمذهب النشوء والارتقاء فنقده حيث قال: إني أحاول أن أرى الرقي الفكري الذي حازه الخلف، وقصر عنه السلف، تصديقاً لعقيدة النشوء، فلا أكاد أجد له أثراً. لا يدور بخلدي أننا أقوى أجساماً من أسلافنا أبناء القرون الوسطى، بل أعتقد أننا على الضد من ذلك؛ فإذا وازنا نفوسنا بأسلافنا أبناء القرن السادس عشر مثلاً، نجد أنهم فاقونا بسطةً في الجسم والعقل، ويرشد البحث بالقياس إلى أن نابتة المستقبل لا تبشر بهبات فطرية أعظم مما أحرزنا. غاية ما أفهم أن الرقي الذي وصلنا إليه إنما هو ثمرة الجلد والاختراع، وترقية شئون الاجتماع، واحتكاك العقول التي قدحنا زنادها ففجرت منابع الثروة، وأرشدت إلى مناهج الصنعة، وتبادل المنفعة. هذه كلها أمور لا أكاد أتصور أن للوراثة الشخصية فيها أثراً. أمامنا التاريخ حافلاً بأخبار الأمم التي أخضعت للعالم وملكت أقطابه، ثم دالت دولها، وعفت معالمها. فإذا تسامحنا وقلنا: إن الحوادث وحدها هي التي هوت ببعض الأمم إلى الحضيض،

([3]) (**Gladstone**) وليم غلادستون توفى سنة **1898**م كان خطيباً مفوهاً يرتجل الموضوعات السياسية الهامة ويلقيها أينما سار. تقلب في مناصب انجلترا السامية، وكان من المحافظين بحسب شعوره، ومن الأحرار بحسب أفكاره.

فلا يسوغ لنا أن نتحكم ونقول: إن القوى التي أخذت بيد الأمم الأخرى إلى معارج الرقي إنما هي وراثية. كل ما صادف طعناً في النشوء في الأمور العقلية نجده موجهاً إلى الأمور الدينية والأدبية. فالثقة وسلطان الدين فينا أضعف مما كانا على عهد الإصلاح اللوثيري. زد على ذلك أن الحرية قد خرج بمدلولها طلابها عن الحدود المرعية حتى صارت شروداً وفوضى".

إذا وقفت على هذين المذهبين في صحة وراثة العادات، عرضنا عليك مسألة لا مشاحة في أنها تحتاج إلى روية، وهي ما تحققت وراثته من الصفات الكاملة في الإنسان والخيل وكلاب الصيد. فالإنسان يرث بالمحتد نفساً كريمة؛ وأصائل الجياد تورث ذراريها طيب الخلق وسرعة الجري؛ وكلاب الصيد تحتفظ ذراريها بمميزات في الصيد والقنص.

فهذه أمور يستدل بها الفريق الأول على صحة وراثة العادات؛ ويؤولها الفريق الثاني بأن الموروث هنا ليس صفة كسبية؛ بل الموروث حسن تكييف الأعضاء، واستعدادها لأداء وظائفها على الوجه المحمود، إذ ليس لها غنية عن التمرين والممارسة. على أن هذه الممارسة إنما هي تمرين الغرائز التي تحتويها العادات.

ومجمل القول أن العادة وراثية باعتبار عناصرها المكونة لها، وكسببية باعتبار ضم هذه العناصر بعضها إلى بعض؛ كالسلعة المصنوعة من مجملة مواد أولية، ميزتها الصنعة، وألفت بين أجزائها تأليفاً مناسباً لإرادة الصانع ومبلغ علمه وذوقه. فالباني يجمع إلى بنائه صخراً وآجراً وملاطاً، ثم ينسقه قصراً فخماً يبدي فيه ما أوتيه من حسن الذوق، وليس بينه وبين الكوخ الحقير من فرق إلا في أوجه النسب، وإحكام الوضع، واستجماع ضروب التأثير.

الفطرة ونزعاتها

تضاربت آراء الباحثين في نزعات الفطرة فمنهم من ذهب إلى أنها خير، ومنهم من ذهب إلى أنها شر، ومنهم من رأى استعدادها للأمرين، ومنهم من رأى خلوها منهما.

(1) ذهب سقراط[4] إلى أنها خير؛ ونفس الطفل في نظره وعاء لأصول الكمال. فعول في طريقة تعليمه على السؤال والمناقشة في أي غرض يريد، لا فرق بين أن يكون الطالب طفلاً أو صبياً، شاباً أو كهلاً، وله طرق خلابة يستميل بها المسئول إلى إجابة أسئلته بحال يسبر بها غور مداركه، ويساعده على إدراك الحقيقة. وكان مع جلال قدره وعلو كعبه وتوقد قريحته يتدلى إلى أفق التلميذ، ويختار له من الأمور ما يوافق هواه وفي وسعه الإجابة عنها؛ ثم يناقشه ويسوق له الحقائق باحثاً ومنقباً ومستشكلاً. ولا يزال ينبهه بالتدريج على الخطأ، ويفتح له أبواب الصواب بتأليف المقدمات واستنباط الضوابط حتى يصل به إلى شاطئ الحقيقة سالماً.

([4]) (Socrates) سقراط حكيم إغريقي توفى سنة 399 قبل الميلاد تربى وخدم جندياً بالجيش الأثيني وامتاز بالإقدام، ثم اشتغل بالسياسة فكان فيها قطباً، ثم عمد إلى إصلاح شئون الأمة بطريقة أبدعها فجذب إليه النفوس، فحقد عليه العلماء المعاصرون ورموه بالزندقة والحط من قدر الآلهة وإفساد عقول النشء. من أجل هذا حكم عليه بالإعدام.

بهذه الطريقة البديعة انقادت لسقراط العقول الشاردة، والميول الخامدة، والحقائق الفذة. وتبعه فيها فريق من أساطين المؤدبين لما اشتملت عليه من دلائل الرصانة والحكمة. وإني أسوق إليك مثالاً بسطه آدمس في كتابه في التعليم:

المعلم: يا هذا أنفسك حار أم بارد؟

التلميذ: حار.

م: رأيت أناساً على المائدة ينفخون في المرق الحار وهم يأكلون، فليت شعري ماذا أرادوا بهذا.

ت: يريدون تبريد المرق.

م: إذن ما الذي يبرد المرق.

ت: النفس.

م: كيف ذلك؟ وقد قررت أن النفس حار. والحار لا يبرد الأشياء. فالنفس حينئذ بارد.

ت: هذا حق. وأنا أغير رأيي في أن النفس حار.

م: هل رأيت وحوحة الحوذيين؟ وهي أنهم ينفخون بأنفاسهم في أيديهم. ولعل أغلب التلاميذ يفعلون كذلك في اليوم القر. فلأي غرض هذا؟

ت: غرضهم تدفئة أيديهم.

م: فما الذي يسخن أيديهم حينئذ؟

ت: نفسهم.

م: إذن نفسهم حار. وقد أفضت نتيجة البحث معك إلى أن النفس ليس حاراً، وقد علمت منك الآن أنه حار فما ظنك به؟

ت: هو حار أحياناً وبارد أحياناً.

م: متى يكون حاراً؟ ومتى يكون بارداً؟

ت: يكون حاراً في الصيف. وبارداً في الشتاء.

م: متى ترى الناس ينفخون بأنفاسهم في أيديهم ليدفئوها؟ أفي الصيف هذا؟

ت: لا. بل في الشتاء.

م: لكنك ذكرت الآن أن النفس يكون بارداً في الشتاء.

ت: ارتبك ولم يدر بماذا يجيب.

م: أي الشيئين أكثر حرارة؟ آلمرق أم يد التلميذ في الشتاء.

ت: المرق أكثر حرارة.

م: أيهما أشد سخونة؟ أنفسه أم يده؟

ت: نفسه.

م: أيهما أشد سخونة؟ أنفسه أم المرق؟

ت: المرق.

م: إذا فطنت إلى هذا علمت أن النفس أكثر سخونة إذا قيس بيد التلميذ شتاء، وأقل سخونة إذا قيس بالمرق.

ت: نعم. وقد بدت على وجهه أمارات الارتياح.

م: لا يخفي أن النفس تختلف حاله باختلاف ما يقاس به، فيكون أكثر حرارة إذا قيس بشيء، ويكون أقل حرارة إذا قيس بشيء آخر. أليس كذلك؟

ت: هذا لاحق لا شبهة فيه.

م: فما ذا هو إذا قيس بالمرق؟ أهو حار أم بارد؟

ت: بارد.

م: وماذا هو إذا قيس بيد التلميذ عند اشتداد البرد؟

ت: حار.

م: فالنفس حار إذا قيس بيد التلميذ، وبارد إذا قيس بالمرق، وحقيقته واحدة لم تتغير في ذاتها.

ت: لقد استفدت من بحثك هذا، ولقد وصلت يقيناً إلى معرفة الحق وزال عني الشك، وأشكر لك هذا الصنيع.

(**2**) وذهب فلوطين[5] إلى أن الفطرة شر، والنفس في نظره من جوهر مجرد مستقل، هبطت من العالم العقلي إلى عالم المادة لتبتلى. وبينما هي في أثناء الحياة المادية، يمكن اتصالها بالعالم العقلي بتصفيتها من أداران اللذات، وأخذ الجسم بأشد أنواع الحرمان من ألوان الطعام والشراب، وحصر الفكر في أمر هذه القربى، والتخلص من كل ماله علاقة بالعالم المادي، والتجرد من زخرف الدنيا ومن الميول النفسية. ومن يسس نفسه بهذه الرياضة يرهقها بالآلام والمشاق، ويرهف حدها بدوام الصوم، وإهمال مطالب الجسم من النظافة واللبس والغذاء وإماتة الحواس؛ والعزلة عن الناس.

---

(5) فلوطين **Plotinus** توفي سنة **262** قبل الميلاد وهو مصري ومن أسرة رومانية. واعتمد في نظرياته على فلسفة أفلاطون **Plato**.

فإذا تم له ذلك فإن النفس تتطلع إلى العالم العلوي، وتتوق إلى ما حواه من جمال وصفاء، وتتصل بمبدعها. فاتصال النفس الطاهرة الأصل بالعالم المادي حول فطرتها وصبغها بصبغة للشر. وقد جرى على هذا المبدأ أبو الطيب المتبني[6] إذ يقول:

والظلم من شـــيم النفوس فإن تجد ذا عـفـة فـلـعـلـة لا يـظـلـم

وتبعة أبو العلاء[7] المعرى فاعتقد أن الإنسان شرير بطبعه والفساد غريزة فيه. وقد ثبته على هذا المبدأ ما عاناه من الآلام من خلطائهم فاعتزلهم مفتخراً بأنه رهين المحبسين: العمى والعزلة. ومن قوله في هذا المعنى: "ومن جرب الأقوام أوسعهم ثلباً".

([6]) أبو الطيب المتبني توفى سنة 354هـ أديب التحق بسيف الدولة بالشام ومدحه. ثم دخل مصر ومدح كافوراً الإخشيدي ثم هجاه. ثم دخل بلاد الفرس ومدح عضد الدولة بن بويه.

([7]) أبو العلاء المعري توفى سنة 449هـ عمى بعد ولادته بأربع سنين وهو من أساطين الأدب. لبث زهاء 45 سنة بعيداً عن أكل اللحم، متزهداً عن تعذيب الحيوان بالذبح واعتقد أن الزواج جناية.

وفضـــيلـة النوم الخروج بأهلـه   عـن عـالم هـو بالأذى مجبـول

وقد غلا في هذه العقيدة حزبان كثيران اشتهرا في القرن الثامن عشر، وهما اليسوعيون والينسيون. فقد حملا لواء التعليم، وألفا الكتب، وبنيا المعاهد العلمية، وسنا الأنظمة المؤسسة على عقيدة أن الإنسان مفطور على الشر ولا يحوله عن هذه الفطرة السيئة إلا صارم العقاب ولذيذ الجزاء، وتوسعا فيهما بدرجة خرجت عن الحد المقبول والمعقول. وفي آخر هذا القرن ظهرت مؤلفات روسو(8)، وتولى الرد فيها على من ظلم الفطرة الشريفة بنسبة الشر إليها؛ ووجه سهام مطاعنه الصائبة إلى هذين الحزبين فيما وضعاه من الأنظمة، وأقراه من المناهج، وسلكاه من السبل التي حرمت النشء مساكنة الطبيعة واستجلاء محاسنها،

---

(8) (**Rousseau**) روسو كاتب فرنسي روائي توفى سنة **1778**م تعلم بالممارسة، ولم يطق صبراً على مبادئ اليسوعيين وانتقدها، واختط نظاماً جديداً أودعته كتابه أميل فاضطهدوه وتوعدوه فهرب منهم. وآراؤه في التعليم نظرية فكرية لا عملية تجريبية.

وقراءة أسطر الجمال في صفحاتها. وقف موقفه هذا بين الفرنسيين، حاملاً بين جنبيه نفساً أبيةً ولساناً ذلقاً. واكتسب فطانته من وحي الفطرة لا من الممارسة؛ وكانت نفسه تواقة إلى الرجوع إلى محاكاة الطبيعة والبعد عن الزخارف الصناعة. وقد وصلت دعوته إلى أعماق قلوب العقلاء فالتفوا حوله؛ وألف منهم عصبة ناوأت هذين الحزبين، وهزئت بعلية القوم منهما حتى قام من أجلها نذير الشر، وتأججت بينهما نار العداوة، وكانت من مثيرات الثورة الكبرى التي قلبت فرنسا ظهراً لبطن. فانتهز هذه الفرصة، وشرع يغرس في باحة هذه الأنقاض دوح الأفكار الصحيحة.

درس روسو الطباع الإنسانية بالعيان، فكان يحتجب عن النشء بحيث يراهم ولا يرونه، ويتفقد حديثهم فيما بينهم، وحركاتهم التي لا رياء فيها. وكتابه "إميل" حسن السلوك جميل الصوغ بديع التأثير، تتمشى مطالبه في العواطف تمشي الروح في الجسم.

(**3**) جاء القرآن الشريف بعقيدة أن الفطرة استعداد للخير وللشر معاً. قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)[9]. (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا).

وقد أوزع الله النفس أن تنعشق المحسوسات التي هي أصول للمعاني الذهنية. فإما أن تسمو فتتعلق بالفضائل وتنفر من الرذائل، فتكون مندرجة تحت هذا الخطاب (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً). وإما أن تنكص على عقبها، وتنزع إلى العالم المادي، تتلوث برذائله وأوضاره فتبوء بالشر (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي).

والحركات الإرادية مناط الثواب والعقاب، وبها تقاس درجة الميول الكسبية.

(9) طريق الخير والشر.

(4) ورأى كانت[10] أن الطفل منذ ولادته إلى سن محدودة ليس له حياة أدبية؛ فلا تنسب فطرته إلى الخير ولا إلى الشر لأنه لا يعقل ما يفعل. وعشاق هذا الرأي لا ينكرون الوساطة بين الخير والشر.

إلى هنا مرت بك آراء الحكماء في نزعات الفطرة وهي أربعة ولا أريد أن أتصدى لنقدها، وتمييز غثها من سمينها، وإنما أكل إلى اللبيب الفطن أنعام النظر في مضامينها، وأعرض عليه شبهات تحوم حول عقيدة فطرة الشر التي مقتها كبار المربين. فعشاقها يعتقدون أن الأرض كذلك إذا أهملت من الزراعة أنبتت الحسك[11] بطبيعتها. وهذا مردود لأن إهمالها من الزراعة يجعل الفطرة الطاهرة خاضعة لما تلقيه الرياح اللواقح من البزور. وأن الحسك النابت في البور[12] ليس ناتجاً من فطرتها الخبيثة بل من إهمال تعهدها. وليس من الحكمة أن تطلق الدابة تعيث في الأرض فساداً ثم تنحى باللوم على طبيعتها.

---

(10) كانت Kant حكيم ألماني توفي سنة 1804م اشتغل بالحكمة والرياضيات والطبيعيات، وعاش طويلاً ممتعاً بصحة نادرة المثال.

(11) نبات في ورقة شوك صلب ذو ثلاث شعب.

(12) الأرض قبل أن تصلح للزرع.

كذلك يعتقدون أن الطفل فيه قسوة وجبروت، يمسك الطائر بلا رحمة ويسومه العذاب، ويتناول الشيء فيفرق أوصاله. وليس اعتقادهم وجيهاً، لأن خلو فكر الطفل من الحقائق دفعه إلى مزاولة التجارب، فيحلل ويركب ما شاء، ليستخلص من أعماله حقائق كونية هو في حاجة إليها.

كذلك يعتقدون أن الطفل يسرق. ولو علموا أنه ساذج جاهل لمعنى الملك لجردوه من نسبة الشر إليه. أما كونه يعد نفسه مالكه لكل ما يجده فمسلم، ولكن هذا راجع إلى حبه الغريزي للحياة، وإلى جهله معنى الملك في مصطلح المجتمع الإنساني.

كذلك ينسبون إليه الصلف والكبرياء، والحقيقة أن الآباء يطرون أبناءهم؛ ويغلون في مديحهم فيخدعونهم ويغرونهم، ويتساهلون في عرض الأمور عليهم بعيدين عن الحيطة والتدبر، فيثبت في ذهن الطفل هذا الأثر الرديء، ومرجع ذلك حمقهم، وطبيعة الطفل من ذلك بريئة.

كذلك يتهمونه بالشره. ولم يوصم بهذه الخصلة إلا بانغماسه في النعيم. ولو أنهم أبعدوه عن مظاهر الترف، وصرفوه عن العادات المزرية، وحالوا بينه وبين البيئة السيئة، لوجدوا منه شخصاً كريم الطباع.

كذلك ينسبون إليه الكذب، وما صدقوا فيما وهموا، ولو فطنوا لعلموا أن الكذب أثر لازم الخشونة التي يلقاها الناشئ من قساة المعلمين، فيختلق الكذب ليلتمس النجاة من الحيف، ويحاول الهرب من شر مستطير، ويسدل على الحقيقة غشاء كثيفاً. يحتدم المعلم غيظاً ويدعو الطفل أمامه، ويشدد النكير عليه سائلاً عمن كسر الإناء مثلاً. فينسى الطفل الحق عند الإجابة، تخلصاً من شر العقوبة وحباً في السلامة. كذلك يكذب أحياناً في ادعاء الإفلاس وهو موسر، لأنه يخاف طمع الطامعين في ماله. ونراه أحياناً يكذب، ونتحرى السبب فنجده مرضاً قلب كيانه وجعل الباطل أمامه حقاً. وقد روى أن طفلاً كان مضطجعاً في فراشه، ولما غابت عنه خادمه رأي كان الشمعة المضاءة في الحجرة قد استطالت حتى زاد طولها على متر، ثم تقدمت إليه مرة وابتعدت عنه أخرى. قص هذا على خادمه فاعتقدت أنه كاذب، ثم دعت إليه أمه فقص عليها الرواية عينها واهماً أنه حق لا ريب فيه. ولما استجلت الحقيقة تبين لها أنه مصاب باضطراب عصبي مصحوب بحمى، ومن كان هذا شأنه فإنه يهذى. وربما تعلقت نفسه بالكذب لإهمال المشرفين عليه اختيار ما يقرؤه، فتسول له نفسه قراءة الأساطير الخرافية، والروايات الغرامية، فتجنى عليه.

وغالباً يركب معه المعلم مركباً خشناً، فيسوق إليه المعاني الدقيقة مجردة من ثوبها الحسي فيشت ذهنه ويضل عن الحق، فيلتجئ إلى الكذب فيلفق منه ما يشاء، وإلى الوشايات فيفتريها على من يشاء، شأن من لا يميز الغث من السمين، والخطأ من الصواب؛ وشأن من لا يفرق بين الإساءة والإحسان، ومن لا يوازن بين الإحسان والإحسان.

إذا زالت كل هذه العوائق وصلح مزاج الطفل، سرى الأثر الواقع على الحواس إلى الأعضاء المنفذة، وفعل الفعل الذي يرشد إليه وجدانه، فتجده يلتزم الصراحة والصدق حتى يعتادهما.

فطرة الرجل والمرأة

ذهب سقراط وأفلاطون[13] إلى أنه ليس بين الرجل والمرأة تفاوت كبير في القوى العقلية. ولذلك لم يفرقا بينهما في العلوم التي يجب عليهما دراستها. وعارضهما أرسطو[14] بأن الطبيعة البشرية فرقت بين طبيعتهما فميزت الرجل بالقوة، وخصت المرأة بأنواع المتاعب تقاسيها زمن الحيض والحمل والوضع والرضاع. وهذا التخالف دعاه لأن يرسم لكل من الرجل والمرأة نظاماً يلاءم المزاج.

([13]) أفلاطون **Plato** توفي في القرن الرابع قبل الميلاد وهو تلميذ سقراط، إغريقي الجنس حال في أنحاء المعمورة ثم عاد إلى أثينا وفيها أسس مدرسته التي سماها **Academy** وصارت محطاً لدراسة الفلسفة.

([14]) أرسطو **Aristotle** توفي سنة **322** ق.م وهو تلميذ أفلاطون. ومع أنه كان يوقر أستاذه قد عارض أفكاره. ولما مات أستاذه وكانت سن أرسطو **14** سنة تاقت نفسه إلى رأسة المدرسة، لكنه حرمها فغادر أثينا؛ واستدعاه فيليب ملك مقدونيا وسلمه ابنه الاسكندر ليعلمه. وبفضل هذه التربية نهض الاسكندر بأعباء الملك بعد أبيه بهمة نادرة المثال. ثم رجع أرسطو إلى أثينا وأسس فيها مدرسته وعكف على التدريس فيها. وبموت الاسكندر أفل نجمة وتغلب عليه الحاقدون فهر بمنهم إلى حيث توفي.

ولقد وفق المربون بين رأييهما، فرأوا أن لا تفاوت بين الولد والبنت في غضون السنوات السبع الأولى، فلا غضاضة إذا اشتركا معاً في نظام واحد. ثم تنفرج زاوية الخلف بينهما في زمن المراهقة، إذ البنت تدخل سريعاً في طور النماء، وهذا يستنزف نشاطها ويصيرها عرضة للأمراض العصبية، وقد دل الإحصاء على فشو الأمراض بين البنات وهن في طور التعلم. قرروا هذا مستندين إلى أن وزن دماغ الرجل أثقل بنحو 10% منه في المرأة، وثقل المخ من دواعي الفطنة والذكاء، ويناسبهن حينئذ أن يكون بين دروسهن شيء من فنون الجمال، ليبعث فيهن الشوق إلى التعلم يدفعهن إلى مقاومة أسباب الفتور.

نعم يتبادر للمطلع على هذه النسبة أن الرجل أقدر من المرأة على الحركات العقلية، غير أنه إذا نظر من جهة أخرى إلى أن نسبة ثقل المخ إلى ثقل الجسم في المرأة أوفر منها في الرجل، يتبين له أن لكل منهما مواهب يكونان بها قويين أو ضعيفين إذا قاما بالواجب أو قصرا فيه. أما ما يشاهد من رجحان القوى البدنية في الرجل فلما يستلزمه جهاده وجلاده للحصول على القوت؛ وأما هي فقد قصرتها العادات القومية على تدبير البيوت، فلم تتمتع به الرجل من مساكنة الطبيعة، وتمرين الأعضاء تمريناً يدعو إلى نموها وازدياد قوتها.

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد تتحير عقولنا إذا نظرنا إلى خلقه وحركاته وانقياده لسلطان الغرائز وقد يشارك الإنسان الحيوان في بعض هذه الغرائز فيستأنس بذلك، ولا يعجب من فواعلها كما يعجب من مثل غريزة الهداية إلى الموطن عند بعض الحيوان وعند أكثر الطير والحشرات. أخبرنا التاريخ أن حمام الزاجل حمل البطاق وطار بها من مكان إلى آخر، حتى استخدم في الحصار، لحمل الأخبار، وقد أقامت له مصر في الأعصر الغابرة أبراجاً، وعينت لها حراساً يراقبون وصول الحمام ليلاً أو نهاراً.

والكوكو طائر يسكن الأقاليم الشمالية، إذا أحس تغير الحرارة بموطنه ألف من أفراد نوعه أسراباً، واختار لها قائداً، وطار إلى حيث يطيب له المقام، ثم يكر راجعاً إلى وطنه الأصلي، وربما قطع المسافات الشاسعة في جو البحار لا يرى فيه من المعالم ما يتخذها دليلاً على الطريق إليه.

ربيت قطاً بمنزلي، ثم طاحت بأخلاقه الطوائح، فوضعته في قفص موصد، وأسدلت عليه غطاء، وأطلقته على مسافة بعيدة. وما مضى أسبوع حتى عاد إلى منزلي وهو يموء بصوت المعتذر المستاء.

نتلمس السر في الهداية إلى الوطن عند هذه الحيوانات فلا نفهمه، لأننا لا نشاركها في هذه الغريزة. ونظن أن الحيوان يعتمد على وجدانه، أو أن له قوة خفية تدرك التغيرات التي يلقاها في طريقه أثناء مهاجرته فيضبطها، ثم يستذكرها عند مسيس الحاجة.

وربما فهمنا السر بعد أنعام النظر إلى الزنبار، فإنه قبل أن يتحول عن عشه يحوم حوله على دوائر صغيرة فكبيرة، كأنه يرسم في خياله معالم موطنه لتساعده على الاهتداء إليه.

أما الإنسان فما أضعف حظه من القوى البدنية، تلقاء ما يموج بصدره من آلاف المطالب فيما يتعلق بغذائه وملبسه ومسكنه! حتى استفزته القدرة الإلهية إلى مشاركة بني نوعه في ميادين المحاكاة والمنافسة، ودائماً يكد لسد نقصه، ورأب صدعه. ومع أن حبه لهذه المشاركة فطري، لا ينال غرضه على ما ينبغي إلا بالتعليم الصحيح الذي يلائم ما ركز فيه من الاستعداد للتعلم، والاستفادة من التجارة الذاتية والنوعية، والتكيف عند عروض الحوادث؛ ولذلك تفاوتت درجات الناس في الجدارة؛ على أن اختلاف العناية بهذا الاستعداد وبذرائع التعليم، أوجد بين أفراده تفاوتاً كبيراً، كالذي نراه بين الحيوان الوحشي والداجن الذي من نوعه. فالوحشي بعد ميلاده يعتمد على محض سعيه، والداجن يستند إلى غيره، فيفقد قوى السعي الغريزية.

ولا يخفي أن الطفل إذا زاول الأمور بنفسه، في حالتي يسره وبؤسه، وذاق من الحوادث مرها وحلوها، وتقلب على نار الكوارث صغيرها وكبيرها، يكون على شاكلة أهل البادية رجلاً شهماً.

أما الطفل الذي قعد به حظه، وساءته تصرفات المشرفين عليه، فاحتفظوا به كالمتاع خشية أن يؤذيه مر النسيم إذا هب، فتراه مغبون الحق، ضعيف الصحة، سقيم الرأي، كذلك نراه بين أبناء الطبقة المترفة.

يخرج الطفل إلى عالم الوجود مجرداً من معرفة اللغة التي يعبر بها عن أغراضه، جاهلاً سنن الكون، لا يملك إلا الاستعداد الفطري الذي يرهف التعليم حده، ويزيده مضاء وشدة. فما بالنا حينئذ نهمل تقويمه وهو يزداد بالاختبار نبلاً، ونتخم فكره بالمعاني الصعبة، ونلقنه قضايا العلوم الدقيقة لنخرجه قبل أوانه رجلاً كبيراً، ولا نسلمه إلى الحوادث فيتعلم من خيرها وشرها، ما ينبه التفاته، ويقوي مداركه، ويفيده في معترك الحياة!

إن للتعليم نظاماً إذا روعي حول الطفل الضعيف إنساناً كبير النفس قوي الإرادة. وها هو ذا قد احتواه جوف الأرض باحثاً ومنقباً عن خيراتها الدفينة، ورفرف في الهواء حتى صارع النسور على قمم الجبال، وخاض البحار بالجاريات، واتخذ من البخار والكهرباء خادماً لمصالحه في حله وارتحاله.

المبحث الثاني

المخ وخلاياه وعلاقتها بالتعليم

المخ مركز القوى الفكرية، ومادته بيضاء من الداخل سمراء من الخارج، ومتوسط زنته بعد الميلاد عند الجنس الأبيض 11.7 من الأوقيات المذكور، و10 أوقيات عند الإناث، ويزداد ثقل المخ تدريجاً بحسب تقدم السن. فإذا بلغ الطفل السنة الثالثة وصلت زنة المخ ثقله عند الرجل. وإذا بلغ السابعة وصلت زنة المخ إلى ثقله عند الرجل. وأكبر متوسط لزنة المخ عند الرجل 50 أوقية متى بلغ الخامسة والثلاثين من العمر؛ وعند المرأة 45 أوقية متى بلغت الثلاثين من العمر. ويعلم من هذا أن متوسط زنة مخ الرجل أثقل نحو 10% منه عند المرأة. غير أن نسبة المخ إلى ثقل جسمها، أوفر من نسبته إلى ثقل جسمه.

وإذا بلغ من العمر من العمر أربعين سنة أخذ ثقل المخ ينقص بمتوسط أوقية واحدة في كل عشرات. وقد شوهد غالباً أن مخ النوابغ، ذوي القرائح الوقادة، والعقول الراجحة، يصل ثقله إلى 64 أوقية. وأن مخ الحمقى والبله يصل ثقله إلى 16 أوقية.

والمخ يحتوي على مئات من الملايين من الخلايا الدقيقة، ولا يكمل خلقها قبل بلوغ السنة الثالثة. وعند ذلك يدخل الطفل في طور التعلم النظامي.

وقد فحصت الخلايا المخية فحصاً دقيقاً، فعلم أنها تختلف اختلافاً بيناً في أطوار الحياة. فعند الميلاد تكون كل خلية منعزلة عن جارتها. وعند الطفولة تأخذ أشكالها في الاستدارة مع نتوءات صغيرة. وعند الرجولية تعظم وتمتد الربط بينها ويزيدها التمرين نمواً واتصالاً.

ولكل خلية قوة خاصة، إذا فقدتها بأي سبب ظهر الضعف في وظيفة هذه القوة، ولا يثمر في صاحبها تهذيب البتة.

فالتعليم إذن عمل يقصد به تهذيب هذه الخلايا المخية، وتوثيق عراها، وإحكام الصلة بينها. فيرى الطفل الوردة مثلاً. وينطق باسمها، ويسمع وصفها، ويشم عرفها، ويذوقها، ويرسم شكلها، ويكتب بقلمه موضوعات في معناها. وبحصول هذه الحركات ينضم شمل الخلايا المتنوعة التي اختص كل منها بإدراك معنى جزئي من هذه الأمور الكلية، وترتبط هذه الخلايا معاً بخيوط دقيقة هي الأعصاب الشعرية.

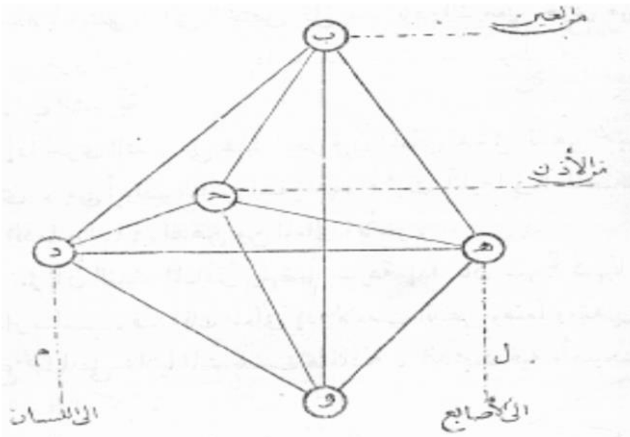
إذا جرى التعليم على هذا النحو فإن المعاني تدخل الذهن جميعاً وفرادى، من أبواب النفس المتفرقة، فتثبت آثارها في الحافظة، ويتم اندماجها بما في الذهن من المعاني الآخر.

نعلم أن الغذاء المادي ينهضم بسرعة إذا كان سهلاً شهياً، وبمقدار مناسب، فكذلك المعاني إلا لاءمت الذهن وضعاً ومقداراً، وتوزع عملها على خلايا المخ بنسب متعادلة، اندمجت فيه وأصبحت مادة للحياة الفكرية.

وطبيعة هذه الخلايا سرعة التأثر بالمحسوسات. فيجب أن يكون الطفل على مرأى ومسمع منها ليستمد عقله الحقائق. وهي إذا ركزت فيه هب الخيال فخلل عناصرها، وصاغ منها شكلاً جديداً، ثم تفرغ إليها الفكر فوزنها بحسب ما عنده من الخبرة، وأبدى حكمه الفصل إبداءً يؤثر في الوجدان ويغرى الأعضاء العاملة بالتنفيذ.

وهذه الطريقة التي يقصد بها التوفيق بين خلايا المخ وتأليف بعضها ببعض، لا تزال مطروحة على بساط البحث وسواء أكانت حقيقة أم حدسية فإنها تقرب إلى الأفهام معنى حركات الفكر.

وقد تصدى هيوارد[15] لبيانها في الشكل الآتي:-



(ب) رمز لخلية البصر و(ج) لخلية الصوت و(هـ) لخلية الكتابة أي التي تضبط حركات اليدين والأنامل و(د) لخلية النطق أي التي تضبط حركات اللسان والشفتين لإظهار مخارج الحروف و(و) لخلية حفظ المرئيات.

([15]) هيوارد **Heyward** عالم إنجليزي عصري يعني كثيراً بالأبحاث النفسية وعلاقتها بالمخ.

ففي الإنسان السليم البنية ترتبط هذه الخلايا بأعصاب شعرية حساسة. وإذا عرض للصحة عارض يعطل هذه الأعصاب فإن عصباً فإن عصباً آخر يتنبه ليؤدي ما يستطيع من الحركة العقلية. وقد يكون هناك جملة أعصاب بين الخليتين أحدها أقوى من الآخر. فرؤية الكلمة ثم النطق بها تتبع الاتجاه ب جـ د م مارة بخلية البصر والصوت والنطق ومنها إلى اللسان فيتحرك. ولاستنساخ الكتابة يتخذ الأثر الاتجاه (ب هـ ل) أو (ب د هـ ل). وللكتابة عند الإملاء يتخذ الأثر (حـ هـ ل) أو (جـ د هـ ل).

على هذا يجب تمرين الخلايا والأعصاب التي لها ارتباط بالدروس. فيرفع الطفل صوته عند التهجي، مجيداً نطق ما يلفظ به، ممعناً فيما يقرؤه من الحروف، مصغياً إلى ما ينبغي أن يكون عليه النطق، محسناً أداء الكتابة. وقد دلت التجارب على أنه إذا اتبعت طريقة يقصد بها شحذ قوة واحدة فحسب، أو إذا جاءت عوجاء عوجاء خالية من النظام الذي يوفق بين هذه الخلايا، فإن التعليم يوشك أن يكون سطحياً ضعيف الأثر في تقويم الأخلاق

علاقة العقل بالمخ

حققت التجارب ارتباط العقل بالمخ وتأثير أحدهما في الآخر. ففي حوادث الارتجاج المخي يضطرب العقل، ويتعطل الفكر والوجدان، ويكون ذلك وقتياً إذا لم تضر الإصابة بجوهر المخ. وإلا ذهبت بالملكات الفكرية كلها أو بعضها. وارتجاج المخ أحياناً يكون ذريعة للشفاء من البلة والجنون "وربما صحت الأجسام بالعلل".

وكذلك تؤثر المؤثرات الفكرية في كيان المخ، فتضطرب أعصابه أو تنفجر خلاياه، فيحدث الشلل للجسم، أو يصعقه الموت، لا فرق في ذلك بين أن يكون بالحزن أو بالفرح. أما تأثير الحزن فظاهر؛ وأما تأثير الفرح فكما حصل للفردوسي من شعراء الفرس، فإنه نظم سيرة رستم باز (عنتر الفرس) في ستين ألف بيت من الشعر، وقدمها إلى السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي في أوائل القرن السادس الهجري. التزم فيها خلوها من الألفاظ العربية مع ما في ذلك من الصعوبة، إذ أكثر الكلمات المستعملة في ذلك اللسان عربية. فكافأه السلطان بدينار عن كل بيت منها. وجملة ما منحه عليها ستون ألف دينار، وهو مقدار جسيم خبل عقل الفردوسي،

وقضى عليه، فتوفى في ليلته من شدة ما اعتراه من الذهول. كذلك يحدثنا التاريخ أن المتنبني طالت غربته عن وطنه، وكتب لجدته يسألها المسير إليه ببغداد، فقبلت كتابه، وحمت لوقتها سروراً به، وغلب عليها الفرح فقتلها، ومن مرثيته فيها قوله مشيراً إلى هذا:-

أتاهـا كتـابي بعـد يأس وترحـة   فماتت ســروراً بي ومت بها غماً

وسبب ذلك أن الجهود الفكرية كالجسدية تثير الدورة الدموية. والحركة أيا كان نوعها، يلازمها احتراق الدم المار في جزيئات الأنسجة البدنية والأعصاب عملاً بنظرية الاحتراق البطيء. وإذا طالت هذه الحركات أو زادت على الحد المقبول، نفد الدم الصالح للاحتراق، أو ازدادت الرواسب الفاسدة الناشئة عن هذا الاحتراق،وهي سم زعاف، يمتصها الجسم فيستهدف للخطر، وتبدو عليه أعراض السم. ومن هذا الباب إحساس الفتور والملل، من مواصل العمل. وقد وصف هذا الإحساس بأنه كصمام الأمن في الآلة، ينذر الإنسان بضرورة تعطيل العمل، وإلا سعى إلى حتفه،

ووقع بين مخالب الموت. وعلى من أحس وقع التعب أن يستريح لا بالإخلاد إلى السكون، بل بالاستراضة في الهواء الطلق، والتسلي برؤية المناظر البديعة. وربما اكتفى بغمض العينين ابتعاداً عن تأثير النور، أو بسد الأذنين انصرافاً عن الضوضاء، أو بالهرب من الشواغل والوساوس، أو بالنوم العميق، وهو أشد ما تصبو إليه النفس.

ومن غفل عن إعطاء الجسم نصيبه من الراحة عقب المتاعب الفكرية، وكان قوي البنية سليم البدن، جاءه النوم قهراً. كان أرسطو ثقيل النوم لفرط ما كان يعانيه من بحث الشئون الفكرية والخلقية والاجتماعية. ولا يمنع النوم أن يتشاغل عنه المكدود بالقراءة أو بالمشي؛ فقد علمت أن النائم قد يكون ماشياً. وكذلك لا يمنع النوم وقوع الإنسان في بحبوحة العذاب. فهذا ديميوس الذي اغتال حياة لويس الخامس عشر ملك فرنسا ربطت أوصاله في أربعة جياد، فمزقت شر ممزق. ولم يترك المعذبون في مقدورهم لوناً من العذاب إلا جربوه فيه، عذبوه بالكي بسفود محمي، وصبوا على جسمه الرصاص الذائب والكبريت المحرق والزيت المغلي. وكان – وراحمتاه – إذا طال عليه العذاب بنوع منها، يحاول الناس فينبهونه بعذاب آخر.

وقد قال قبيل موته: "إن حرمانه النوم كان أفظع ما لقى من العذاب". وإلى هذا يشير القرآن تنكيلاً بأهل الجحيم (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ).

إذا فهمت هذا عرفت الغرض الذي من أجله قرن المربون بين مطالب الجد واللب في نظام الدروس. فإن مجاوزة الحد في كل منهما، مذهبه للفائدة، ومدعاة للسقم. وقد جاء في الحديث (إن المنبت لا أرضاً ولا ظهراً أبقى).

الروح أو النفس

وصفها الإمام[16] الغزالي بأنها جسم لطيف منبعة تجويف القلب وينتشر في أجزاء الجسم بالعروق المبثوثة فيه، كالسراج تنبعث منه أنوار الحياة. ووصفها ابن[17] مسكويه بأنها ليست جسماً ولا عرضاً، بل جوهر بسيط غير محسوس. لأن الجسم لا بد له من صورة، ولا يقبل صورة أخرى إلا بعد مفارقة الصورة الأولى. فإذا قبل التثليث مثلاً فلا يقبل التربيع والتدوير إلا بعد مفارقة الشكل الأول. وعلى خلاف هذا نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء على اختلافها محسوسة ومعقولة من غير مفارقة للأولى؛ ولا تزال تقبل صورة بعد أخرى دون أن تضعف، بل هي تزداد بالصورة الأولى قوة تهيئها لقبول ما يرد عليها من الصور الأخر".

(16) الإمام الغزالي توفى سنة 505هـ تولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ثم تزهد، واشتغل بالتأليف، ومن أجل كتبه إحياء العلوم.

(17) ابن مسكويه توفى سنة 421هـ وهو أبو علي الخازان الرازي صاحب كتاب تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، وهو من العلماء الآخذين بالمعقول والمنقول. قرأ الحكمة الإغريقية، وجمع بينها وبين الشريعة الإسلامية.

فالروح – سواء أكانت جسماً جرياً على المذهب الأول، أم غير جسم ولا عرض جرياً على المذهب الثاني – هي قرينة الدم، وحليفة الأعصاب الضاربة في أنحاء البدن، والمبثوثة بين ذراته. وهي الفيض الإلهي الذي نفخه البارئ في البدن بعد تسويته. ولها التدبير العام لمدركات الحواس، والملكات الذهنية، وأجهزة التنفس والهضم والإفراز الخ، تسعد وتشقى بنسبة الأمزجة التي يتألف منها البدن، وتفتر إذا طال بها زمن اليقظة، فيأتيها النوم طوعاً أو كرهاً، لتستريح وتسترد نشاطها. وإذا طوحت بها الطوائح، ولم تعد تواقة إلى البقاء انفصلت من البدن، وتركته يتقلب بين يدي الفناء.

وقد جاهد الفلاسفة ابتغاء الوصول إلى حقيقتها. وكلما أوغلوا في البحث عنها، وصلوا إلى حيرة، وقنعوا من الغنيمة بالإياب راضين بوصفها بأنها سر إلهي يعزب فهمه على البشر (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

وقد ظهر أخيراً في عالم الاختراع عدسة بلورية، أنفذ المخترع من خلالها أشعة إلى جسم حي، فرآه محاطاً بأشعة مضيئة كالهالة سماها أشعة الحياة. ولما وجهها إلى جسم شخص يعالج سكرات الموت، رأى هذا الشعاع يتضاءل رويداً رويداً، وباختفائه انقضت الحياة. فظن المخترع أن هذا الشعاع هو الروح. ثم داخله الشك، لاحتمال أن يكون حدوث هذا النور من الحركة التي تؤديها جزيئات الجسم الحي. فيكون إذا من آثار الروح لا الروح نفسها.

وما أشبه الروح بالتيار الكهربائي، تراه ينفذ من خلال السلك المعدني ولا تشاهده، ولا ترى فرقاً بينه وبين سلك آخر فيه تيار بحسب الظاهر. وإنما النور والحركة يدلان على هذا التيار الكهربائي في الأول دون الثاني.

المبحث الثالث

التعليم

ميز الله تعالى الإنسان بقوتين جليلتين.

(1) القدرة على اختيار الأمور بنفسه، واستنباط الضوابط ذات الخير والشر منها.

(2) القدرة على سبرغور الأعمال التي نسج على منوالها الخلطاء والمعاصرون والسالفون؛ والسعي في محاكاة ما عانوه لرقي الشئون الاجتماعية.

فالقوة الأولى يشارك الحيوان الراقي الإنسان فيها من بعض الوجوه. وأما الثانية فهي حبس على الإنسان، يستفيد بها مطالبه من طريق التكلم مع المجربين، وقراءة سيرهم، والاسترشاد بنصائح المؤدبين، والتخلق بهديهم.

إن السـعيد لـه في غيره عظـة وفي التجـارب تحكيم ومعتبر

من أجل هذا اهتمت كل أمة بسن أنظمة تلاءم عاداتها. ومنذ فطر الله الإنسان على الاجتماع لا تزال القراءة والكتابة والحساب أساساً للتعليم.

يبتدئ الطفل فيتعلم لغة أبويه وخلطائه والمستوطنين بلده؛ ويستفيد من مجرباتهم؛ ويتحول إلى منطقة أوسع يتعلم فيها اللغات التي جال أهلها في سبل الحياة، ليكون له بالعقول الراجحة صلة. فتتسع ميادين اختباره، وتمتد آفاق نظراته، وتغزر ينابيع معارفه.

وقد كلف المعلم تهذيب الطفل؛ وألزم تغذيته بالعلوم والآداب؛ وحمل عبء التبعة كلها للوصول به إلى شاطئ السلامة كاملاً. حتى لقد غلا بارت[18] فادعى أن في استطاعته وحده أن يصيره نابغة أو عبقرياً. فهذا مسلم إذا وجد لدى الطفل استعداد للفهم والحفظ والذكر. وما ذا عسى أن يبلغه المعلم القدير، إذا فقد الطفل هذه المواهب؟ والنسيان وحده آفة كبرى تعارض قوانين التعليم، وتحل عراه. ومن يشترط في المعلم الجدارة ويلفت نظره عن الاستعداد الفطري للطفل فقد شط عن الصواب؛ وربما غلب عليه في حكمه هذا نبوغه في إبان طفولته؛ فيتخذ من نفسه مقياساً وينبري للمناضلة به. ومن يجرد نفسه من ذخائر الحفظ والذكر، ثم يأخذ مجلسه بين المتكلمين أو الكاتبين، لا يجد شيئاً يستمد منه في الأمرين.

---

(18) هربارت توفى سنة **1841** ألماني عاصر أستاذ بستالوتزي وبرز في الحكمة والرياضيات والطبيعيات، له آراء في التعليم وطرق سديدة عول عليها المربون.

إليك الفراشة، يؤثر ضوء المصباح في بصرها، فتتأثر أعصاب الحركة عندها، وتسعى للاقتراب من الضوء. وما تلمس اللهب حتى تحس ألم الاحتراق فترتد ناكصة. ثم يؤثر الضوء ثانياً في بصرها، فتنسى ما اختبرته أولاً، وتندفع إلى اللهب وتحتك به، فيزيدها ألماً على ألم. كأن ما أصابها أولاً، على شدته قد ذهب أدراج الرياح. ولا تزال في اندفاع ونكوص حتى تتقطع أوصالها، ويأتيها الموت من كل مكان.

هذا هو شأن غير الفقري من الحيوان؛ فإنه يولد وينمو، ونصيبه من الغريزة ثابت في الأمرين لا يقبل التعديل. وقد استثنوا من ذلك النمل والنحل والزنبار فإن التمرين يكسبها قوة، كالحيوان الفقري الذي حياته رهينة الكسب.

الشوق والتشويق

الشوق حنين النفس إلى شيء تميل إليه، فتنبسط له الأعصاب، وتستقبل مقداراً وفيراً من الدم يجول في أنحاء الجسم، ويعوض ما تداثر من أنسجته، ويطهره من فضلات الاحتراق. وإذا حيل بين النفس وما تشتهى انقبضت الأعصاب، وانحسر الدم فيلقي الجسم العذاب من أجل ذلك، ويعيش عيشة سيئة.

وليس لدينا ضابط للمشوقات إذ لكل إنسان غرض يوافق مزاجه يكد لإدراكه ولا يطيق عنه صبراً، وربما لا يكون لهذا الغرض أثر مثله في شخص آخر. فإن من يجيد الخط مثلاً إذا تناول مكتوباً فإنه يتتبع حروفه، وينقد ما خلف منها القواعد المألوفة. بيد أن الأديب يوجه نظره إلى مادته وما زخر فيها من المعاني وما حوته من الترتيب والتنسيق، ويمر بخطه الكريم دون أن يعيره التفاتاً.

ولو قدر المربي على تعرف مزاج الطفل من غضون حركاته لتسنى له أن يقطع لرقي التعليم شوطاً واسعاً، ولا تخذ له من ذرائع التشويق عدته، ولأمكنه أن يضبط انتباه الطفل ويسير به إلى الغرض المنشود.

لا نقول بضرورة كون هذا الوازع المشوق من الأمور المألوفة فحسب، لأن الأمر المألوف ترخص العادة من قيمته، فتبتذله النفس ولا يعود له وقع فيها. ولا نقول بضرورة كونه من الأشياء الطريفة الغريبة فحسب، لأن الأمر الغريب تنفر منه التنفس خشية أن تترسم فيه ما يؤلمها.

وإذا اجتمع الطريف والمألوف معاً، وائتلفت عناصرهما، تولدت منهما شرارة الشوق، وبرقت منهما أشعة الجذل والسرور.

كم تتلهف نفس طلب العلم إلى إحراز مكافأة شوقاً إليها، فإذا انطلق في ميدان العلم قضاياه نفسه، صار له من الاستكثار منه شوق يغنيه عن تلك المكافأة، وبذلك نرى هذا الشوق خرج من دائرة المحسوسات إلى درجة المعاني، وهي الدرجة التي تسمو بها النفس.

وكثيراً ما تلهو نفس الطفل بما يملك حواسه فينصرف عن الانتباه إلى ما نريد، وما هي إلا همة المعلم يستعين بها على إثارة الشوق فيه، فيتحول الطفل بسهولة عن ميوله ويخضع لإرادة المعلم. فإذا رافقه المعلم إلى الصحراء مثلاً وأراه مظاهر الطبيعة، وآثارها البديعة، من الجبال والهضاب، وكيف يتراكم السحاب، وأراه الشمس لابسة حلة الجمال في شروقها وغروبها، وفك وثاقه فسمح له بالجولان أينما شاء، فإن ذلك يحرك فيه الشوق لا محالة فيزيد الأمور تأملاً، ويملأ عينيه من محاسنها، ويصغى إلى أسمائها وما يصوغه المعلم من الأحاديث لها، ليسلي نفسه إذا عاد بذكرها، ويحدث إخوانه مفتخراً بها. وهذا هو معنى قول بستالوتزي: "كتاب الطبيعة يجب أن يقرأ كل كتاب".

ولقد يملك الشوق زمام الأديب فيدفعه إلى قرض الشعر أو قول النثر، والمطلع يرى بروق الشوق تلألأ من ثنايا منطقة العذب. ترى هذا جلياً في قول علي[19] بن الجهم يستمطر الرحمة للبعيد عن وطنه:-

---

(19) علي بن الجهم كان من الأدباء المعاصرين للمتوكل الخليفة العباسي.

وارحمتا للغرب في البد　　النازح ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا　　بالعيش من بعده وما انتفعا

فإن شوقه إلى وطنه تمكن من قلبه تمكناً دفعه لإظهار حنانه على الغريب. وهذا قول أبي نواس[20] له روعة أخرى لا تنقص عن تلك الروعة:-

تقول متى التي من بيتها خف مركبي　　عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للعلا متطلب　　بلى أن أسباب الغني لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر　　جرت فجرى في إثرهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة　　إلى بلد فيه الخصيب أمير

فإنه – إذا أبى المقام بوطنه ورغب في النزوح عنه – لم يحط من كرامته والسعي في جر النفع إليه، فنشط إلى النزوح على غير إرادة أهله، ليكمل نفسه ويكثر حاسديه بعودة تجعل حظ وطنه من السعادة موفوراً. وهذا الضرب من الشوق شيمة أولى النفوس الكبيرة.

([20]) أبو نواس هو أبو علي الحسين بن هانئ توفى سنة **198**هـ من أجود الشعراء بديهة، وأرقهم حاشية، وكان العلماء يروون شعره لملاحته ويتفكهون به.

ولقد تفهم فواعل الشوق في الحياة، إذا صوبت نظرك إلى الحصان مثلاً وقد ساقه سائسه إلى موارد الماء، فإنه ينقاد إليه رغماً منه، ولكنه لا يشرب إلا إذا اشتاق الماء، أو أثار التصفير فيه هذا الشوق. والشجرة تخرج أزهارها ذات الألوان الجميلة الجذابة تفنن بها الحشرات فتجيء إليها، وتهبط عليها، حاملة في فمها وبين أرجلها مادة النبات فتتولد منه الثمرة.

الحاجة إلى شحذ الغريزة

لو فحصت عن القوة التي تضبط حركات الحيوان لعلمت أنها الغرائز فهي تصونه، وبيدها شئونه، وترشده إلى الخير، وتدفع عنه الضر.

ولو بحثت عن القوة التي تملك زمام الطفل، وتكفل الرجل في الأوقات العصبية التي يذهل فيها عقله، ويحار لبه، ما وجدت مصدرها غير الغرائز.

ولو نظرت إلى الإنسان العاقل والحوادث تصارعه ويصارعها، لم تر له صديقاً حميماً يكف عنه المخاوف سوى الغرائز.

فللغرائز الحول والطول، والحكم العدل.

بيد أن البيئة بما زخرت من ضروب الحيل والزخرف تستطيع أن تموه الباطل وتصبغه بصبغة الحق، وتقف في طريق الغرائز فتحول مجراها، وتجعلها ذريعة الشر. فالسمكة تسعى في البحر بدافع الغريزة لنيل غذائها فتلقهمه، وقد يكون طعماً فتقع به في شرك الموت. والإنسان يستند إلى بني نوعه لأن الاجتماع فيه طبع، فيجمعه سوء طالعة بقوم قطع التنازع أواصر إخائهم، فيلقي منهم ما يسوءه الرجل يسقط من الترام فتتحرك رجلاه بحكم الغريزة دفاعاً عن النفس، فتمر العجلات بهما فتبترهما. والغريق يمد يديه أملاً في المعونة، أو رجاء أن تتعلقا بشيء. فيكون صنعهما هذا سبباً للغرق، إذ لو ترك نفسه لطفاً جزء منه فينجو. قال المعري في هذا المعنى:

وكـل يريـد العيش والعيش حتفـه ويســتعـذب اللـذات وهي سمـام

وقال في موضع آخر:

ورب ظــمـــآن إلى مـــورد والمــوت لم يــعــلــم في ورده

كذلك قال ابن زيدون في رسالته الجدية: "لا غرو قد يغص الماء شاربه. ويقتل الدواء المستشفى به. ويؤتي الحذر من مأمنه. وتكون منية المتمني في أمنيته. والحين قد يسبق جهد الحريص".

فالغريزة ترشد بالطبع إلى السلامة، وتتغير صبغتها صلاحاً وفساداً تبعاً لطبيعة البيئة. ولذلك يجب إشراف العقل عليها ليمحص قضاياها، ويتخذ منها مقدمات صادقة لأحكامه. يتردد الإنسان بين طريق الفضائل والرذائل كالتائه في البيداء، والساري في الظلماء؛ وإذا اضطرب به بحر الحوادث مرت سفينته بشواطئ الشره والقناعة، والجبن والشجاعة، والحشمة والكبرياء، والتواضع والرياء. فلا يدري أيهما يختار، ولا على أيهما يعول؛ وإذا قادته الغريزة إلى واحدة منها زحمته الأخرى حتى يؤيد العقل أمثلها، وبذلك يظهر الألمعي الذي يظن بك الظن كأنه قد رأى وقد سمع.

كان ابن طولون يأكل في إحدى حدائقه، فرأى سائلاً في ثياب رثة، فأرسل إليه بعض الغلمان برغيف ودجاجة، فآب الغلام دون أن يتناول السائل منه شيئاً. فأمر ابن طولون به فأحضر، واتهمه بأنه جاسوس بعض الأعداء. فاعترف الرجل بذلك. فقال بعض جلسائه إن صنيع الملك ضرب من السحر، فقال ابن طولون: "إنما هو قياس صائب، إني رأيت سوء هيئة الرجل، وإباءه عن طعام يتمنى الشبعان أن يأكله. ثم رأيت ماله من الجرأة، ورباطة الجأش، فحكمت بما حكمت".

وروى ابن خلدون أن رضوان قال: أنشدت أبا العباس ابن شعيب مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها إليه وهو:

لم أدر حين وقفت بالأطلال　　ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال له على البديهة: هذا شعر فقيه فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ قال من قوله: "ما الفرق" إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب. فقال: لله أبوك، فإنه ابن النحوي. فانظر كيف كان حكم هذا الناقد سديداً. وقد أجاد ابن المعتز حيث يقول:-

تفقد مساقط لحظ المريب　　فإن العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام　　فإنك تجني ثمار الغيوب

كيف تتخذ الغريزة أساساً للتعليم؟

علينا أن نثير بعض الغرائز في الطفل، ثم نراقب أثرها ونعدله محواً وإثباتاً على النمط الذي يلاءم التعليم. فرضنا أننا عرضنا عليه لعبة جديدة، فإنك تراه كما في الشكل الآتي يمد يديه لأخذها متلهفاً، وهذا طبع لا يتخلف فيه ما دام سليماً من الأمراض. فرضنا أننا ضربناه على يديه وهو يمدهما، فإنه يردهما مكرهاً، خوفاً على نفسه من الأذى، ويتسلط عليه اليأس فيبكي ويصرخ، والبكاء في اصطلاح الأطفال لغة يعبر بها عن الاستياء الذاتي يهيج به عواطف السامعين للأخذ بناصره.

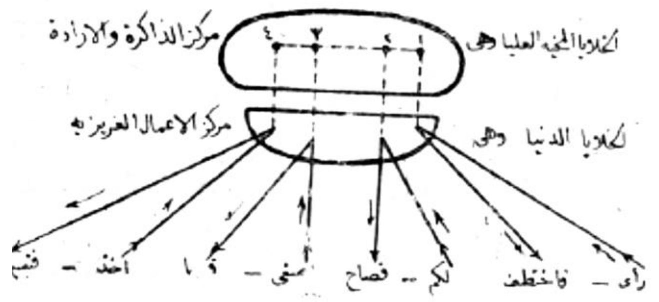
هبنا ظهرنا أمامه حينئذ مشفقين، ورمقناه بأعيننا فرحين، وخاطبناه بلين القول، وأريناه أن هذه اللعبة ملكنا، وإذا رغب في أخذها فعليه أن يتوسل إلينا، ويبث رجاءه فينا، ويستعطفنا في إسدائها إليه، فربما سكن روعه وهدأ جأشه ولبى هذا الطلب، رغبة في أن يملكها ومتى سلمناها إليه، نجده لا محالة يسمح عن عينيه دموع الحزن وهي حارة، ويستبدل بها دموع الدلال وهي باردة، ويبسم ثغره، ويجري ماء البشاشة في وجهه، ويجول السرور في صدره.

فهذه سلسلة حركات اطرادية متلازمة؛ يؤثر جمال الشيء في بصره، فتتحرك يداه لملكه، وتنبعث نفسه لاغتصابه، ولا يستطيع كتمان ما يدور بخلده إذا حرمه، فيبكي إشارة إلى حبوط مسعاه. وإذا خفف وطأة طلبه بحسن عبارته، واستعمل التلميح بدل التصريح لإظهار عواطفه، فإنه يظفر ببغيته المنشودة.

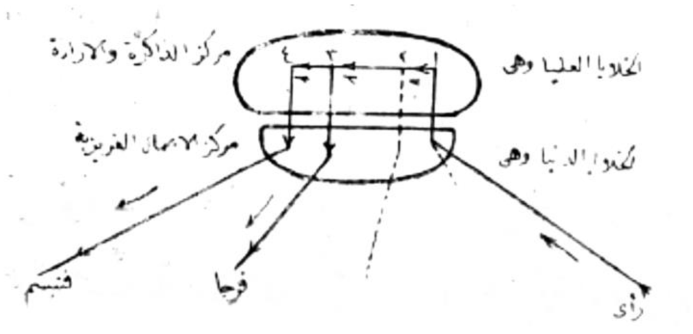
فإذا فهم الطفل هذه الحركات النفسية ووعاها، واستعمل ملكتي الحفظ والذكر خير استعمال، بمعنى أنه عند ما ننزل به الحوادث يتريث حتى يستذكر نتيجة تجاربه فيما له بها شبه؛ فإنه يصبح أحزم من أن يمد يده مرة أخرى، على وجه يكون عقباه الضرر.

وبعبارة أخرى يقف متردداً بين مطلبي الغريزة والعقل، رغبة في أخذها، ورهبة من العقوبة، ويرجح جانب العقل.

هذا الشكل يمثل مسالك المخ قبل التعليم



وهذا الشكل يمثل مسالك المخ بعد التعليم

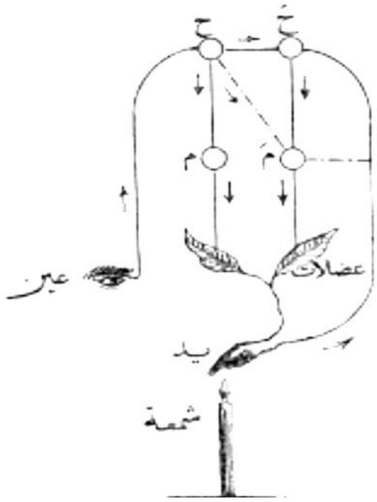


إن الشكل الأول هنا يمثل أربعة مسالك للخلايا الدنيا، التي هي مراجع للأعمال الغريزية. وأربعة مسالك أخرى منقطة، تصل الخلايا الدنيا بالعليا، التي هي مستودع قوي الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والعقل، ورسمها هكذا عنوان على وجودها بالقوة، وسير السهام يرشد إلى لزوم الأسباب للمسببات هكذا:

رأى فاختطف – لكم فصاح – نصح فرجا – أخذ فتبسم.

وترى بالشكل الثاني أن رؤية الشيء لا يسير أثرها سيرة الغريزي الأول، المشار إليه بالمسلك المنقط، بل يسير إلى قوة الملاحظة لتفقد معالمه؛ ثم إلى الحافظة والذاكرة؛ ثم إلى الخيال فيحلل أجزاءه، ويركبه تركيباً يناسب ما رسخ فيه من قوة الإبداع، ثم إلى القوة العاقلة المفكرة لتتدبر الأمر وتصوع الحكم الفصل، وتبعث به إلى أعضاء الحركة لتستمد منه التنفيذ. وهنا يرى أن بعض المسالك الغريزية صار عاطلاً، بعد أن كان عاملاً، وأن التيار الذي ينقل التأثير بدلاً من أن يعجل فيوعز بالإنفاذ يجيء إلى الخلايا العليا، طلباً للاستشارة، ثم يهبط أخيراً إلى الأعضاء العاملة بعد إمعان وروية.

فانظر كيف فعل التعليم بالمسالك الغريزية، وكيف أفاض عليها من خير الوسائل ما يكفل الغاية المشدودة، وكيف وفق بين المبدأ والغاية، جاعلاً من العقل سلطاناً على الحركات، وكيف تنبهت المسالك الأخرى التي لولاها لاختل نظام الأعمال أو اعتراها الفساد؛ وكيف برزت الأعمال ممحصة بعد أن جردت من غشاوة التضليل. عمل مثل هذا لم يأخذ على الإنسان عهداً أن يكون دائماً حليف الصواب، فالمجتهد يصيب ويخطئ على حسب رزانة العقل، وجودة تصرفات قواه، ومساعدة العناية الإلهية.



إليك مثالاً آخر: إن الشمعة المضيئة في هذا الشكل تنبه مركز الإحساس البصري في المخ ح فينتقل التأثير منه إلى مركز الحركة م. ومنه إلى العضلات الموصولة به فتتحرك تنفيذاً للعمل المطلوب، فتمتد اليد إلى الشمعة لتلمسها. ثم إن الحركة التي تحدث ألم الاحتراق تنبه عن طريق آخر مركز الإحساس حَ لأداء عمل يضاد الأول، وهو كف اليد عن مركز التأثير، فإذا عرض التأثير في فرصة أخرى،

فإن مركز الإحساس الذي ضبط صورة الانفعال الأخير وما فيه من حرج، ينقل الإحساس إلى حَ مباشرة بدلاً من الاستعانة بمركز الحركة م، ثم يسري حكم العقل في لهب الشمعة إلى كل ما له شبه به، فيدعو الحوادث ويذكر ما لا بها من الخطر قبل أن تمتد اليد للاختبار، ويصدر الحكم إما بعدم الاقتراب منه لأنه ذو خطر؛ وإما بالفرار منه ويكفي لذلك تنبيه المركز مَ.

وقد ورد في الأثر "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" فالمؤمن الذي شأنه أن يكون عاقلاً إذا نزلت به مصيبة، بحث عن أسبابها، وفسح لها في ذهنه مكاناً؛ فإذا عاودته بنفسها أو بنظائرها، أيقظ عقله للحكم السديد قياساً على ما جرب، ونبه الوازع لاجتنابها، إلا إذا قضى عليه القضاء المبرم، وأنساه استحضار العبرة، فحينئذ لا يتسع المجال إلا للصبر.

فعلى المؤدبين أن يرفقوا بقوتي الحفظ والذكر، ولا يركنوا إلى مجرد الاستظهار مهملين الاستذكار الإرداي الذي هو دعامة الأخلاق. أليست المعاني كنزاً يدخر لينفق منه عند مسيس الحاجة؟ ولولا الإنفاق لكان المدخر من سقط المتاع.

تختلف نزعات الكتاب والخطباء باختلاف قدرتهم على عرض الأفكار وأشباهها ونظائرها. ترى الشاعر إذا عزم على الإنشاء تتوارد على ذهنه المعاني وعباراتها فيستجيد، ويؤلف بين أشتات الشوارد، ويسوق إلى الناس قولاً يستهوي العقول وينقلها إلى الأغراض التي يريدها، فأحياناً يزيد تصغير نفس البخيل في نظره وينفره من البخل. وقد قال حاتم الطائي في هذا المعنى وأجاد:

يرى البخيل سبيل المال واحدة　　إن الجواد يرى في ماله سبلاً

ويرى أحياناً أن ينزع عن الجبان رداء الرعب والفزع وينفخ به روح الشجاعة والإقدام كما قال جرير:

قال للجبان إذا تأخر سرجه　　هل أنت من شرك المنية ناج؟

ويريد أحياناً أن يزيل ما يخالج القلب من الامتعاض كما قال صاحب المثل السائر:-

جرحوا قلبي وحبهم يذهب بألم الجراحة، وطرفوا عيني وهم يزيدون في نظرها ملاحة.

ويريد أحياناً أن يعتذر عن مزاولة أمر غير مباح على حد قول ابن الرومي:-

رأيت خضاب المرء بعد مشيبه　　حداداً على شرخ الشبية يلبس

ويرغب أحياناً أن يرقي إلى ذروة رجائه فيصوغ القول الفذ على النهج الذي صاغه أبو زيد الأشبوني في إدريس العالي ملك الأندلس حيث قال:-

أنـظـرونا نـقـتـبـس مـن نـوركـم   إنــه مــن نــور رب الــعــالمــين

وقد بلغ تأثير الملك من روعة هذا الشعر، وكان محتجباً على عادته، أن أمر الحاجب أن يرفع عنه الحجاب، ليقابل بوجهه وجه الشاعر، وأمر له بإحسان بين أمنيتيه.

وأحياناً يود تصوير الحقيقة بالوصف الموجز كقول الحرث إن حلزة اليشكري.

أجمعوا أمرهم عشـــــاء فلمـا   أصـبحوا أصـبحت لهم ضـوضـاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـــ   ـــهال خيل خلال ذاك رغاء[21]

---

(21) ضجيج.

الملكات العقلية

1) الملاحظة

استدعى معلم شابين من تلاميذه؛ فلما مثلاً بين يديه سألهما عما شاهدا في الطريق إلى المدرسة، فأجاب أحدهما بأنه غادر المنزل وسار حتى وصل إلى المدرسة، ولم يتذكر شيئاً رآه أثناء السير أو سمعه. أما الآخر فقد أطرق قليلاً، ثم انبرى فقص ما أثر في حواسه من مظاهر الكون وزخرف الصناعة، وأرسل شعاعاً من فكره فخلل دقائقها، ورسمها رسماً يحرك العواطف ويستحث الخيال؛ ثم انطلق جواد لسانه في ميدان القول، فوصف الجو صباحاً حينما غادر المنزل؛ وعطف على وصف الشمس وقت شروقها، وما لها من القوة في إزالة حجب الظلام؛ ثم تكلم عن السحلب

وتكوينه وفوائده ووقوفه أمام الشمس وانحساره عنها؛ ووصف نور الشجر يفتحه من النسيم، ويترقرق عليه دمع الندى، وتتعطر به الأرجاء – وصف كل هذا وصفاً جمع طرائف الأدب، ومشاهد الطبيعة. ثم شخص إلى عالم الحيوان والطير فذكر ما شجاه من أصواتها، وما عرف من سجاياها، وقد أخذ حديثه يتدفق تدفقاً يدل حسن تنسيقه، وارتباط أجزائه، على قوة بليغة من الملاحظة وحسن الذوق. من ذا الذي لا تفتنه مظاهر الطبيعة؟ يكون السكون شاملاً قبل بزوغ الشمس، حتى إذا تنفس الصبح غردت الطيور على أفنان الأشجار فرحة، ثم تتألق الشمس فتخلع عن الجو لباس الحداد الذي اكتسى به حزناً على فراقها، وتأخذ في السير والنفوس تشيعها بنظرات المشتاق حتى تغيب.

فمثل هذا المظهر إذا صقلته يد الطبيعة، وألبسته ثياب الجدة، تجده يوجه زمام النفس إلى التطلع إليه، والكف عما سواه، ومتى شبعت منه – وزمن هذا لا يزيد على بضع ثوان – أدركت بغيتها، وصار تأثير فيها عادياً، اللهم إلا إذا تغير شكله أو وصفه، أو تكرر نظر النفس إليه باعتبارات عدة.

لا نطمع أن نذكر السبب الحقيقي لذلك؛ وإنما يهمنا أن نرى ولو على سبيل الحدس والتخمين وجه التأثير. فإن المعاني الجديدة – على ما شرحنا في باب الشوق – تثير النفس فترحب بها، وتنزلها في دائرة تليق بها من فراغ العقل، وهناك يحصل بين المكان ونزيله احتكاك كاحتكاك الكهرباء، فيتولد منه شرارة نعبر عنها بوجدان السرور والجذل. فإذا تحققنا أن نتيجة هذا التفاعل فقدان مادة التيارات الكهربائية، فلا نزاع في أن حركة الوجدان ينشأ عنها استهلاك مادة الخلية المنوطة بملاحظته، فتنصرف عنه انصرافاً قهرياً. والملاحظة حينئذ لا تقف، بل تشتغل بغيره، لأن النفس لا تظل دائبة في الملاحظة ما دامت في طور اليقظة.

فإذا شئنا حبس الملاحظة على أمر بعينه، فلا بد من صبغه بصبغة متجددة كالخيالة[22]، ليبعث النفس على إيقاظ ما غزرت مادته من الخلايا. والنفس الكبيرة لا تعتمد على شيء مما يثير الملاحظة، بل تتصرف بنفسها ناظرة إلى الشيء الثابت من وجوه لتكون المعاني جديدة فياضة. ولا نحتاج إلى شيء وراء هذا لتقويم الملاحظة التي عليها عماد القوى العقلية.

([22]) السينما توغراف.

ضع قلمك أمامك، وتفرغ للنظر إليه، بحيث لا تدع البصر يتحول عنه، فإنه لا محاطة يكل بعد زمن وجيز. لكنك إذا شخصت إليه من وجوه كثيرة، وعرضت أوصافه، ففحصت عن شكله ولونه واعتداله، وطيب مادته، وحسن بريه، وسلاسة كتابته، ووازنت بينه وبين نظائره. ثم إذا توسعت وخرجت من حظيرة الملاحظة وسمحت للانتباه أن يتصور الأقطار التي تزرعه، والصناع الذين يهيئونه للاستعمال، والتجار الذي يجلبونه إلى ديارنا. ثم اخترق ذهنك حجاب الماضي فكشفت عن تاريخه، وما ترنم الأدباء بشأنه في المديح وما صاغوه من زخرف القول، في المفاضلة بينه وبين السيف إلى آخر ما تستطيع سرده على سبيل الاستطراد – فإنك تجد زمن الملاحظة يطول بقدر ما يسمح به حسن تصرفك، لأن كل حركة ذهنية من هذا القبيل تنبه خلية خاصة، ولا تكاد تكل الواحدة حتى تتنبه الأخرى.

لا تستطيع النفس أن تصوب سهام الملاحظة إلا إلى شيء واحد في زمن واحد، وقد يكون الانتباه إليه قهرياً إذا قوى سببه كصوت الموسيقى، ورؤية البرق الخاطف، وسماع الرعد القاصف. وقد يحدث فيها امتعاضاً وألماً كمن أصيب بجرح وتولى الطبيب تضميده، غير أن النفس حينئذ هرباً من إحساس التوجع تتوسل إلى الانصراف عنه بعامل آخر كالتنهد أو الصراخ أو اضطراب الأيدي والأرجل، لتحول الملاحظة إلى أمر آخر تحدثه؛ كأنها تسعى بطبيعتها لتهدئة الخاطر السقيم، فتقيم شيئاً سهلاً مقام شيء صعب، ومثل هذا ضحك الحزين، "وشر الشدائد ما يضحك"، ولعله من الجسم تخفيف للوعة، كالعرق يفرزه الجسم تقليلاً لوطأة الحرارة. وغالباً يبكي الأطفال بأصوات رهيبة، ولم يكن بكاؤهم يأساً من فقدان الشيء، بل تسلية وتخفيفاً لمصيبة الحرمان. وإن من برزخ تحت أعباء البؤس تتلهف نفسه لاستذكار ما تمتع به من قبل، أو تنصرف إلى انتظار أسباب الفرح ترجو بها تخفيف وقع الشدة. حتى إذا صلح الأمر وجبر الكسر فهيهات أن يذكر الإنسان سابق آلامه، وتراه يكره من يعكر عليه صفاء سروره بتذكير إياها. وهذا مصداق قوله تعالى: (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ).

وإذا كان العقل لا يتفرغ إلا لشيء واحد، فكيف تأتي للإنسان أن يكون كاتباً ومفكراً في آن واحد، لو فكرت لعلمت أن هذين الأمرين ليسا خاضعين لسلطان واحد. فأحدهما صادر عن الفكر، والآخر صيرته العادة آلياً.

الملاحظة نور استجلى به النفس حقائق المرئيات وأشباهها من المحسوسات. فبينما الإنسان يمر بفكره على الأشياء بدون إمعان وروية، ولا يستطيع أن يغوص في مضامينها، ليتعرف شأنها، وما تحتوي من خير وشر، تجد المصور يرمق الأشياء بعين الخبير، فيرسم ورق الشجر بدرجات تتفاوت في الخضرة، بحسب نصيبه من الضوء، فأحياناً مشرباً بسمرة وأحياناً بصفرة.

وتجد الفيلسوف ناظراً إلى السماء، غواصاً في بحار الفكر والتأمل. على أن النفس المدركة تتفاوت مدركاتها للشيء الواحد بتنوع أطوارها كالنشاط والكسل، والجوع والامتلاء، والصحة والسقم، والسرور والحزن، والعلم والجهل، فتجدها لا تستقر على حال واحدة كزئبق مقياس الحرارة. ولا مشاحة في أن حالها في الصباح غير حالها في المساء، وهي في الشتاء غيرها في الصيف، وهي صغيرة غيرها كبيرة أو معمرة، وهي ساذجة غيرها عالمة مدبرة مجربة. فكم لعب اليأس بفكر لاعب الشطرنج(23) مثلاً، فتفيض عليه الملاحظة وحياً ينفخ فيه روحاً يقهر بها خصمه في ميدان المناضلة. وقد تعترضه العقبة الكأدا، فيحكم الملاحظة ويخرج منها حليف الفوز ناجحاً. وكم ألتذ الإنسان من زخرف الشيء لأول وهلة، أو استجاد مذاقه فانبرى يحمده، ويحببه إلى النفوس، مع أنه لو راقيه بإمعان، وأفاض عليه شعاعاً من نور الفكر لأنجلي عن ستم في دسم.

(23) الشطرنج لعبة هندية الأصل قد أنصنت بالمشرق أولاً ثم صارت من أهم الألعاب في العالم. اعتبرها الغربيون دون العلوم بيسير وفوق الألعاب بكثير.

فالملاحظة نعيم المفكر، وسلوى المتوجع، ومفزع المحزون، وحسبنا دليلاً على علو شأنها ما نرى من آثارها الكبار عند ترداد النظر إلى شيء معين.

يـزيـدك وجـهـه حسـنـاً إذا مـا زدتـه نـظـراً[24]

ناهيك بدرجة المراقبة التي يلوذ بها الأتقياء، فيعرضون أعمالهم على محك الانتقاد قبل أن يختموا صحيفة يومهم؛ ويحاسبون أنفسهم على ما فعلوا، فإذا كان خيراً عزموا على الاستكثار منه، وإذا خطرت فيه شائبة الباطل استعاذوا بالله منه وتحاموه.

([24]) أصل هذا البيت للعباس بن الأحنف فإن هرون الرشيد وصف جاريته جناناً بقول:

جـنـان قـد رأيـنـاهـا فـلـم نـر مـثـلـهـا بشـراً

ثم حاول الرشيد أن يضيف عليه فامتنع القول فأرسل إلى العباس ابن الأحنف وكلفه أن يردفه بمثله فقال:

يـزيـدك وجـهـاً حسـنـا إذا مـا زدتـه نـظـراً

لا سبيل إلى تقويم الملاحظة إلا بالمحافظة على سلامة الحواس ومعالجتها بالتمرين. إذن تدرك العين الفروق بين الأشكال ما جاء منها منظماً، وما حاد عن النظام، وكذلك بين الألوان وما بينها من الدرجات، وتدرك الأبعاد بموازنتها بأبعاد معلومة لديها من قبل؛ كذلك تدرك الأذن المسموعات سواء أكانت من خرير الماء، أم من عصف الريح، وتغريد الطائر، وغناء الإنسان، وعزف الآلات ونفخ المزامير.

من اشترط في المعلم أن يكون طبيباً، أو على الأقل عارفاً ما يعرض للحواس من الأمراض، مستطيعاً تقويم المعوج منها، ما خرج عن محجة الصواب. وكثيراً ما رأينا قصار النظر من التلاميذ جالسين في مؤخرة الحجرة بالمدرسة، بعيدين عن المرئيات التي يقيد المعلم أو أبدها على السبورة. فأمثالهم يطيش سهم بصرهم، ويتوسم فيهم المعلم الضعيف بلها هم بريئون منه.

وقد تعتري الأعضاء الداخلية أمراض تعوق السمع عن إثبات المعاني، وتؤدي بالطفل إلى أن يفهم فيه ما ليس حقيقياً. وكم من تلميذ يتبادر إلى معلمه أن سمعه سليم، ولو فحصه لعرف مركز الداء. واستعان بالدواء. واعلم أن بالحلق قناة موصولة بالأنف، إذا سدت لا تؤدي الأذن وظيفتها. ومثلها كالصفارة إذا سد ثقب منها. تفقد حجرة بالمدرسة وراقب تلاميذها فلا تكاد تجدها خالية من تلميذ فاتح فاه. يفعل هذا قهراً ليتنفس منه لأن الأنف – وهو عضو التنفس الطبيعي – مسدود. وقد زودته الفطرة بزغب شعري لينقي الهواء الداخل إلى الرئة من الجراثيم. فإذا أمره المعلم – ولا مرد لأمره – بإغلاق فمه فقد حاول عبثاً، وظلم نفسه.

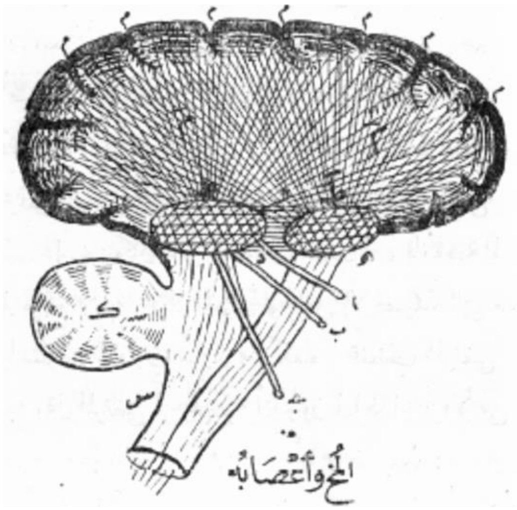
فإذا تبين لك أن فتح فمه يدل على أن تلك القناة مسدودة، علمت أن سمعه معطل لا يضبط المسموعات الواصلة إليه، ومحتاج إلى علاج جراحي.

2) الحفظ والذكر

تصل آثار المحسوسات في النفس أحياناً إلى درجة بعيدة المدى، ويريد الإنسان وصفها فيستعصى عليه القول، وكلما نشط رأي العيان، أجلي من البيان. دعى أحد السراة في مأدبة بقصر عابدين، ولا تسل عن هذا القصر الذي هو زينة الدنيا، ورمز لأبهة سلطان مصر؛ فرأى بناء فخماً كسته الرفاهة ثوب الجلال، واجتمعت فيه أشتات الجمال، من نور لامع ساطع، ونقش جذاب خلاب، وأثاث فتان، يلعب بالوجدان؛ ورأى صدور المدعوين تموج بالأوسمة، وثغورهم من فرط السرور باسمة؛ وسمع من حديث رب الدار، جوامع الأفكار؛ وذاق من المأكولات، ألوان المشهيات؛ وشم من عبير الأزهار المتألقة، رياحاً عبقة. فاح منها الأرج، وأولعت باستنشاقها المهج.

فلما انفرط عقد الاجتماع، ذهب إلى منزله وأثر هذه المحسوسات البديعة في نفسه عظيم، وما ذهب إلى فراشه حتى أخذت المعاني تجول في ذهنه وحرمته من النوم. أسر هذا أن الحفلة كانت منقطعة النظير؟ أم أن البصر والسمع والشم والذوق تآزرت جميعاً لاستذكارها؟ لا أخفي عليك أن الشوق الملاحظة يبعثان في النفس تشرب المحاسن كما تتشرب الإسفنجة الماء، أو كما تمتص جذور النبات غذاءها من الأرض، فيتفرغ لها العقل، وتتكيف من أجلها الخلايا المنوطة بالحفظ والذكر.

انظر إلى هذا الشكل تجد المخ الإنساني يحتوي على خليتين كبيرتين د، هـ تخزن الأولى محفوظات الحس، وتخزن الثانية محفوظات الحركة العامة؛ والأعصاب أ، ب، حـ المتصلة بالحواس تنقل المدركات إلى الخزانة الأولى فتتداول أمرها مع مراكز القوى الفكرية م. ومتى محصتها أودعتها الخزانة الثانية، وتبقى في الخزانتين بقوة نفسية كنهما فوق إدراك العقل. فإذا فرضنا جدلاً أن حفظ المرئيات في الذهن يحصل برسمها على لفائف المخ كما تنطبع الصور في المرآة، فما ذا عسى أن يكون حفظ المسموعات والمشمومات والمذوقات والمعاني التي يضيق بها متسع العقل في غضون الأيام والليالي؟



س النخاع الشوكي

ك المخ

م مركز القوى العقلية

مَ الأعصاب التي توصل خزانة الحفظ بالقوى العقلية

من الناس من قوته الفطرية في الحفظ والذكر غاية في الحدة والمضاء، كأبي العلاء المعري، والأصمعي، وحماد الراوية. أما أبو العلاء المعري فافتتن المؤرخون باستعداد قوتيه، حتى حدثوا عنه أن الأصوات الأعجمية التي لا يدرك معانيها تنطبع في ذهنه

ويستطيع أن يرددها كما سمعها. وقالوا من غريب حذقه في قوة التعريض أنه حضر مجلس المرتضى في بغداد فجرى ذكر المتنبي وكان المرتضى يكرهه ويتعصب عليه، وكان المعري يحبه ويتعصب له، فانتقصه المرتضى وأخذ يتتبع عيوبه، فقال المعري لو لم يقل إلا قصيدته التي مطلعها "لك يا منازل في القلوب منازل" لكفاه. فغضب المرتضى وأمر بإخراجه وقال المرتضى لمن حضر: أتدرون لما ذا اختار الأعمى هذ القصيدة دون غيرها من غرر المتنبي؟ إنما عرض بقوله:

وإذا أتتـك مـذمتي من ناقص فهي الشـــهـادة لي بأني كـامـل

فقدر مع ذلك قوة إدراك المرتضى للمغازي البعيدة، والتلميح الذي لا يأبه له إلا فطاحل الأدب؛ والنوابغ في الحفظ والذكر. وأما الأصمعي فكان كثير الحفظ قوي الذكر، إماماً في اللغة والغرائب، ويستدل الأدباء على حذقه وبراعته أنه اجتمع مع أبي عبيدة عند الفضل بن الربيع وقد ألف كل منهما كتاباً في الخيل، فلما سئل أبو عبيدة أن يقوم إلى فرس ابن الربيع ويسمى كل عضو فيه، أبى وقال: لست بيطاراً، وإنما أخذت ما كتبت عن العرب.

ولما سئل الأصمعي قام وجعل يضع يده على كل عضو ويسميه، وينشد ما قالت العرب فيه. فلما فرغ أعطى الفرس. وأما حماد الراوية فقد استدعاه هشام بن عبد الملك وقطع في سفره إليه اثنتي عشرة ليلة راكباً جملاً مهرياً، ولما مثل بين يديه قال: إنما بعثت إليك لبيت من الشعر خطر ببالي لم أدر من قاله وهو:

فدعوا بالصـــبوح يوماً فجاءت　　قـنـيـة في يمـيـنـهـا إبـريـق

فقال في الحال: هو لعدي بن زيد من قصيدة، وانبرى ينشدها من حافظته.

من الناس من قوته أضبط للمرئيات دون المسموعات، ولا يتذكر الأصوات إلا إذا قرنت بكتابة أسمائها أو رسم مسمياتها. وقد حكى عن أحد البارعين في فن الرسم أنه زار لندن ليقابل أحد أصحابه فنسى اسمه، ولكنه رسم وجهه واستعان بذلك على السؤال عنه.

ومن لم تمنحه الفطرة نبوغاً في حدة هاتين القوتين فحسبه أن يشحذهما بفهم الأمور وترتيبها وتنسيقها وربط أطرافها بعضها ببعض. فإن الحقائق المفككة الأوصال يكون مثلها في الذهن كمثل الكتب المبعثرة، يخزنها جامعها شغفاً بالعلم، ولكن سوء ترتيبها يجعل الحصول عليها عند الطلب صعب المنال.

قال أبو نواس في وصف الخمر:

كأن صـــغري وكبرى من فقاقعها   حصـباء در على أرض من الذهب

فاعتبر الأدباء المشبه به هنا أمراً خيالياً، وما زالوا كذلك حتى تزوج المأمون – أمير المؤمنين – بوران بنت الحسن بن سهل، وقدم إليها ليلة الزفاف حصير نثرت عليه اللآلئ، فتمثل المأمون بهذا البيت وقال "كأن أبا نواس وهو يصوغ هذا البيت كان حاضراً معنا". فهذه الحقيقة البديعة التي صورتها قريحة أبي نواس قبل أن تخلق، لم تكن تأتي إلى ذاكرته لو كان ذهنه مضطرباً، وحفظه ضعيفاً، وذكره على حال لا تستطيع التوفيق بين الأشباه والنظائر.

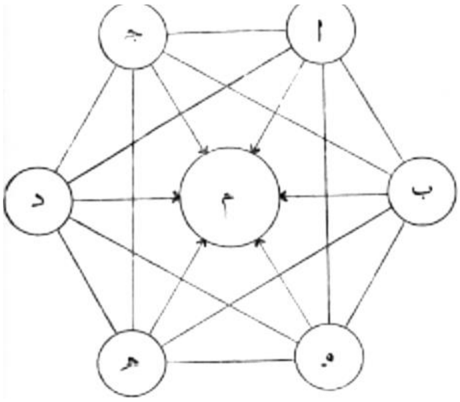
ومما يدل على تباين درجات هاتين القوتين أن الناس يسمعون موضوعاً واحداً، فينقده كل منهم بحسب ما ركز في طبعه من الميول إلى الشكل أو اللون أو العلة والمعلول أو السبب والمسبب. وقد سمع بشار بن برد أحد الناس يفسر بيتاً من شعره فأعجبه تفسيره، وقال لراويه: أرو هذا المعنى فوالله ما عنيته.

والعبارة تصاغ لتؤدي معنى خاصاً فإذا هي تحتمل معنيين أو أكثر، والقارئ يحتاج حينئذ إلى مراعاة سياق الكلام ليصرف معناه إلى المقصود منها. قال أنس بن مالك: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فلم يقل لشيء فعلته: لم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله لم لا فعلته؟ فيحتمل أنه وصف رسول الله بالصبر على خلق من يصحبه. ويحتمل أن أنس بن مالك وصف نفسه بالفطنة والذكاء فيما يقصده من الأعمال، كأنه متفطن لما في نفس رسول الله فيفعله من غير حاجة إلى استئذانه.

فما أشبه هذه العبارة بجسم بلوري ذي أسطحة تنبعث منها ألوان جذابة، يرى بعض الناس منها ما لا يراه الآخر، وكل منهم يعبر عما أبصرته عيناه وخالج نفسه.

يحضر الناس حفلة الغناء، ويظهرون ما لا قبل لهم به من الانتباه، ثم يخرجون فيترنم أحدهم بتلحينه على مثل الأصل، ويتعثر الآخر في أذيال الخيبة. فالقدرة على إبراز المحفوظات غير القدرة على صيانة هذه المحفوظات، ولا سبيل إلى سبر غورة قوة الحفظ إلا بما تظهره قوة الذكر الإرادي من الأعمال. وعلى مقدار معاناة الذهن التعب عند حفظ الشيء يكون رسوخه فيه، كالمسمار إذا دق في الجدار، حتى إذا ثبت فيه كان استذكاره سهلاً. وبديهي أن الإنسان إذا استراح تدفقت على ذهنه تيارات الأفكار، هامة أو غير هامة، سديدة أو غير سديدة. أما التذكر الإرادي فهو محك العقل تتقيد به النفس في دائرة محدودة عند البحث والمناظرة. وإذا جنحت عن الموضوع قام منها رقيب يقود زمامها إليه. وقد خطب سحبان وائل من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر، ما تنحنح، ولا سعل، ولا توقف، ولا تلكأ، ولا ابتدأ في معنى وخرج منه دون أن يوفيه حقه. فانظر كيف اكتظ عقله بحلقات المعاني المتماسكة.

وأحياناً يهمنا استذكار أمر، فننصب له شباك البحث، ونفرك الناصية طلباً له، ولكنه يستعصى فنتركه ونذهب إلى موضوع آخر، وإننا لكذلك وإذا بالغرض الذي كنا ننشده قد رفرف على الذهن. فالسر في هذا أن الغرض الذي قصدنا استذكاره قد كان بالموضوع الثاني أكثر ارتباطاً وغابت عنا حقيقة هذه الربط. وفي الشكل الآتي:



م رمز لمعنى منشى، أ، ب، ح، رمز للمعاني المتصلة به على ما نظن. فإذا حاولنا استذكاره بها وفشلنا في ذلك، وجب علينا أن نبحث عن معان أخر مثل و، ه، ء ترتبط بتلك المعاني وبه، ولا نزال نواصل البحث عنه يتحقق رجاؤنا. كان يحضر طلاب العلم دروس وليم جيمس

فكان يجلسهم على ترتيب أسمائهم، ويناديهم بها ليقرن الأسماء بالمسميات. وكلما قابلة أحدهم ولم يتذكر اسمه استحضر في ذهنه مكانه في قاعة الدرس، والشخص الجالس إلى جانبه، والأسماء على ترتيبها، ولا يزال يذكر سبباً بعد آخر حتى يدرك غرضه.

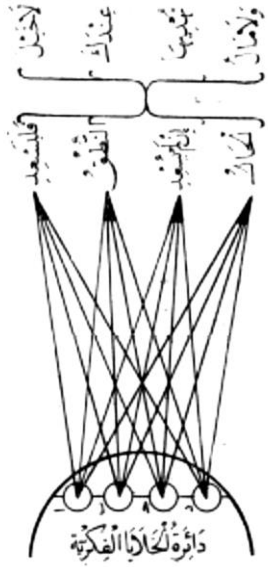
ومن أجل تسهيل استذكار الأمور فكر بعضهم في ضرورة قرنها بما لا ينسى كالرتيمة، وهي خيط يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة. وخير وسائل الحفظ الإكثار من الروابط العقلية.

إذا لم تكن حاجاتنا في نفوسنا   فليس بمغن عقد الرتائم

ولأمر ما يصعب على الفكر أحياناً استذكار عبارة محفوظة، فتنبري المراكز الفكرية للبحث عنها، طال بها الزمن أو قصر. أردت أن أستشهد بهذا البيت:

لا خيـل عنـدك تهـديهـا ولا مـال   فليسـعد النطق إن لم يسـعد الحال

ومع أن معناه خضر إلى الذهن فقد ذهبت ألفاظه كلها أو بعضها أدراج الرياح. انظر إلى الشكل الآتي تجد المراكز الفكرية الرموز إليها الحروف أ، ب، ح، ء قد أرسلت أشعة بحثها إلى ما أمكن النطق به وهو الشطر الثاني منه، ثم لبثت في أخذ ورد وتأمل وتنقيب بين الألفاظ والتراكيب، وبينها وبين المراكز الفكرية، حتى هبطت إليها ألفاظ الشطر الأول.



على مثال هذا نصوغ القضايا المنطقية لتهتدي بها إلى كشف المجهول، أو نفحص عن الأسباب، لفهم حقيقة المسببات. ولا يكون أملنا عظيماً في الحفظ والذكر إلا بعد أن نفهم الأمر ونستجلي غامضة، ونقيم حوله سياجاً من العلاقات، ونؤاخي بينه وبين المعاني، ثم نعود إليه أحياناً ونتكلف استذكاره بالنص. وإذا استعصى فبالمعنى.

إن تيار هاتين القوتين جارف، وهو دائماً بين مد وجزر، وسكون واضطراب. ففي عهد الطفولة تكون صفحة الذهن صافية كالمرآة، تنطبع عليها الصور انطباعاً واضحاً لخلوه من شواغل الحياة وقد ألقى الطفل مقاليد شئونه إلى المشرفين عليه.

فإذا جاوز الخامسة والعشرين من العمر ظهرت عليه غالباً بوادر الضعف فيهما، ويفسد النسيان ما يرجوه من إنجاز الأعمال. وهذا يرجع إما إلى كبر السن، وإما إلى اكتظاظ الذهن بالمعاني المتجددة، وإما إلى كثرة ما أصابه من المحور والإثبات كلوح الإردواز بعد طول الاستعمال، وإما إلى تلاطم أمواج الأفكار في ميدان ذي سعة محدودة. والرجولية طور تتضاعف فيه المطالب، وتعظم التبعة؛ فتتردد على الذهن المسائل المرتبطة بالمنزل والأولاد، وبالصرف والإيراد، ودرس مشاكل الحياة، وطباع الخلطاء، ليستفيد من خيرهم ويصون نفسه عن أذاهم، وكيف يرجى من شخص أحاطت به الشواغل المتنوعة أن يكون في مضاء الحافظة والذاكرة كالطفل المجرد منها؟ على أن المخ عند الطاعنين في السن كالثوب الخلق الذي تقادم عليه العهد، لا يقوي على أداء عمله على ما ينبغي.

3) الخيال

هو ملكة قوامها التحليل والتركيب، وأدنى درجاته ما يستذكر من المحفوظات مع التصرف بالزيادة أو النقصان، وأسماه ما جرى تركيبه على غير مثال، كالصائغ يتصدى للعناصر فيجمعها ويسبكها في قوالب أخر. نرى الطفل لا يريد أن يخضع لغيره، وأقصى أمانيه أن يبعد عن مراقبة الناقدين لكي يجد مجال الخيال واسعاً. غير أن خياله في هذا الطور طفل مثله، ليس مضبوطاً ولا خاضعاً لسلطان العقل، ولذلك كلفه بعض المربين مزاولة الحقائق الكونية، وأبعدوه عن قراءة الروايات والخرافات، فإنها لا تزيده إلا انحرافاً عن الحق. سأل معلم تلميذاً أن يذكر مثالاً للدلالة على أن الحرارة تمد الأجسام فقال التلميذ: "إن النهار صيفاً يطول بتأثير الحرارة فيه" فاستعمل القياس ولم يفطن إلى أن لا ينطبق على الواقع. ولا تكاد تسمع منه جواباً مثل ذلك إذا ضبط خياله، ووقف على حقيقة الأسباب لطول النهار صيفاً وقصره شتاء.

للخيال في النوم مجال واسع. انظر إلى الطفل وهو نائم تجده يتخيل أنه بين يدي مرضعه، فتشاهده يحرك شفتيه كأنما يرضع ولا ثدي في فمه. حدث تارتيني وهو أحد مشهوري الموسيقين في القرن الثامن عشر: أنه رأى الشيطان في الحلم خاضعاً له، فناوله تارتيني "الكمنجة"، وأمره أن يلحن بها في نوع من الإيقاع حدده له، فعزف الشيطان بمهارة فائقة تركت في ذهن الموسيقى وهو نائم أثراً عميقاً. ولما استيقظ عادت إليه الذكرى من شدة وقع الصوت في نفسه، فأمسك "الكمنجة" وشرع يحاكى تلك النغمة حتى جاءت مطابقة الأصل، وكان من أمره أن ابتدع قطعة موسيقية سماها "عزف الشيطان". ولولا أن ترتيني عبر عن ذلك الذي هبط عليه في منامه بأنه شيطان لتوسمناه ملكاً، ولقطعنا بأن السر الذي وصل إلى خياله نوع من الإلهام في الصناعة التي اشتهر تارتيني بها. ومن تعاق ذهنه بأمر لا تهادنه الوساوس والأخيلة في شأنه مستيقظاً كان أو نائماً. حتى لقد رأى بعضهم فيما يرى النائم أنه يقاسى مع العذاب أشده،

ولما استيقظ تبين له أن رجليه لا مستاً شيئاً حاراً. وكثيراً ما يخيل له حلمه المفزع أن كابوساً يضايقه، ثم يعرف سبب ذلك أنه كان نائماً على جانبه الأيسر ممتلئ المعدة بالطعام. ومفسرو الأحلام يطلعون الحالم على نوع العمل الذي بات ذهنه مشغولاً به. فقد روى أن مملوكاً مثل بين يدي سيده الملك مدهوشاً. وكاشفه بأنه رأى في منامه أن يسفك دم الملك، وأقام له الدليل على أنه خادم أمين، ففزع الملك مما قصه عليه وقال له: "لو لم تكن فكرت وأنت مستيقظ في شيء من هذا ما رأيته في الحلم"، وأمر به فقتل. تهيأت للنوم يوماً وتباريح الحزن تناوئ ذهني لوفاة ابن لي، فرأيت في الحلم كأن حادياً يغني بصوت المحزون، فبكيت ثم استيقظت وعيناي مغرورقتان بالدموع.

وكما يعرض الخيال للنائم يعرض للمستيقظ؛ والقارئ متى من قراءة بعض الحوادث المفزعة، يغوص ذهنه في بحر من الخيال لتصويرها. وإذا أخذ مجلسه في مكان هادئ، وتشاغل عن شئونه، وسمح للخيال بالجولان، فسرعان ما يسرح في الفضاء، ويبني القصور في الهواء، ويسلي نفسه بإدراك الأماني، وعدوه المبين هو الذي يقطع سلسلة هذا الخيال الشهي.

ومن الناس من يصوغ الخيال قضاء لأربه، ثم ينقلب مزاجه فيحسبه صدقاً، فإن أشعب كان يؤلمه أن يجري الصبيان وراءه مصفقين استهزاء به. رآهم على هذه الحال يوماً، وأراد أن يصرفهم عنه، فالتفت وقال لهم على سبيل الخيال: "ألم تعلموا أن في جهة ... ثرياً يسدي المال إلى كل من دخل منزله". فتركه الصبيان وأسرعوا إلى منزل ذلك المثري. فلما رآهم ذاهبين إليه وقع في نفسه صدق هذا الخيال فعقبهم.

والطبيعيون يعتقدون أن الخيال دليل الباحثين، ولم يعهدوا منقباً وصل إلى حقيقة مجهولة إلا بعد حدس وتخمين. والناس على بكرة أبيهم يرون البخار الصاعد من القدر الغالية بقوة ترفع غطاءه مهما كان ثقيلاً؛ولكن وات وحده بما أوتيه من بارع الخيال استنجد بهذه القوة لإدارة الآلات فنجح. ويتخذ الرياضيون والسياسيون طرقاً فرضية لحل المشاكل، ثم يحسبون نتائجها ويدخلون بها في طور العمل على سبيل التجربة، ولا يزالون يتخيلون الوسائل ويمحصونها من الشوائب، وينصرفون عما تجر إليه من الخطأ، فإذا الحجب تتكشف عن مكنون الحقائق.

الحقيقة ضالة الفلاسفة يحرصون عليها في مدوناتهم، وينتقون لمدلولاتها العبارات المتينة التي لا تدع للبس مجالاً، ويحترسون من تزويق الألفاظ وتنميق الأساليب، فإنهما يبعدان عن فهم المقصود. وهي كذلك أساس المعاملات، فالتاجر لا ينصف المشتري إذا بالغ في وصف سلعته وجاوز به حدود قيمتها، والطبيب يسيء إلى المريض إذا استعار للدواء اسم دواء يشبهه، وتضيع الثقة من المؤرخ الذي يمجد من لا ترفعهم أعمالهم. وكم تثور الفتن ويضطرب بين الحلفاء حبل الولاء إذا راج سوق الخيال في نصوص المعاهدات، فإنه يخرج مدلولات الألفاظ عن سياج المعاجم اللغوية، وإليها وحدها يرجع الأمر عند ما تستحكم حلقات النزاع.

أما الأدباء فعلى عكس هؤلاء لا يعذب عندهم ماء القول إلا إذا طرق أبواب المجاز والاستعارة في أمور تحتاج إلى الفراسة وصدق النظر. ورد في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأزواجه: "أطولكن يداً أسرعكن لحاقاً به" فلما مات عليه السلام جعلن يطاولن بين أيديهن لينظرن أيتهن أطول يداً، ثم كانت زينب أسرعهن لحاقاً به وكانت كثيرة الصدقة، فعلمن حينئذ أنه إنما أراد المعنى المجازي. وكذلك قول المتنبي:

راميات بأســــهم ويشــــها الهد ب تصــيب القلوب قبل الجلود

فالمطلع على الشطر الأول لا يدري إلى الحقيقة سار الشاعر أم المجاز، ولا يكاد ينتهي من قراءة الشطر الثاني حتى يعرف أن الغرض بالأسهم تلك العيون النجلاء على سبيل التجوز.

فالخيال يصون الصفة من الابتذال، وينفخ في القول والعمل روحاً فياضة، ويدعو إلى شحذ الذهن، وترداد النظر، ولو جف معينه من الكتابة أو الشعر أو التلحين لذهبت مسحة البلاغة، ولتجردت من العوامل الحية في تحريك الهمم وإثارة الخواطر. كان ابن الرومي وحيد عصره في الشعر. فقال له بعضهم: "لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه". فقال: "أنشدوني شيئاً من شعره" فأنشدوه في الهلال:

وترى الهلال كزورق من فضـــة   قـد أثقلتـه حمولـة من عنبر

فقال: "واغوثاه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ذاك يصف ماعون بيته وهو ابن خليفة، وأنا أي شيء أصف"، فما أحوج الخيال البليغ إلى المرئيات يستحضرها الشاعر ويصوغها بحسب اقتداره ومهارته في الصناعة، بحيث يجمع الأشكال المتشاكلة في سمط، ويسبل عليه ثوباً قشيباً تهتز منه النفس فرحاً. وحمدونة الأندليسية ذهب بها الخيال عند وصف الحصى في الوادي مذهباً أجادت فيه وبرزت إذ تقول:-

تروع حصـــاد حالية العذاري   فتلمس جانـب العقـد النظيم

ووصف المتنبي صبره وأجاد في خياله حيث قال:-

رمـاني الـدهـر بالأرزاء حـتى   فؤاداي في غشـــاء من نبـال
فصـــرت إذا أصـــابتني ســـهام   تكسـرت النصـال على النصـال

وأبو العلاء المعترى وهو كفيف البصر، قبس من نور الطبيعية ما جعل ذهنه سيالاً في سبك الخيال بدرجة يعجز عنها المبصرون. وشعره حافل بمثل هذا الخيال الرائع. وقد راقني تشبيهه البرق في سرعة تألقه بذي العين القريحة وقد غلبه النوم، يفتحها بدافع المرض ويغلقها حباً في النعاس، يفعل ذلك على وجه السرعة. ووصف طلوع الفجر بالشيب، والشفق بالزعفران، وادعى على سبيل الخيال أن الليل يميل إلى النجوم الزهر، فلما شاب بطلوع الفجر، خاف هجر النجوم الذي هو شيمة الغواني، فوارى شيبه بخضاب الزعفران أي الحمرة التي تبدو مع الفجر. وخياله من السلاسة والغرابة يجري على هذا النسق، مع أنه كف بصره وهو في الرابعة من عمره، وهذه المدة على قصرها زودته بالمشاهدات، فلبث يستمد منها في شعره طوال عمره.

4) العقل

هو ملكة تدبر الحركات الإرادية من أي نوع كانت. وقد فصلنا القول في أن الغرائز تهيمن على الجسم وتقود الإنسان ليعمل العمل بلا روية، وتكون غالباً نتائجه سديدة مفيدة، ولكن الخلقيين لا يعولون على هذا النفع، ولا يثيبون الإنسان من أجله، لأنه جاء مصادفة لا من طريق المقدمات المنطقية. وذلك كاندفاع من لا يحسن السباحة إلى البحر لانتشال مشرف على الغرق، وكسعي الأم لتخليص ابنها من مخالب الخطر.

وقد بذل دارون جهده مثبتاً بالمشاهدة أن للحيوان الراقي عقلاً مستفاداً من الخبرة الذاتية وإن يكن أدنى من عقل الإنسان. رأى في حديقة الحيوان بأمريكا قردين في قفص واحد: أحدهما مسن والآخر صغير. وكان المسن لا ينفك يؤذي الصغير كلما بصربه، وأينما التقي معه. وبينما كان الحارس يكنس القفص انقض عليه القرد المسن والتقم قفاه، وكاد يذيقه الموت، لولا أن خلصه منه القرد الصغير،

فقد عضه في ساقه عضة أنسته صوابه، وأرجعته عن العدوان. إذا التمست سبب هذا تبين لك أن إشفاق القرد الصغير ليس مجرد رؤية القرد الكبير يفترس الحارس، بل لا بد أن يكون فكره قد صاغ من مستودعات الحافظة قضايا هي أن القرد المسن اعتدى على شخصه من قبل، واعتدى على الحارس الآن، فهو مؤذٍ معتدٍ يجب الخلاص منه. فلما حانت الفرصة وشغل القرد المسن عن نفسه هجم عليه القرد الصغير، وانتقم منه انتقاماً يدل على أن إبرازه ليس غريزياً، وإنما أراد ذلك ليقفه عند الحد الذي تتطلبه دواعي الاجتماع.

فهذه القضايا التي ارتبط بعضها ببعض قد أثارها إحساسه ووجدانه الشخصي والاجتماعي، وهي كالقضايا الأولية التي نشاهدها في الطفل. نراه يمسك اللعبة يديه، وإذا رأى مع غيره لعبة أخرى يبكي، وإذا أعطى إياها يسر. فنفهم من هذا قضية بسيطة هي أن نفسه تشتاق الكل أكثر من الجزء، وتعلم أن الجزء أقل من الكل قيمة ومقداراً وإن كان لا يتنبه للتعبير عن ذلك؟ تراه إذا أراد القعود وألزمته الوقوف يبكي وينزع إلى القعود. فكأنه صاغ قضية مضمونها استحالة اجتماع الضدين: القيام والقعود في زمن واحد؛ نراه ينازع غيره في المكان الذي يريد القعود فيه، لأنه يعلم أن الجسمين لا يحلان في مكان واحد؛ نراه يمشي إلى الشيء الذي يريده، لأنه يعلم أن الوصول إليه ممكن؛ نراه يسأل عما لا يعرف، ومتى شرح له سكت واقتنع، لعلمه أن للأشياء طبائع وحدوداً ومميزات؛ ونراه يسأل عن فاعل الفعل، ولا يقتنع بأنه جاء بلا فاعل وهكذا. ومتى كبر استعان بتلك القضايا البديهية على صوغ القضايا النظرية، ويحاول إبداء الحكم فيها.

ومتى اتسع نطاق عقله، وازدادت مراسته، تجده يتئد ولا يتسرع في الحكم، بل يعرضه على بساط البحث، ولا يؤلمه أن يوسعه الناس انتقاداً، ولا يمتعض إذا جاء حكمهم مخالفاً لحكمه، وظهر رأيهم فيه أضبط، وحكمهم أسد، لأنه حينئذ يهمه الوصول إلى الحق، ولا يبالي أوصل إليه بنفسه أم شاركه غيره في تمحيص للسائل، وإزالة غشاوة الباطل عنها.

وهكذا يصوغ العقل بمعونة الملكات الذهنية ما شاء من القضايا العامة المستنبطة من المحسوسات، ويحتفظ بها، ويذكرها عند الحاجة. فما أوسع الجمجمة على صغرها؛ لأن العقل جمع بها شوارد المسائل، حتى يصح أن يقال. إن الإنسان عائش بعقله في جو روحاني فسيح الأرجاء. وإذا كان في هذا مثار دهشة المتأمل، فأبدع منه أن جرثومة الحياة على نهاية صغرها تسع ألوفاً من الصفات الموروثة من الآباء والأسلاف.

5) الوجدان

إن المحسوسات التي تصل إلى الذهن إما أن تدعو إلى الفرح والجذل، وإما أن تدعو إلى الغم والملل، وهذا الأثر هو ما نسميه بالوجدان.

سل ضميرك لماذا يتسرب إليك السرور إذا قابلت صديقاً حميماً. وسل الممعود لماذا يمتعض من الغمم، وتظهر على محياه ملامح الكآبة. ولو التمست سبباً لذلك لوجدت أن الارتياح في الأمر الأول والألم في الأمر الثاني كفيلان بهذه النتائج.

نعم للعقل شأن كبير في ترجيح وجدان على آخر، لأننا نرى الطفل إذا ترى الطفل إذا مرض ونصحه الطبيب أن يتعاطي الدواء يأنف أن يلبي الطلب، لأن العلاج له طعم مهوع لا تسيغه نفسه وليس لعقله سلطان عليها.

ولكن الرجل الذي يقدر الأمور بعواقبها، لا يجعل للطعم المهوع نفوذاً على وجدانه، فيقبل على تنفيذ إرادة الطبيب عن رغبته، لأنه يتقى به وطأة المرض ويدفع به غائلة العلة.

وقد يسوخ المزاح النفسي حكم العقل، فتجد المتطير يحزن مما اتفقت العقول على أنه داعى الفرح. قال المعري وهو من غلاة المتطيرين:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة … وحق لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا … زجاج ولكن لا يعاد له سبك

ولأبي الطيب المتنبي:

تصفو الحياة لجاهل أو غافل … عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه … ويسوقها طلب المحال فتطمع

وتجد المتفائل يفرح مما يحزن منه الناس غالباً، وتنطبع طلائع البشر على صفحة وجهه، وتصيبه الحوادث الجسام فلا تلتوي قناته، ويسالمها ليستخلص منها لنفسه نصائح وحكماً وعبراً. ولا يعبأ بتقلبات الأيام، لأنه يعتقد أن الدنيا مسرح تغدو عليه الناس وتروح، ولكل امرئ منهم شأن يطلبه، حتى إذا أرخى الليل سدوله نامت العيون، واستراحت النفوس. وإذا انتهت العمر استعاض عن هذه الحياة حياةً أبقى وأهنأ.

هـذي الحيـاة روايـة لمشـــخص   الليـل ســـتر والنهـار الملعـب

ولا تجد مظهراً لترداد الفرح والحزن متعاقبين كطلعة المقامر، يخسر الصفقة فيكتئب من ألم الحزن، ويربح بعد ذلك فيبش من بسطة الفرح، ويستطيع الناظر أن يعرف هاتين الحالتين بمجرد الإطلاع على وجهه. وبذلك نطق لسان الشعر فقال:

"نظر العـدو بمـا أســـر يبوح"

"متى تك في صــــديق أو عدو   تخبرك الوجوه عن القلوب"

"والعين تعرف من عيني محـدثها   إن كان من حزبها أم من أعاديها"

"الود لا يخفي وإن أخفيتـه   والبغض تبـديـه لـك العينـان"

"لا تســـأل المرء عن خلائقـه   في وجهـه شـــاهـد من الخبر"

انظر إلى هذا الشكل وقدر تقاطيع الوجه وقد أشرق عليه نور السرور، وجرى فيه دم الانبساط، فضحك ضحكاً شفت عنه أسارير أعضائه. انظر إليه تجده لدى الحزن قد عرته غبرة الاشمئزاز والعبوس وتقطيب الوجه، وربما بكى إذا ثار ثائره في النفس، والتطلع ينبئ عن الدهشة، وتدل الرجفة على الفزع، وربما بدا الضحك عند الاحتقار أو الضغينة، وصادق النظر لا يخطئه، لأن تكلفه يخرج الصوت فاتراً مكذوباً. وأحياناً يحصل البكاء من فرط السرور.

يا عين قد صـــار البكا لك عادة تـبـكـين مـن فـرح ومـن أحـزان

ودبيب الأقدام يرشد كذلك إلى تعرف أحوال النفس، فخطا اللص والجبان والشجاع والمجرم تخبر عن الحقيقة، حتى لقد عرف لاظوغلي كيف يصدر حكماً عادلاً في حادثة خفي فيها المجرم: أمر المشتبه فيهم فأحضروا، ودعاهم جميعاً إلى دخول مجلسه والخروج منه عدة مرات وتفرس في أمرهم، ثم استدعى واحداً منهم وحصر فيه التهمة وما أخطأ، لأنه رآه آخر الداخلين إذا دخلوا، وأول الخارجين عند ما يخرجون. وللمحسين للآثار دراية كبرى في هذا الباب.

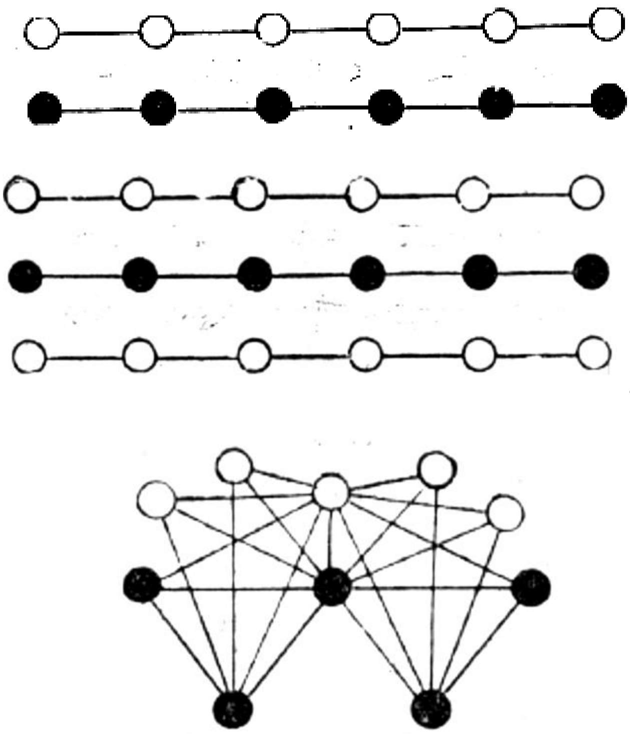
كذلك تعرب نبرات الصوت عن كثير من الأغراض كالحماسة والفخر والخضوع والاستعطاف والخوف. وللأمهات الذكيات معرفة بأحوال الطفل يستطلعنها من صوته عند بكائه، فإنه يعرب أحياناً عن امتعاض من ألم أصابه، وأحياناً يرشد إلى أنه جوعان أو عطشان. ولقد أجاد المتبني إذ يقول:

إذا اشــــتبهت دموع في خدود   تبـين مـن بـكـى ممـن تبـاكـي

هذه الأعراض البدنية النفسية متلازمة غالباً. وقد تتخلف عند كبار المفكرين الذين يضبطون حركاتهم، ويخضعونها للإرادة. فتراهم يضحكون في معرض البكاء متغافلين عن دعوة الوجدان، وكذلك تتخلف عند البله الذين يجهلون حقائق الأمور. روى التاريخ أن أبا مسلم الخراساني — وهو الرجل الفذ الذي أمات الدولة الأموية وأحيا الدولة العباسية —كان لا يلعب بقلبه السرور، ولا يستفزه الغضب، يأتيه نبأ الفتح العظيم فلا يظهر على محياه أثر السرور، وتنزل به الفوادح فلا يرى كثيباً. كذلك كارلا يل وصف بيرنز الشاعر بأن المصائب كانت تصب عليه مداراً

. فينثرها عنه كل ينثر الجواد الماء عن شعره. ولا أنكر عليك أن التصنع في هذا القبيل مخالف للطبيعة البشرية. ومهما خضع الإنسان لتصرفات الإرادة فإن الحقيقة التي اختفت في الصدور توشك أن تظهر دلائلها وإلى هذا يشير الحديث: "من أسر سريرة ألبسه الله رداءها"، حتى إن المجرمين يقترفون الآثام بعيدين عن أعين الرقباء، وأنفسهم وحدها هي التي تفضح ما كتموه. وبعيد كل الكاتب البليغ، والشاعر المطبوع، والمصور الدقيق، أن يصيبوا كبد الحقيقة في التأثير النفسي، ما لم يدرسوا العواطف والحركات البدنية الملازمة لها، والمؤثرات التي من شأنها تحريك الهمم الفاترة، والعزائم الخامدة.

إذا عرفت هذا سهل عليك معرفة التلازم بين الحركات الفكرية والجسمية، وقد صور هذا التلازم بأمور: فإما أنه سلسلة من الحركات الفكرية التي تضم حركات الإدراك والوجدان والإدارة والحكم والإنفاذ، ويقابلها سلسلة أخرى حسية تجمع بين مؤثرات الحس في الحدثة والشبكية ثم أعصاب البصر والخلايا المنحية فالغلاف الأسمر الحساس، ثم تتدلى إلى أعصاب الحركة فالعضلات فالأعضاء المنفذة كما في أ من هذا الشكل؛ وإما أنه سلسلة من الأمور الحسية يتلوها من الجانبين نظام روحاني، كأن الحس بحر ذو شاطئين من القوى الروحانية؛ كما في ب؛ وإما أن العاملين: الحسي والروحاني يعملان معا في آن واحد ولا فاصل بينهما، غير أن التأثير ذو وجهين حسي ويؤثر في الجسم، وروحاني ويؤثر في العقل، كما في ج.



أ

ب

الخلايا الروحية

الخلايا المخية

مذهب هربات في القوى الذهنية

اتبعت فيما سبق شرحه مذهب السلف في أن الملاحظة والحفظ والذكر والخيال والفكر كلها ملكات. وأذكر هنا – تكميلاً للفائدة – ما ذهب إليه هربارت، فإنه اعتقد أنها إذا كانت ملكات أمكن كلا منها أن يقوم بنفسه، ولكننا حين نعالج الحفظ مثلاً نسعى لتقويم الملاحظة والإحساس والخيال والفكر، وحين نريد تقويم الخيال نتطلع إلى تقويم القوى الأخرى. لذلك اختيار أن يسميها صفات ليستفاد منها معنى المشاركة. ووراء ذلك اعتقد أن المخ يحتوي على قوتين فحسب: قوة التأثر بالمحسوسات، وقوة دموج المدركات.

فقوة التأثر بالمحسوسات تتولد منها المعاني والأفكار على نظام طبيعي. فإذا ائتلف جديدها وقديمها ارتبطا معاً ورسخا في الذهن، وإذا تنافرا عارض أحدهما الآخر، وأفضى ذلك إلى بقاء الأنسب.

وقوة دموج المدرجات مثلها كمثل قوة هضم الأغذية، فكما أن الطعام بهذه القوة يستحيل إلى دم، كذلك المعاني بتلك القوة تتآخى وتتآزر، ويزيل بعضها غشاوة الآخر فتمتزج معاً في مادة معنوية، يسيغها الذهن ويمتصها المخ كما تمتص الإسفنجية الماء، وتتوقف عليها الحياة العقلية، وبها تتفاوت مقادير الأشخاص. والذهن حينئذ بمعونة الحواس ليدرك العالم الخارجي، ويستعين بسابق خبرته على تمحيص الأمور. إن منظر البلد من بعيد يراه الشاعر والنباتي والمصور، ولكن مدركاتهم عنه تتفاوت بحسب ما ركز في ذهنهم. والشمس في طور الكسوف لا تترك في ذهن الطفل ما نتركه في ذهن العالم، الذي يصوب إليه نظره ويتريث حتى يستذكر ما قرأه عنها، فيعرف أن القمر حال بينها وبين الشمس أثناء دورانه فحجب ظله ضوءها عنا، وهي في ذاتها لم تتغير، وهي وحركات الكواكب خاضعة لقوانين يعرفها الفلكيون ويعينون منازلها بالحساب الدقيق، ويبني المنجمون عليها أحكام السعود والنحوس. نعم لا يقف ذهنه عند هذا الحد فقط،

بل يتجاوزه مسترسلاً، فيذكر عقيدة القدماء فيها بأنها كانت معبوداً، وأنها لفرط سموها، وعلو قدرها، كانت الشياطين تحاول أن تغتصب نورها فتتوارى عنهم، كما كانت تتوارى إذا انفرط فيما بينهم عقد المودة والولاء، معلنة عليهم غضبها بالكسوف. حدث التاريخ أن الميديين والليديين اختصما، ودبت بينهما عقارب الخلاف، فامتشقا الحسام، وما كادت لظى الحرب تستعر بينهما حتى أظلم الجو نهاراً، ولبست الشمس ثوب الكسوف حداداً على ما فعلا، فاعتقدا أن إلههما غضبان من هذه الفتنة، فأغمدا السيوف، ونشرا لواء السلم.

هذه الأفكار المتناسقة التي جادت بها قريحة المفكر عندما أبصر ناظره الشمس في طور الكسوف، ارتبطت لحمتها بسداها، وكونت أمراً كلياً لبحث الشمس وجولان العقول البشرية في أمرها من أعصر السذاجة إلى زمن العلم والمدنية.

تداعي المعاني

عرفت كيف تلتئم المعاني إذا تآزرت، وكيف يدعو بعضها بعضاً لمناسبات تعرض بين الناس تعرض بين الناس عندما يتجاذبون أطراف الحديث، حتى إذا انتهى وبحثت عن الصلة التي بين آخر الحديث وأوله أخذ منك العجب مأخذه.

جلست مع طائفة من أهل الأدب، وكان الحاكي حينئذ يرتل آيات الذكر الحكيم. فعجبنا من براعة صنعه، وحسن إيقاعه، ومتانة نبراته. ثم فتح أحد الجالسين أبواب الاستطراد، فسأل عن اللهجة التي كان السالفون يقرءون بحسبها. فإذا كانت صلتنا بهم في هذه الحال قد انقطعت فيجب علينا أن ننتهز الفرصة، فندخر في أسس الأبنية الأثرية أسطوانات الأصوات والأغاني العصرية، لتقف الأجيال القادمة على الرقي الذي وصلنا إليه. واستطرد آخر بأن أغاني هذا الجيل هي من مبتدعات المجيدين الذين برعوا في الخيال، فألفوا بين الإيقاع المصري والتركي، واختاروا من مزيجهما نغمات تسترق النفوس.

وقال آخر قد وصلت إلينا أدبيات العرب في الجاهلية والإسلام ولم تصل إلينا لهجتهم في الإنشاد، ولا علمنا كيف كانوا يترنمون بالشعر وبالنثر. وهل كان إبراهيم بن المهدي العباسي يوقع الألحان على النهج الذي نطرقه الآن؟ وهل كان المغنون إذ ذاك يرجعون الألفاظ، ويكثرون دورانها على النغمات على عادة مغنى هذا العصر؟ وتكلم آخر في علاقة اللغة العامية بالأغاني إلى آخر ما ذكروا، ولم يكن يدور بخلد واحد منا أن مبدأ الحديث يصل بالجالسين إلى هذه الغاية. وهذا سر من أسرار تداعي المعاني.

رأيت من هذا البيان أن روح الحديث كانت دائرة حول موضوعات أدبية لعلاقتها بالجلساء وهم من أهل الأدب؛ ولو جالست أناساً من أهل الترف والنعيم لرأيت حديثهم في المطاعم والملابس وركوب الجياد؛ ولو أخذت مجلسك بين التجار لرأيت حديثهم مقصوراً غالباً على البيع والشراء والسلع الرائجة والكاسدة وهكذا؛ فالاستطراد لا يكون عاماً بل جارياً على وفق الميول والأغراض التي تهم الجالسين، مادية كانت أو معنوية، وهي على العموم تتبع قانون المناسبات،

إذ يشعر الإنسان وهو جالس في حفلة زينة أن ذوقه وأميال الحاضرين يمنعانه أن يستطرد بذكر حفلة مناحة. وللأغراض المتنوعة دوائر في الذهن مكتظة بالمعاني المتشاكلة، إذا عرضت طائفة منها أيقظت أشباهها وألصق الأمور بها من الدوائر الأخر. وقد ترد الألفاظ المحتملة للمعاني، فيؤولها السامعون بما يلاءم هواهم على نهج أسلوب الحكيم.

قالوا: إن القبعثري كان جالساً مع أصحابه في بستان تحت كرم، ثم جرى ذكر الحجاج، فقال القبعثري: "اللهم سود وجهه، واقطع عنقه، واسقني من دمه" ولما بلغ الحجاج ذلك استدعاه إليه وسأله عنه، فقال: "إنما أردت العنب". فقال الحجاج يتوعده: "لأحملنك على الأدهم" (القيد) فقال القبعثري: "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" (الحصان). قال الحجاج: "أردت الحديد" (المعدن) فقال القبعثري: "لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليداً".

الميول ومراقبتها

الميول مظاهر الشوق الطبيعي تتجلى في الطفل إذا ترنح في اللعب، وأطلق العنان لحركاته الإرادية. وقد أنصف روسو إذ كان يقف من وراء حجاب ويراقب الأطفال من كثب في أوقات لهوهم، فيرى لهم حركات غريبة يفعلونها، ويفتنون فيها، وترتاح نفوسهم إليها ولو أخذ منهم الجهد مأخذه. تفقد ميلوهم نحو المذوقات والمرئيات والمسموعات والملموسات، وتفقدها في الآراء والعقائد تجد لكل منهم شأناً خاصاً يهواه ويتعصب له، ويقيم الدليل على رجحانه، ولو اجتمع الثقلان على أن يحولاه عنه بدون إرادتهم إلى غيرها فيهزمون. وقد تلجئ الضرورة شخصاً إلى الكسب من مرتزق لا مجال فيه لمواهبه فيعمله كالمسخر، ويعيش فيه كئيباً، ولا يظهر عنده إقدام على إتقانه، فيتبادر إلى ذهن المشرفين عليه أنه ضعيف الذهن كليل القوة. وكم تمر بأمثاله الأيام والليالي في مدارج الحياة، فإذا هذا الضعيف شاعر أديب، أو كاتب قدير، أو مؤلف متقن، أو مصور باهر، أو عالم نحرير، أو خطيب مصقع. وقد ورد في الأثر "أعلموا فكل ميسر لما خلق له".

عرفت بين الطلبة زمن الدراسة الأولى من كان ينظم القصيدة التي تموج ألفاظها بالمعاني في ليلة واحدة، وهو نفسه لو كلف حل مسألة رياضية لأظهر العي، فكان يخيل إلى المعلم أنه عاجز الفكر، والأيام وحدها أسفرت له عن شهرة تامة في عالم الأدب. ومنهم من كان ذهنه يخترق حجب الأحاجي الرياضية، وكلما صعبت مراميها ووسائل الوصول إلى حلها، زادها إمعاناً وسعياً لكشف غامضها، وكانت مع ذلك قريحته تخمد دون كتابة النثر وقرض الشعر، فيصفه المعلم بأنه كليل الذهن، مع أنه ممتاز في بابه. صحبت من الأميين رجلاً وحقق لي الاختبار أنه حاد الذهن حصيف العقل، إذا نطق استهوى عقول سامعيه بما يبتدعه من المعاني وما يزخرف من العبارات. هذا الرجل قد شغلته المحن، وضايقته أسباب المعيشة، ولو صادفته عناية المربين لأنجبت أديباً قديراً. وخبرت آخر حرمته يد الإهمال ثمرة التعليم الصحيح، وكان لفرط ذكائه إذا عرضت أمور تستدعى دقة في الحساب، زاولها بفكره فحسب وكان جوابه قرين الصواب. وما يدرينا أن يكون هذا الشخص رياضياً منقطع النظير، لو وفق إلى مرشد بصير.

فاقتضت إرادة الله أن يوزع النبوغ بين الناس لنتأكد الروابط الودية بينهم. والنبوغ كالنار الكامنة في الحجر تخرج منه عند قدح الحديدة له، وإذا لم يكن في الحجر نار لا تفيده الحديدة شيئاً.

ليس من ينكر فضل الحريري صاحب المقامات المشهورة، فإن صيته ذاع حتى دعى إلى رياسة ديوان الإنشاء في بغداد. فلما حضر إليه كلف أن يكتب في موضوع محدود فلم يجر لسانه ولا بنانه في قصيرة ولا طويلة. ذلك لأن ذهنه مطبوع على نوع روائي مسجع، لا يشق له فيه غبار، فليس بعجيب أن يفشل في كتابة ما لم يمرن فيه نفسه من قبل، وليس لديه نبوغ فيه. وكذلك الأديب المبرد وهو إمام في حل مشكلات اللغة العربية، وله قدرة منقطعة النظير في فهم القرآن والأحاديث النبوية، كان يخطر له الخاطر فتعييه الكتابة فيه. وقد اعترف أنه عرضت له حاجة إلى بعض إخوانه وأراد أن يكتب إليه فأحجم. ذلك أنه رتب المعنى في نفسه، ثم حاول صوغه ألفاظ تليق به فلم يستطيع. فما أشبهه بحجر المسن يشحذ ولا يقطع.

هذا وقارئ التاريخ يستطيع أن يستشهد بكثير من أمثال هؤلاء الذين منحتهم الفطرة مواهب بديعة في غضارة الشباب. ونضارة الإهاب، فحفظتها لهم وديعة، وسترتها عن العبث بها، حتى سنحت الفرص فزكت وظهرت بشائرها. روى أن عبد الله بن الزبير وهو صبي كان يلعب مع إخوانه، فمر بهم رجل ففزعوا منه، أما عبد الله فتقهقر واستنهض عزيمتهم بقوله: يا صبيان اجعلوني أميركم وشدوا بنا عليه ففعلوا. كذلك مر به عمر بن الخطاب وهو يلعب مع الصبيان ففروا منه أما هو فوقف فسأله عمر عن عدم فراره معهم فأجاب "إني لم أجرم فأخافك، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك". هذه الشجاعة بدت من عبد الله وهو صغير، فنمت فيه وهو كبير. وكان من أمره أن استقل بحكم المدينة وقامت بينه وبين الحجاج حروب دموية انتهت بقتله. وروى عن سير هرشل أن أباه علمه الموسيقى في إبان صباه فعاش بها، ولكن ميول الشاب نهضت به فصار فلكياً كشف "أورانوس" من بين الكواكب السيارة، واستدل على وجود كلف الشمس.

كذلك حدثنا التاريخ عن لينوس أن أباه زج به إلى المدرسة ليتعلم اللاتينية، ثم إلى مصنع ليكون إسكافاً، فلم يكن إلا كعامة الناس، ولحسن الحظ لقى من تفرس في طبعه ميلاً لعلمي النبات والأعضاء فسدده إليهما، فبرقت فيه بروق النبوغ، وأصبح فخراً لأمته وللعالم. ولنا من سيرة نابليون بونابرت شاهد وعبرة، فإنه برع في الرياضيات في غضون حياته الدراسية، ولضعفه في الأدب وفي اللاتينية التي كانت شعار العلم في ذلك العصر، وسمه المعلمون بالضعف وحكموا على عقله بالجمود. فكم بعدت أحكامهم عن محجة الصواب؟ وكم شغلتهم شئونهم عن مراقبة مميزاته الكامنة فيه؟ وكم نطقت فعاله التي كان يزاولها وقت فراغه بما ركز في فطرته من الميول. قال المؤرخون: إن عاصفة باردى ثارت في الجو جمدت ماء المطر فنزل ثلجاً غطى وجه البسيطة وسد المنافذ، فاستعان وهو صبي برفقائه على أن يحفر الخنادق ويقيم الحصون، ثم قسمهم طائفتين على تخاصم، وأقام نفسه قائداً لحركة الهجوم، واستمر النضال والجلاد خمسة عشر يوماً حتى ذات الثلج، فاندكت الحصون وصارت قاعاً صفصفاً، فرجع هو ورفقاؤه إلى المدرسة، طاوين في صدورهم تلك النزعة الحربية حتى جاء أوانها، فنضجت ثمارها، وفتحت لها الأيام صدراً رحيباً.

واعلم أن الطفل وقت فراغه تستولى عليه ميوله فنصرف حركاته، إلى إنفاذ رغباته، حتى إنه ليذهب إلى الشارع، ويشارك أبناء السبيل في شئون اللعب، مخالفاً نصائح أبويه، وربما لبى أمرهما قسراً، ثم يشاغلهما ويعود إلى نزعته كالخيزران. ونرى التلميذ يدخل بمحض إرادة أبية قسم العلوم من المدارس الثانوية فيخفق، لأن أباه تصرف في هواه جهلاً منه وانصرافاً عن المصلحة، ثم يرجع التلميذ فيتخير لنفسه قسم الآداب فينجح. هذه الميول – وكل امرئ يضرب فيها بسهم – مثلها كالمعطف يتعهده الصانع بترتيب وتنسيق يلاءم الجسم، وإذا لبسه شخص آخر لا يوافقه.

وقد نجح مهرة المعلمين في اتخاذ المشوقات سبيلاً يستحثون بها الميول الجامحة، فيحببون القراءة إلى الطفل بما يعرضون عليه من الكتب ذات التصاوير المزخرفة الجذابة، فيهيم حباً بالقراءة. ويحببون إليه قراءة سير الرحالين، وأوصاف ما جمعوه من علم نافع، وأدب ناضج، وثروة طائلة، ومستكشفات رائعة.

فكم قرأ ليفنجستون أسفار الأسفار في إبان صباه، وهو عامل في مصنع نسيج؛ ولفرط حبه لها ملأ بقراءتها أوقات الفراغ، وكثيراً من أوقات العمل، حتى أصبح رحالة طائر الصيت، كشف شقة واسعة النطاق من غربي أفريقية. درجت على كراهة الاغتراب وأنا ناشئ، ولم أكن أعرف لذلك سبباً إلا احترام العادة التي عودنيها والدي. ولما قرأت قصص السندباد في أسفاره الطريقة تقت إلى السفر، وأول سفرة شرعت فيها وحققتها نزوحي إلى السودان وطول إقامتي به. فكأن الله كتب علي الغربة عن الوطن بعد ذلك، فإني ما أتممت فيه مدتي حتى يممت الأقطار الشمالية، ولبثت في انجلترا زمناً آخر يقرب من الزمن الأول. ومن فرط تأثير كتاب "ألف ليلة" في قرائه، توهم الناس أن قراءته شؤم على من يحب الإقامة في عقر داره.

العوامل المؤثرة في الأخلاق

1) الوراثة: العامل القهري.

2) البيئة: العامل الاختياري.

3) التربية: العامل الكسبي

1) الوراثة

لا ينكر أحد أن الوراثة عامل كبير لحفظ النوع، غير أن من لم يعتد بها اعتبر أنها ليست خاضعة لقانون ثابت. فقد يرث الابن من أبيه شبه عضو من أعضائه الظاهرة كسحنة الوجه أو أجزائه، وقد يرث شبه عضو من أعضائه الباطنية كجهاز الهضم أو التنفس أو العضلات أو المجموع العصبي. والمشايعون للوراثة يستشهدون من التاريخ على وراثة الحرف كالمصارعة والغناء،

وعلى وراثة الشيم كالشجاعة والأنفة وقوة الإرادة، وبينوا بالإحصاء أن الوراثة تكون في الجنون وطول العمر وحب الانتحار والانقباض الغالب على النفس. وفي عالم الحيوان تجد حدة حاسة الشم وراثية عند الكلاب، حتى إن بعض أنواعها يرث من أصله قوة لقنص معين، وإن هنود شمالي أمريكا يتأثرون أعداءهم بمجرد الشم، ويورثون أبناءهم هذه الخاصة. فإذا صحت مشاهداتهم، وتمسكنا بعدم الوراثة في الأمور الكسبية فإننا نعد هذه المميزات من الغرائز، وما يورث فيها إنما هو الاستعداد لأداء تلك الخاصة على شريطة أمرين: سلامة الأعضاء الكفيلة بأداء هذه المميزات، والتمرين المبني على المحاكاة، أما إذا ضعفت الصحة، أو كانت الأعضاء بمعزل عن التمرين الصحيح، أو جمعت هاتين الصفتين فإن زاوية الخلف بين الفرع وأصله تنفرج.

وصفوة القول أن الحي تؤثر فيه الفواعل الخارجية، فإذا تكرر تأثيرها فيه وفي نسله تكراراً لم تشبه عوارض فإن الوراثة تجري في النوع كما تجري العادي في الفرد، وينتقل منها في الفرع شيء وراثي ولو قليلاً. هذا الرأي يقربنا كثيراً من مذهب أرسطو أن للإنسان روحين: حيوانية وتخضع لقوانين الوراثة، وملكية ويهيئها الاستعداد للاستفادة من التمرين.

وإذا كان تطرق عامل الشر إلى الطفل بحكم الوراثة قهرياً، وورث من أبويه أعضاء مريضة، فهل يستطيع المعلم أن يقوم اعوجاجه؟ وإذا سيق رغم إرادته إلى الإجرام أفيترك وشأنه أم يجب بذل الوسع في إصلاح نقصه بالطرق الصناعية التي جني الفلاسفة ثمارها؟ وقد قلت الجرائم في الممالك التي شيدت مدارس الأحداث يشغلونهم بتعلم الحرف عن العبث بالفساد.

2) البيئة

الوطن الأول للطفل هو بطن أمه، وحينئذ لا تكون له حياة مستقلة بل تابعة للجسم الذي استقر فيه. فإذا عنيت الأم بصحتها نما واستكمل خلقه، وخرج إلى منفسح الوجود كامل الاستعداد؛ وإلا فقد أساءت إلى نفسها وإليه وربما أجهضت. ومن ضروب الإهمال في مراعاة صحته حينئذ حملها العبء الثقيل، أو تعاطيها الغذاء الغليظ، أو حشوها المعدة فتضغط جسمه وتشوه أعضاءه. وكذلك ذوات الأمراض العصبية وحادات المزاج وذوات الوساوس يلدن شواذ الخلقة غالباً. حكي أن صاعقة سقطت على قرية فشاهدتها حامل عصبية، فسقطت مغشياً عليها، وانقبضت أحشاؤها فأصاب الضغط دماغ الجنين فأفسد مركز عقله. والحكيم توماس هوب نسب ما فيه من خلق الجبن إلى ما لقيته أمه من الأهوال وهو جنين في بطنها. فإن العمارة الإسبانية (أرمادا) كانت حينئذ تطوف حول سواحل انجلترا وتهددها.

وبعد ولادته يكون وديعة بين يدي مربيته، تتصرف فيه بما أوتيت من رحمة وشفقة، أو قسوة وجبروت. تهمله من الرعاية فيتساقط الذباب على عينيه ويؤذيهما؛ ويهبط على شفتين فيسقيه سماً زعافا؛ وأكثر الأمهات يجهلن ما يلاءم نموه، وما أشد إيذاء الصديق الجاهل؛ يسيء من حيث يريد الإحسان. تراهن يلاطفنه ربتاً على ظهره، أو نكشاً لشعر رأسه بالإصبع في موضع واحد، لإزالة ما عسى أن يكون به من الهوام، فيناله الأذى من حيث لا تشعر. وقد يقيدن استقلاله بالتقميط، أو يمنعنه من مشاهد الطبيعة الرائعة، أو يقللن عرض الأشياء السارة عليه فيقضين عليه قضاء لا رجاء معه.

البيئة الطبيعية

للإقليم والمناخ تأثير ظاهر في الأخلاق، فساكنو الأدوية ليسوا كسكان الجبال في صفاء الخلقة، ورصانة العقل، ومتانة الجسم. وسكان الأقاليم المعتدلة ألطف خلقاً، وأبهى جمالاً، وأوفر حصانة، وأكثر حباً للصناعة، وأشد إكباباً على العلوم، وهم في الحقيقة أهل الحضارة والإمارة، والذوق الحسن والاختراع المقيد. ذللوا العالم الأرضي والمائي والهوائي، ولهم كل يوم فتوح علمية رشيدة، وبدائع فنية جديدة. وسكان السواحل أذكياء لتمتعهم بمناظر للبحار، ولاعتمادهم على لحوم البحر غالباً وفيها الفسفور الذي يساعد على الذكاء. وهم فوق ذلك أهل جد يجيدون السباحة، ويتجشمون الأسفار البحرية، ويتنسمون رياحها المنعشة. والعرب مطبوعون على الشعر لاستقلال أفكارهم، وقناعتهم بشظف العيش.

وغزارة ملكة الخيال فيهم، وامتداد أعينهم في ساحة مترامية الأطراف، تحت سماء صافية الأديم ساطعة الكواكب. كل هذا أوحى إليهم من بدائع الخيال ما أوحى. والبدو مشهورون بالكرم وبالاستقلال وبالشجاعة؛ مشهورون بالكرم لأن قفر بلادهم حبب إليهم المهاجرة فساروا في البوادي المجردة من الأسواق، وربما نفد من أحدهم الزاد والماء فيجد من الصدور الرحبة ما يقر عينه، ويخفف عنه وعثاء السفر؛ مشهورون بالاستقلال لما تمرنوا عليه من القناعة والخشونة، ينصبون خيامهم حيث ينبت الكلأ يسيمون فيه دوابهم، وإذا زحموا زاحم هجروه، واستعاضوا عنه أرضاً أخرى بدون عناء؛ مشهورون بالشجاعة لأن كل فرد يمرن يديه على استعمال السلاح دفاعاً عن نفسه من مهاجمة وحش أو عدوان عاد.

أما حيوان المناطق غير المعتدلة فشرس ضار فتاك. تجد في أدغال إفريقية الفيل النفور والأسد الضاري والتمساح المفترس والحية السامة والذباب المؤذي. وتجد أمثال هذه الحيوانات في آسيا الصغرى هادئة، حتى إن بعض الدببة تحاكي الغنم في طاعتها للإنسان واستئنائها. ولا تكاد تجد بها هوام سامة.

وقد أصاب ابن خلدون فنسب للسودانيين الطيش وكثرة الطرب والولوع بالرقص عند إيقاع الألحان، وعلل هذا بأن طبيعة الفرح انبساط الروح الحيواني، فالحرارة تهيج فيهم هذا الخلق، كما تهيج المغتسلين في الحمامات. فإذا تنفسوا في هوائها الساخن امتزجت حرارته بنفوسهم، فاهتزوا طرباً ومالوا إلى الغناء.

والمكان الخصيب تتوافر فيه الخيرات، فينغمس أهله في النعيم والترف، وينشئون منكسفي الألوان بلداء. انظر إلى أنواع الحيوان المتشاكلة، فإن ما يسكن منه القفر ومواطن الجدب كالغزلان والنعام والمها والزرافي وحمر الوحش أجمل مما يسكن الأرياف والمراعي الخصيبة في صفاء الخلقة، وتناسب الأعضاء؛ فالغزال أخو المعز، والزرافة شبيهة بالبعير وهكذا.

البيئة الاجتماعية

يحتاج الإنسان إلى الرفيق للاشتراك معه في مهام الحياة المتنوعة، فوجب عليه أن يقاسمه حبه، ويحافظ على ولائه، وقد علمت من الفصل السابق كيف يؤثر الإقليم في طباع سكانه. وأحياناً تطرأ الحوادث الجسام على هؤلاء السكان، فتتغير أخلاقهم ويؤثرون في طبيعة الإقليم. فالعرب كانوا رعاة أغنام، راضين من الحياة بعيشة الكفاف، خاضعين لأحكام الإقليم عليهم، فلما ظهر الوحي واتبعوا نوره، انقلبت طبيعتهم فهجروا عيشة الكفاف، واندفعوا في الممالك كالسيل الجارف، ونصبوا أنفسهم فيها ملوكاً. بيد أنهم لما تحضروا وعاشوا عيشة الترف ضعفت شكيمتهم، وصاروا بعد العزة والمتعة أذلة خامدين. حكي التاريخ أن امرأ القيس شب في قومه مترفاً، عاكفاً على الدواء والخلاعة والفسق والسكر والعربدة والجلوس في مجالس أهل الريبة والنقيصة؛ ولما وصل إليه نبأ قتل أبيه وهو على تلك الحال صدع، فانقلب كيانه، ونطق لسانه، بهذا القول المأثور، والشعر المنثور: "لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر، وغداً أمر"، وطوي صحيفة اللهو،

وانطلق في الفلوات طالباً الأخذ بالثأر على عادة كبار النفوس من العرب. وقرأنا من أخبار الثورة الفرنسية الكبرى أن كثيراً من العصاة كانوا هادئي الأخلاق في زمن السلم، فلما صارت عاصفة الثورة انقلبوا كالوحوش الضارية، وكان لبونابرت منهم أعوان مخلصون.

العقل كالجسم تؤثر فيه بيئة المعاني ويؤثر فيها. تبهره المحاسن فيتلفاها بالقبول ثم يصوغها من جديد صوغاً يلاءم مزاجه، لا فرق بين أن تكون هذه المحاسن من المنظورات أو المسموعات. قال أبو تمام:

وأحســـن من نور يفتحه الصــبا   بياض العطايا في ســـواد المطالب

قيل إنه نظم صدر هذا البيت ثم أعياه القول فلم يستطيع إتمامه، ثم سمع سائلاً يستجدي بقوله: من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا فاستجاد قوله، واستعارة منه، وحلى به صدر هذا البيت. تراني أجلس في حديقة تشدو بلابلها وتسجع أطيارها على أفنان الأشجار، والماء يمر بها فيسقيها، والنسيم يحرك ساكنها فيشجيها، وأرى السحب فأناجيها بما ناجى به الشاعر الأندلسي:

كللي يا ســـحب تيجان الربا بالحلى   واجعلي ســـوارها منعطف الجـدول

فإن جلال هذه المشاهد يهز وجداني، ويملك ناظري، ويشحذ تأملي، ويوحي إلى الحافظة فتدخر منه ما تريد، ويصوغ منه الخيال ما يشاء، وما ظنك بخيال حققته براعة الصناع فأنطقوا الحديد، وأطاروا المعاقل، وسيروا الأعلام في البحار.

وقد علمت أن الخبرة الذاتية خير مصادر العلم الصحيح. إذن فمن ذا الذي يستطيع أن يستوعب الأمور كلها، والعمر مهما طال قصير. وربما لا يهتدي الإنسان إلى معرفة الحقائق التجريبية إلا وهو في آخر مرحلة من العمر، ويموت قبل أن يستفيد مما قضى عمره في الحصول عليه، يموت ويترك المجال لشخص آخر يعيد الكرة لينتهي إلى مثل هذه النهاية، مع أن الحقائق ينبغي أن تكون من مجهود الجماعات كل منهم يسدي إلى الآخر نتيجة عمله ليزيد عليها.

لذلك كان من متممات الإنسان أن يستعين آراء غيره، ويتبادل مع المفكرين نقد المسائل، ويقرأ سير النوابغ، مستعيراً منها العبر والنصائح. والكتب خزائن العلوم، جمعها المؤلفون بعد عناء وجهاد. فما أوفر السعادة لمن عكف على قراءتها، وفهم أغراضها، مستغنياً بها عن هذا العالم المكتظ بالأحقاد والنفاق. تقضي ضرورة الاجتماع على الإنسان أن يدرس طباع معاشريه محتكاً بهم، فإن جهله بأخلاقهم يجره إلى أن يغتر بأحاديث أهل الخديعة فيحاسنهم حيث ينبغي أن يخاشنهم "وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصلاحات وقليل ما هم"، أو إلى أن يخشاهم فينقلب علمه جهلاً. وتقضي ضرورة الاجتماع على المدني ألا يكون عقله مجرد وعاء ترسب في قراره المعاني، بل منبرياً للاستفادة من علمه وتجاربه في المصلحتين: الخاصة والعامة، سالكاً السبيل التي تهيئة لأن يكون عضواً عاملاً.

وقد تحقق الناس صدق الاجتماع فتعاونوا على ترقية وسائله، وأسسوا الأندية للمباحث العلمية والاجتماعية، فإذا قويت بينهم روابط الود ذللوا الصعاب، وقدحوا زناد المبتدعات النافعة.

السعي لاختيار البيئة

تنظر إلى النبات فيخيل إلينا أنه ثابت في مكانه، ولو فحصت عن جذوره لعلمت أنها تتشعب في الثرى، وتسيخ في أعماق الأرض طلباً للغذاء.

والحيوان والإنسان مفطوران على حب الانتقال من بيئة إلى أخرى، ويشعران أن الحبس يقضي على السعادة قضاء، ولذلك جعل أكبر عقوبة للإجرام قال المتنبي:

إذا صـــــديق نكرت جـانبـه   لم تـعـيـني في فـراقـه الحـيـل
في ســـعة الخافقين مضـــطرب   وفي بـلاد مـن أختـهـا بـدل

إن حب الإنسان لنفسه يدعوه إلى السعي وراء المناخ الصالح والجليس الصادق، وإذا استوطن أرضاً يفضل ناحية على ناحية، وأناساً على أناس. ويمارس العمل وإذا وجد منه ضجراً هجره واستبدل به غيره. والمهاجرة – مع ما فيها من مفارقة الأهل والأصحاب – تهيم بها النفوس الأبية حباً في الثراء، وطلباً لاستجلاء محاسن الطبيعة، وشغفاً برؤية المتجددات في عالم الصناعة، الوقوف على أخلاق الأمم، ودرس ما وصلوا إليه من العلوم. (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا)؟.

ثم إن النفس الرفيعة تجمح بالطبع من البيئة السيئة، وتود لو أن صاحبه يهاجر إلى حيث يطيب له المقام. وإنها لكذلك إذا خاطر يوحي إليه أن التذرع بالصبر أفضل، وأن الجهاد لإصلاح البيئة السيئة واجب تستدعيه محبة الوطن. عند ذلك تهب من منامها غير هيابة ولا وكلة، لتعالج النقائص معالجة الطبيب الحاذق، متذرعة بما أوتيت من عزم ثابت، وفكر ثاقب، وإرادة صحيحة؛ وكلما استعصت وسائل العلاج الناجع زادتها الرغبة إقداماً ونشاطاً. والنفس التي هذا شأنها خليقة بأن تتولى قيادة التعليم والتأديب.

إن العلم النافع وطن للمفكرين أولى النفس السامية، يتسلى به العلم من عاداه المناخ، وأساء إليه الجليس، خضعت لأحكامه أشتات الصناعات، وأفاض من نوره شعاعاً على عقول العاملين، فاخترعوا المدافئ للوقاية من وطأة القر، والمراوح لتخفيف الحر؛ ورسموا – مستغمين به – مناظر بديعة رائعة، جذابة خلابة، يتمتع برؤيتها المقيم في وطنه؛ ودنوا الأغاني على صفحات الحاكي حتى أصبح في وسع الإنسان أن يسمع رنات المثاني، ومناقشة الخطباء، وعزف الآلات وهو بين أركان منزله. وعلى الجملة ينسى لمن ركز العلم الصحيح في ذهنه أن يقلب الأمور على وجوهها، ويتخير أحاسنها، ويتخذ من جحيها نعيماً يريح النفس، ويجلو عنها صدأ الهموم. وبيئة العلم مع هذه المزايا لا تحتاج إلى ثراء واسع يعجز عنه المقل. ومن توافر لديه المال فلا حرج عليه أن يخرج من وطنه ليتفقد شئون الناس، ثم يعود إليه قوى الجسم موفور العقل: (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً).

3) التربية والتعليم

إن المعلم كالغارس يتعهد الشجرة بضم عود مستقيم إلى ساقها لتنمو على الاستقامة. وإن الطفل كالغصن فيه استعداد للاسترشاد بتجارب المشرفين عليه. ولأمة عليه الإشراف إلى السنتين من عمره، ثم يشاركها الأب ويتضافران على إصلاح شأنه واختيار بيئته. وإذا بلغ السابعة من العمر استقبلته طلائع التكليف عند الحكومات النظامية فتجبره على التعلم، ولا يكاد يدرك سن البلوغ حتى يتكامل عقله، ويسمو به وجدانه فتهيم نفسه بالموجودات، ويستعين الخلطاء تزدادان، وميوله ومطامعه تتضاعفان، وكلما مارس الصعاب وتقلب على جمر الآلام ازداد صفاء، وحقق رجاء.

وازن بين رجلين: أحدهما بدوي قح قنوع بشظف العيش، عقله غفل من زخارف الصناعة، والثاني مدني نشأ في حضن الحضارة والرفاهية حتى قدر ذوقه على فرز ضروب المحاسن؛ إن الفرق الذي تبين لك بين هذين الرجلين هو أثر التربية الصحيحة التي ننشدها. وكم طالت العصور، وانقضت الدهور، ولم ينته البحث في طرق التعليم، وما وصل الناس إلى أقصى غايات العلم، وكلما خطوا إليه ووردوا حياضه رأوه بحراً واسع الأرجاء، جزيل السخاء. وأنت إذا قدرت ما وصلوا إليه في غضون ستة آلاف سنة اشتغلت فيها العقول فرادى وجماعات، تعلم أننا أدركنا منه غاية لم يكن أحد يتوقعها. فإن الفلسفة التي كانت فرائصنا ترتعد عند ذكر اسمها، لاشتمالها على المسائل التي تحتاج من العقل إلى جهد وعناء، أصبحت سهلة المتناول، فاسترشد بها الصانع والتاجر، واهتدى بها السائح والمنقب عن ماضي الإنسان والحيوان وحاضرهما، واستعان بها المعلم في استجلاء الغرائز والاعتداد بها في إيقاظ الهمم الفاترة، والميول الطاهرة.

وقد دونت ببطون الأسفار تجارب الحكماء من عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو إلى العصر الحاضر. ولا يكاد القارئ يفرغ من قراءتها حتى تتجلى له المجهودات التي سبروا بها غور العقل، والخطوات التي تدرجوا بها لدرس أحواله النفسية، وما أطول الأشواط التي قطعوها في سبيل البحث لإدراك مرامي الحقيقة، ولا يزال المعلمون يعتقدون أن فواعل الوراثة عقبة في سبيل نجاحهم؛ بيد أن لوك وهربارت ضرباً صفحاً عنها. قال الأول: "إن عقل الناشئ كالصفحة البيضاء، ينقش عليها المعلم ما يشاء، والمادة والاختبار عاملان كبيران للنجاح، ونحو 090% من الناشئين قد شكلتهم التربية فكانوا على حسبها محسنين أو مسيئين". ولا أدري لماذا لم يعتد بالوراثة مع أن آثارها ظاهرة لا تحتاج إلى برهان. واعتقد الثاني أن الأرواح عوالم مجردة من الاستعداد الوراثي، وكلها متشاكلة من بادئ الأمر. والطفل الذي يراد به أن يكون نابغة أو عبقرياً يتوقف مصيره على المربي. اعتقد هذا وهو لا ينكر أن هناك أفراداً لا تنجع فيهم التربية مطلقاً مهما بلغت براعة المعلم.

إننا نعول في التأديب على القدوة الصالحة والانطلاق في ميدان التمرين والتجارب التي تهيئ الجسم والعقل للجهاد في سبل الحياة جهاداً يتفق مع الميول والمصلحة في المجتمع الإنساني. تقتفي أثر استعداد الطفل ونقف على حدوده لنتخذ منه مقياساً لما نتخاره من العلوم. على أنه لا يسوغ لنا أن نقتصر على مطالب البيئة الحاضرة، بل ننظر إلى أفق من العلوم أعلى قدراً وأرجح وزناً، لنبرهن على أننا أمة ناهضة. إن الضابط الذي يكفل لنا اختيار مادة الدراسة هو أن نفحص عن أهمية العلوم لأنفسنا، فلحسمنا ولعقلنا ولنظام أعمالنا ولتثقيف وجداننا ولضبط أخلاقنا ولكل ما يساعدنا على نيل سعادتنا حقوق لها علاقة كبرى بحياتنا الكاملة، ولا نعرف هذه الحقوق إلا إذا استوعبنا دراسة العلوم الموصلة إلى هذه الغاية، والتي من أجلها شرع التعليم والتأديب يجب أن ندرس العلوم لنتخذ منها سلاحاً نحارب به الرذائل، ونحافظ به على الصحة؛ ويجب أن نستنير بنبراس العلوم لنسترشد به في تحصيل القوت، ولنعرف كيف نحافظ على ولاء المعاشرين واقتباس ثمرات مجهوداتهم، وكيف نملأ فراغ أوقاتنا بمباشرة الفنون الجميلة التي نستمد منها شعاع الراحة.

طريق هربارت

اشتهرت هذه الطريقة بين المربين بأنها تساير الميول النفسية والقواعد المنطقية والملكات الذهنية، فلذلك اعتد بها من يتصدى للتعليم الصحيح. يبتدئ المعلم فيوقظ عند الطفل الحقائق البديهية لتكون للدرس بمثابة مقدمة له، ثم يتدرج إلى الحقائق الخفية، سالكاً في إيضاحها سبيل النشوء من الجزء إلى الكل ومن السهل إلى الصعب، ويصل حلقات المعاني بعضها ببعض قديمها وحديثها، فتتألف منها سلسلة متماسكة الأجزاء، ويسلك في تمحيصها مسلك الوضوح والجلاء، مبيناً بالمثال مواضع المشابهة والخلاف، ليتسنى له أن يستخلص من الأوصاف المشتركة ضابطاً مختصراً، إذا وعاه الطفل في ذهنه سهل عليه استذكار تلك الأمثلة التي عرضت عليه وهي في طور التكوين، وسهل عليه بعد ذلك أن يطبق عليه كل ماله بتلك الأمثلة شبه. هذا وكتبت التعليم قد تكلفت بشرحها ويغنينا الرجوع إليها عن إيضاحها ها هنا.

طريقة القرآن

قد نسب المربون إلى روسو فكرة إثارة التشويق في نفس المتعلم. ونسبوا إلى هربارت فكرة اختيار تلك الطريقة النفسية المنطقية. ولو راجعنا التاريخ لرأينا طريقة القرآن تصدت لهذه الأغراض ووفتها حقها قبل وجودها بما يزيد على عشرة قرون:

قال تعالى في سورة الغاشية: (أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ).

وقال في سورة الأعلى: (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى).

ففي الآية الأولى وجه القرآن بأسلوب رصين، أنظار المفكرين، إلى المشاهد الطبيعية البديعة للاستدلال على ما لله تعالى من جلال وعظمة وقدرة. انظر كيف حث على التشويق ليدفع الناظر إلى اليقين بالإرادة لا بالقسر، والقوة القسرية تقتضي الإلزام الوقتي، حتى إذا فنيت عاد الأمر إلى وضعه الأول.

وفي الآية الثانية حث على جعل التذكير نافعاً، تفهم هذا من صيغة الجملة الشرطية التي تقدم عليها ما يفيد الجواب، ولا يكون التذكير حقيقياً إلا إذا سلك مسلك الطريقة النفسية المنطقية. ولو سرد المنصفون بالاستيعاب، كل ما جاء في القرآن من هذا الباب، لم يعجبوا من أنه منذ القدم آية كبرى من آيات الإعجاز.

إليك شاهداً من طريقة القرآن في سبيل محاربة شرب الخمر الذي فشا قديماً بين العرب وغيرهم، وتعلقت به نفوسهم تعلقاً بعث الشعراء على مديحه، ووسعوا مجال القول وبارع الخيال في وصفه.

جاء الوحي أولاً بهذه الآية: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) فرأى العرب أوامر القرآن تتمشى مع ميولهم، فأحبوا النبي وأنصتوا للوحي الذي نزل عليه، ولم يقفوا معه موقف المعارضين. ثم جاءت الحوادث تترى فنزلت فيها الآيات بحسب مقتضياتها. شرب أحدهم الخمر، ونطق بفحش القول وهو يصلي، فنزلت هذه الآية: (لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى) فعرفوا أن الصلاة مناجاة لله، وينبغي عند أدائها أن يشاركها الخضوع والتأمل، فاستنكروا شربها في الصلاة فقط،

وهذه هي الخطوة الأولى في المنع. شربها أحدهم فعربد واعتدى على آخر، فنزلت هذه لآية: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا). فاستحسنوا الامتناع عنها، وهذه هي الخطوة الثانية في المنع. ولما تهيأت النفوس للنصح، وتبين لها ما ينطوي عليه الوحي من المصالح، نزلت هذه الآية التي حرمت شرب الخمر مطلقاً، واستجمعت كثيراً من الأدلة، وها هي ذه: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ). وهذه هي الخطوة الأخيرة في المنع. فانظر إلى ضروب السياسة والحكمة في التشريع كيف سارت؟ وأي سبيل اتبعت؟ تر أنها تنزلت إلى أفق المتعلمين لتزيل أسباب النفور، ثم أخذت تتدرج في سبل الكمال وهم بها متعلقون، حتى وصلت بهم إلى الهداية المنشودة. ومحاكاة هذه الطريقة – وهي المثل الأعلى – أمنية المؤدبين، منذ فطر الله الإنسان إلى يوم الدين.

المبحث الرابع

أنواع الغرائز

1) غريزة حب النفس

ألا كلنا يبغي الحياة لنفسه حريصاً عليها مستهاماً بها صبا

فحب الجبان أورده التقى وحب الشجاع النفس أورده الحربا

غريزة حب النفس هي العماد الكبير والوازع العظيم الذي يدفع الكائنات الحية إلى تحصيل أقواتها، والدفاع عن سلامتها؛ فالنبات تسيخ جذوره وتتشعب في باطن الأرض سعياً وراء الغذاء، ومن أجله يعدو بعضه على بعض تسلقاً واستناداً وامتصاصاً. والحيوان طلباً للغذاء يبطش قوية بضعيفه، ووحشية بأليفه. ومع أن الإنسان قد ساد أنواع الحيوان لا يستطيع أن يحصى ما يهاجمه في كل لحظة، فهو ما عاش مهدد بالهوام تتسابق لامتصاص دمه، وحقنه بنفثات سمومها، ومهدد بجيوش الجراثيم تناوئه أينما ذهب متغذياً كان أو متنفساً، وتترقب فيه الضعف فتنقض عليه وتميته.

لو أن الناس تحابوا لتعاونوا على مناجزة الأعداء، بهمة قعساء، لكنهم اختلفوا في المشارب والأهواء، وسلوا على أنفسهم سيف القضاء، واستعجلوا الفناء {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ} وكلما زادوا حضارةً وعلماً، زاد التنازع بينهم فتكاً ونقضاً وهدماً.

تجد الطفل القاصر يعبث بملك غيره، ويتمنى أن يكون كل شيء ملكاً له، لأن مدى شهوته للطعام والشراب بعيد. اصبر على هذا الطفل حتى ينمو عقله، وتنفذ إرادته في صلب الحقائق تجده لا يتحقق محبة نفسه إلا إذا وصلها بمحبة غيره نوعاً ما، فإذا واسى مكروباً أو أعان باساً أو أطعم مسكيناً فكأنه يجر النفع إلى نفسه، لأنهم لا ينفكون يذكرون رحمته بهم فيردون له جميلاً مثله، أو ينطقون بشكره إذا أعجزتهم القدرة.

هذا وإن ترقب المجازاة من أجل الدوافع لإسداء المعروف، وقد فطر الله الناس على ذلك وبعث في قلوب الأتقياء محبة العمل الصالح لما وعده به من نعيم الجنات، وحذرهم من مجانبة الشرور، باتقاء نار جهنم التي وقودها الناس والحجارة. ولا تجد حب الخير لمجرد أنه خير إلا عند من منحهم الله قوة العزيمة، الذين وصفهم الله بقوله {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}. يحب الإنسان أبناءه لأنه يتوقع منهم المساعدة إذا قدروا على الكسب، وأضناه الكبر، وهذا الحب ظاهر في الإناث مطلقاً نحو صغارها حفظاً للنوع، وترى هذا الحب يأخذ في النقص كلما كبروا، واستطاعوا السعي، واعتمدوا على النفس. وما تسامح المرأة لأبنائها إذا أذنبوا إلا وازع هذا الحب الغريزي. جاء في أمثال الميداني: أن رجلاً تزوج امرأة وله أم عجوز، فقالت المرأة للزوج: لا أنا ولا أنت حتى تخرج هذه العجوز عنا. فلما أكثرت عليه احتملها على عنقه ليلاً حتى أتى وادياً كثير السباع فرمى بها فيه، ثم تنكر لها فمر بها وهي تبكي فقال: "ما يبكيك يا عجوز"؟ قالت: "طرحني ابني ها هنا وذهب وأنا أخاف أن يفترسه الأسد". فقال لها: "تبكين له وقد فعل بك ما فعل، هلا تدعين عليه"؟ قالت وأرسلته مثلاً: "تأبي له ذلك بنات ألبي".

فإذا علمت أن حب الوالدة لولدها طبيعي، فلا أخالك تنكر أن حب الولد لوالدته أو لوالده وليد المعروف وثمرة العطف والحنان. هم يحبون الوالدين متى أحسوا عطفهما، ومتى عاقباهم انقلب حبهم كرهاً، لأن الغرض الشريف من العقوبة التي يوقعانها بهم، يدق فهمه على أذهانهم، فيتبادر لعقلهم القاصر أنهما يسيئان إليهم.

ويحب الإنسان إخوانه مدفوعاً بعامل المبادلة في المنافع، وهذا الحب مؤقت يبقى ما بقيت المصلحة. قيل إن رجلاً جمع أبناءه الثلاثة وأعطى أحدهم خبزاً، والثاني أدما، والثالث فاكهة، ورخص لهم في الفسحة معاً، فتطلع كل منهم إلى ما بيد أخويه، واتفقوا على أن يقسم كل منهم نصيبه أثلاثاً، يبقي الثالث لنفسه، ويبادل أخويه في الثلثين الآخرين، فتم لكل واحد منهم أنصبة متعادلة من الخبز والأدم والفاكهة، ولولا هذا النفع المتبادل ما اتفقوا.

يشترك الإنسان والحيوان في أن العزلة مضادة لطبعها، وأن الاجتماع فيه تساند وتآزر، فالنحل حيوان اجتماعي لا يستطيع صنع العسل إلا بمساعدة رفقائه، والعمل لا يدخر قوته إلا بمشاركة أفراده، والخطاف لا يهاجر من أوطانه إلا أسراباً، والدواجن تعيش هنيئة إذا اجتمعت، ويرى عليها البؤس إذا افترقت. والبقرة المعزولة لا تدر اللبن ولا تسمن مثل البقرة وسط القطيع.

الأثرة واليثار

الفضيلة وسط بين طرفي الأثرة والإيثار، وقد ورد "حب لغيرك ما تحب لنفسك". نعم تنحط عن الفضيلة نفس من يبذر في ماله ولو في سبيل الجود، ونفس من يلهو عن غيره بمصالح نفسه، ومن يلعب الغرور بعقله فيرى نفسه جديرة بالمديح وهي مجردة من وسائله، ومن يصادر إخوانه في حقوقهم وقف منهم موقفاً ممقوتاً، فيحقد على من ساووه، وينكر فضل من فاقوه، ويستخف من تقصوا عنه.

وليس من الحبة المنشودة أن يجامل الإنسان أخاه بعبارات السرور عند سبوغ النعمة، وأن يسليه بالكلام عند نزول الكارثة. وإنما المحبة الحقيقة أن يتوجه بالفعل إلى جر النفع ودرء الضر متخذاً من المال والجاه عضداً قوياً. ولا يكون إشفاقه على البائسين صادقاً إلا إذا جرب لوعة الجوع والعرى والحاجة، ولذلك شرعت زكاة الفطر بعد صوم شهر رمضان لتكون النفس قد عرفت وطأة الجوع والعطش فتسعى في تخفيفها.

أراد معلم أن ينفخ في رُوع تلاميذه محبة الإحسان إلى البائسين، فأخر عنهم الغذاء قليلاً حتى هاجمهم ألم الجوع، ثم أقبل عليهم وقص حديث من نكبتهم الأيام فطردوا من ديارهم أو أوذوا في نفوسهم وأموالهم، فجادوا بالنزر اليسير، والكريم من جاد بما عنده. ولا يخفى أن تعويد الناشئ مديد المساعدة للمحتاجين مقلل من شركة الأثرة، ولاسيما إذا وجد من إخوانه إقبالاً على فعل الجميل، فليشترك التلاميذ في جمع إعانات ينفقونها في تعليم من تتوافر فيهم المواهب الذهنية من الفقراء. أو يتعاونوا جميعاً على تفهيم المسائل كما كان يفعل بستالوتزي إذ كان يجلس التلميذ الذكي بين التلميذين الضعيفين ليرشدهما. ناهيك بما تحدثه زيارة ملاجئ العجزة ومستشفيات المرضى فإنها داعية إلى محبة المعروف، مرشدة إلى أن الإنسان عرضة لتقلبات الزمان، وما أحوج هؤلاء المرضى إلى كلمة تسلية يسمعونها من زار تخفف عنهم لوعة الوحشة والأحزان، أو إلى هدية تريح نفوسهم، وتدفع بهم إلى التفكير في وسائل الشفاء!

وللأندية والمعارض وجمعيات التعاون والنقابات والمجالات والصحف وممارسة المناقشات الموصلة إلى الحقائق شأن كبير في تأليف النفوس بعضها ببعض على قواعد الإخاء المتين والحب المتبادل. وقد قرر علماء الاقتصاد أن الشخصين المجتمعين يشتغلان في يوم واحد ما لا يستطيع الفرد أن يعمله في يومين. فالفرق بين العملين هو فضل الاجتماع وثمرة التعاون.

إن المجتمعات وحدها وسيلة كبرى لتوثيق عرا الوداد، وتمكين أسباب الإخاء والود بين أعضائها. فقد يكون العضو محباً لقوم يشاركهم في مجتمع خاص، ومحباً لآخرين يشاركهم في مجتمع آخر. بل قد يكون للفرد الواحد اشتراك مع غيره في مجتمعات عدة، فيتضاعف حبه لهم مقدار ذلك.

(2) غريزة الخوف

هي مشتركة بين الحيوان والإنسان، ويخفف وطأتها على الإنسان ما يتوخاه من طرق أبواب الحيل. ولا يدرك معنى الخوف على حقيقته، من امتد به رواق المدنية، وورف ظل الأمن. وغالباً يعتمد في تصويره على ما يرسمه الخيال، أو ما يجود به الكاتبون من وصف المحن التي تفتك بالإنسانية في الحروب والزلازل والمناجم، و بين ألسنة اللهب ولجج البحار. ومع أن هذه الأخيلة مؤثرة لا يرسخ أثرها في الحافظة رسوخه إذا أصيب الإنسان بشيء منها وأنجاه طول العمر. أرادت كاتبة أن تكتب في وصف الخوف الذي يحسه السارق، فعن لها أن تدخل دكاناً، وتتظاهر بالسرقة فتقدمت إلى البائع وأغلظت له في القول، وضايقته في المعاملة، وأعرضت عن الشراء؛ وبينما هي في الطريق إلى الباب، تناولت من الأرض هنة، وما كادت تخرج حتى أدركها الحارس وضبط ما معها، وأوسعها شتماً وإيلاماً، وسلمها إلى شرطي رافقها إلى المحكمة للفصل في أمرها

. فلما مثلت بين يدي القاضي أدهشه حسن زيها، وجمال روائها، مع تفاهة الشيء المسروق، فسألها عن التهمة فاعترفت بها، ثم استفسر عن الأسباب، فأجابت بأنها ما فعلت ذلك حباً في السرقة، بل حباً في درس الوجدان الذي يلازم هذا الموقف. فلم يسع القاضي إلا أن أنفذ عليها جزاء الحبس على اعترافها بالسرقة، ثم قصد الإمبراطور فقص عليه أمرها، والتمس منه العفو عنها.

يتردد على النفس شيء واحد فيكون أحياناً مصدر سرور، وأحياناً مصدر خوف. فالطفل يرى الكلب اليوم فيقترب منه ويلاطفه، وبراه في غد فينأى عنه ويتهيبه. وإذا تساءلنا عن سبب هذا الاضطراب علمنا أنه رأى الكلب لأول عهده مسالماً فال إليه، وعند ما أقبل الليل وآن أوان نومه، وألهاه اللعب عنه ولم يمتثل أمر أمه، أمرت الخادم أن تصوت محاكية نباح الكلب، وأظهر الحاضرون الفزع من سماعه، فذهب مسرعاً إلى فراشه وانكمش في مضجعه ونام. ولما استيقظ صباحاً، ورأى الكلب عينه، وسمع نباحه على تلك الصورة التي سمعها ليلاً فلا نعجب إذا رأيناه يخافه، إذ الخوف الذي كان كميناً عنده قد أثارته التربية السيئة.

بمثل هذا نعلل الفرق بين الحمام الذي يأوي إلى الكعبة ويرفرف عليها مستريحاً مطمئناً، والحمام الذي يسكن الجهات الأخرى. فحمام الكعبة استأنس لأن غريزة الخوف عنده كامنة لم يثرها ثائر، فلم يهاجمه أحد ولم يؤذه صياد، عادة ألفها من الإنسان وقد وصاه الله بهذه المعاملة. أما الحمام الآخر فيسمع غالباً دوى البارود المفزع، ويشاهد شبح الإنسان مقروناً به، فتتنبه عنده غريزة الخوف بمجرد رؤية الإنسان، ويفطن إلى أنه يريد الاعتداء عليه فيخافه. أما ذراريه فربما لا تشاهد مثل هذا الاعتداء، ولكنها تحاكي أصولها في هربها من الإنسان فتخشاه تبعاً.

أعراض الخوف

عند الخوف يحس الجسم وقع قوة عنيفة يرزح تحتها، وتهتز جوانبه من هولها، فيهرع الدم إلى القلب ليثير في الإنسان الاستعداد لدرء الخطر أو الفرار من وجهه. وتبدو أعراضه فتدل عليه، يمتقع اللون، وترتعد الفرائص، وترتعش اليدان، وتضطرب العضلات، وتتصلب المفاصل، ويتصبب الجبين عرقاً، ويقف شعر الرأس، وتتسع الحدقة، ويخفق القلب، ولا يعود التنفس من الأنف كافياً فينفتح الفم.

وكذلك يفعل الخوف فواعله في العقل، فيتكدر صفاء الحافظة ويغلب النسيان، وتتعطل الإرادة الصالحة، إذ لا تجد فكراً يقظاً، ولا عضواً مطيعاً، ويستسلم الذهن للخيال المروع حتى إذا رأي غير شخص ظنه رجلاً، وتستولى عليه الوساوس، ويزل عن مواقف الصواب. وكثيرة يعتدي على المزاج ويجره إلى الهلاك، كما يحصل المجرمين الذين ينفذ عليهم حكم الإعدام، يقفون بين يدي الجلاد والسياف، وإذا قدم أحدهم للقتل مات الذي يليه من شدة الفزع والجزع.

مثيرات الخوف

تثور النفس بفطرتها عند سماع الأصوات الشديدة التي تصل إليها من غير انتظار ولا استعداد ولا تعرف لها أسباباً ظاهرة. أصيب محمد علي باشا الكبير بصيحة مزعجة من جراء إعدام المماليك في قلعة مصر، كانت تنتابه أحياناً فيسمع منه زئير كزير الأسد يتقطع من سماعه نياط القلب. جلس رسام إلى جانبه ليرسمه، ولا سمع هذه الصيحة هلع فؤاده، ومات من شدة الفزع. وكثيراً ما نرى المتفزرين تعروهم رعدة الخوف لأقل صوت أو حركة. وهم الذين قالت فيهم عائشة أم المؤمنين: "إن لله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفقت الريح خفقت معها. فأف للجبناء".

في سنة **1906** كنت جالساً مع المعلمين في كلية جردون بالخرطوم، وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، إذا صوت هائل هز أركان المدرسة وصدع بنيانها، ثم شخصت أعيننا إلى السماء فإذا هي اغبرت، وكساها الدخان المتراكم ثوباً كثيفاً، فسكتنا ذاهلين، وأقبل بعضنا على بعض يتساءل عن هذه الحادثة، وما المسئول عنها بأعلم من السائل، ثم تفقدنا الطلبة فرأيناهم خارجين من الحجرات بقضهم وقضيضهم مذعورين يلتمسون النجاة من شر هذا الهول العظيم. ولما اطمأنت النفوس، وهدأت العقول، وحققت الحادثة، علمنا أنها نشأت من انفجار **150** طناً من البارود، وما ظنك بصوت امتد صداه على بعد **30** ميلاً من مكان الحادثة التي كانت لشدتها.

تصـــم السـمـيع وتعمي البصـير ويســـأل من مثلهـا العـافيـة

ومن مثيرات الخوف رؤية المشاهد الغريبة العجيبة المضطربة، كرؤية لص مسلح في هيجانه، وكجماح حصان انقلبت سحنته ونصب أذنيه وفتح منخريه. رأيت في أسفاري طفلاً يترنح من البشاشة والسرور، وقفته أمه ليطل من نافذة القطار، ولا تحرك اضطرب مزاجه فعبس وبكى بكاءً مرا، ولما أدارت وجهه عن رؤية المناظر المضطربة المتجددة سكن جأشه. وكذلك شاهدت طفلاً يلعب الخوف بعقله، فتمت ملامح وجه، لأن حامله اقترب من البحر فكرت أمواجه المتلاطمة صفاء سروره.

ومنها المباغتة كما إذا حادثنا متكلم على غير انتظار، أو نبح علينا كلب، أو مثل أمامنا شبح غريب الصورة. ولعلك تقدر ما يعترينا من ألم الرجفة وقد فتح الريح مصراع النافذة فجأة خطر لي أن أتفقد كيس النقود وقد اعتدت وضعه في مكان خاص من ملابسي، فها لم أجده ذهل عقلي وضاع صوابي، وكادت تباريح الحزن تستولي علي لولا أني تحققته في مكان آخر. والفأر تتصلب مفاصله متى عاين القط أمامه، ويستسلم لعدوه من شدة ما يعروه من وقع الخوف. ويثور الخوف عند العزلة والمكث في الأمكنة المظلمة والجحور والمغارات، لأنها مظان لكمون العدو، أو لأن الظلام يحول بين البصر ومن يريد الإيذاء، وقد جاء في المثل: "الليل أخفى للويل"، وقيل: إذا أقبل الليل استأنس كل وحشي، واستوحش كل إنسي انظر إلى الشكل الآتي.

ومن مثيرات الخوف توقع الزلل عند ذوي الأمزجة العصبية، فترى من يقف موقف الخطابة أمام الجمهور مرتعد القلب، ذاهل العقل، متلجلج اللسان. لأنه يخشى أن يخيب رجاؤه في النجاح، "والإنسان من خوف الذل في الذل"، أو لأنه ربما ذهب إلى رأى لا يرضاه السامعون، أو لا ينطبق على الواقع. ومهما كبرت همة الخطيب، واستجمع الغاية من ابتكار المعاني وذلاقة اللسان، فلا يستطيع أن يقف في الناس موقفه بين الأصحاب أو بين من اعتاد محادثهم، وهذا أمير المؤمنين عثمان بن عفان ما بويع بالخلافة خطب فأرتج عليه، فنزل عن النبر واعتذر.

وقد يكون الخوف من ضعف الصحة، فينتاب المحمومين. وتتغلب الفزعات على أذهانهم، فيخيل إليهم مزاجهم المضطرب صوراً من الوحوش الضارية تتأثرهم، أو صخوراً من السماء تنحدر عليهم، وتراهم للتملص منها في قلق وحيرة.

يقيس الإنسان عرض الطريق الذي يسير عليه فلا يجده يزيد على نصف متر، ولكنه إذا سار على المشارف العالية أو على ممر في البحر، يلعب به الوهم ويسوقه إلى موارد الخوف رغم إرادته، فتجده يحتاج إلى ما يستند إليه، وإلا فإنه لا يتمالك الوقوف. ومن ذلك أن شخصاً حكم عليه بالإعدام، فشدت على وجهه عصابة، وأعلم أنه سيفصد تنفيذاً لهذا الحكم، وبدلاً من الفصد سلط الفاصد عليه رشاشاً من الماء الفاتر، فظنه دماً يقطر منه وغشي عليه فمات من تأثير الوهم. وبين ظهرانينا أناس بذروا في شهواتهم، وقضوا القضاء العاجل على سعادتهم فيحسون طبعاً بتأفف، وحينئذ يوسوس لهم الخيال فيحملهم على اعتقاد أن فيهم داء، فيفزعون إلى الطبيب ليفحص مرضهم فيستريب، وربما اختلق لهم علة وخوفهم بطشها فيعيشون من هذا الوهم المضاعف في ذل دائم وقلق مستمر. ولو حسبت من يموت في زمن الوباء وجدت أكثرهم يلقى حتفه من تأثير الوهم، والوهم من ألد أعداء الإنسان.

ومن محدثات الخيال المزيج قراءة القصص، وهي أشد الأشياء انجذاباً للناشئ. وما ظنك بمن يجلس بين يدي أمه أو عجائز البيوت ولا يسمع إلا نوادر العفاريت والجان، وما يفعلونه من ضروب الأذى والحرمان، بلينا بهن في العهد الأول من طفولتنا، واعتقدنا صدق روايته لصغر عقولنا. وإن من يوطن نفسه على اعتقاد أنها من التخرصات والأكاذيب، ثم ينطلق رابط الجأش إلى اختبار مصادرها، لا يجدها إلا كضباب أرسلت إليه الشمس أشعتها فبددته. وقد كفانا المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده مئونة البحث عن حقيقة هذه الأوهام إذ أسمعنا: أين في مصر درباً يدعى حيضان المسلى بين الأزهر والدرب الأحمر، اشتهر بالمخاوف، وذهبت فيها أحاديث الناس مذاهب شتى، لضيقه وظلامه وإهمال وسائل الأمن فيه؛ حدثنا أنه عقد رهاناً مع طائفة من إخوانه لاختراق هذا الدرب ليلاً، وما بدأ بالسري حتى غشيه الوهم، وبدت عليه أمارات الخوف،

وكان كلما صور له الخيال شبحاً مفزعاً تجلد وأيقظ فكره وأحيا عزيمته، وسل سيف إرادته، واندفع إلى حجب الوساوس فمزقها، ومر في سبيله كالسهم من الرمية. وبينما كان سائراً سمع غطيط نائم فعقب الصوت واسترشد به إلى مصدره، وإذا هو غلام كان يلعب مع إخوانه الصبيان وغلبه النوم فأيقظه، وتقدم به الأستاذ إلى من حضر في الطرف الآخر من الدرب، وقص عليهم من أمره علماً، وصوب لتلك الإشاعة من همته سهماً، وأثبت لهم من التجارب عزماً وحزماً، واقتلع من نفوسهم ضلالة ووهماً.

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى   وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمناً

منافع الخوف

الخوف المعتدل من أكبر عوامل الإصلاح، والعاقل يجعله كالنار يتدفأ بها ولا يلمسها، وهو الذي يحمل النفس على التريث والأناة، ويشير المواهب الفكرية لتمحيص الأمور، وقد ورد "من خاف سلم". فإذا دب دبيب الخوف في إنسان على أثر رؤية حيوان ضارٍ، ففر من موقفه إلى حيث يضمن السلامة، ضمناً بحياته أن يعبث بها الشر، أو إذا دهمته النار في منزله فثبت أمامها رابط الجأش يفكر في وسائل النجاة، ودفع عائلة الحريق، حمدت مغبة هذا الخوف الذي نبه القوى الفكرية على دراسة الموقف والاستعداد له، ودرء مخاوفه بما يستطيع من الإقدام والنشاط.

وخوف الله تعالى رأس الحكمة، لأنه يضبط النفس الجامحة ويكفها عن مباشرة الاعتداء، في غيبة الرقباء، وكفى بالله رقيبا. وماذا عسى أن يكون خطر الملحدين على المجتمع الإنساني وقلوبهم مجردة من هذا الوازع، ولهذا غلا فولتير في قوله: "لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه"

في الخوف قوة روحانية تكفل تحرى الإصابة والسلوك بالإنسان في مسالك البحث والتنقيب، لتخير الأسباب الراجحة التي ترشده إلى السعادة، على أنه قد يبذل ما لا قبل له به من وسائلها، ثم تفلت منه الغاية المنشودة، ويضل حيث يريد الفوز. ذلك لأن الأسباب المعقولة التي جال فكره في اختيارها، ربما لا تكون أسباباً حقيقية في الواقع. فقائد الجيش يرسم خطة الهجوم التي يتوسم فيها النجاح في ساحة الحرب، ولكن عدوه ربما حسبها من قبل – على سبيل توارد الخواطر – وأعد لها العدة، فيتبدل الأمر، وتسوء العقبى.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فـأول مـا يجنى عليـه اجتهـاده

لذلك جاءت مشروعية الاتكال على الله بعد إجادة الأسباب، وهذا الاتكال برهان على عجز الإنسان وقصر عقله في الإحاطة بالحقيقة. وقد أجاد أبو تمام في قوله:

وقد يسـكهم السـيف المسـنى منية وقـد يرجع المرء المظفر خـائبـاً

فحسبه أن يزاول الأمر بعد عرض أسبابه على محك الفكر، ثم يقف بين طريق الأمل بالنجاح والخشية من الخيبة، ويضرع إلى الله تعالى راجياً حسن التوفيق، إلى أقوم طريق. {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}.

رأينا من الناس من اندفع بلا عقل في سبيل المضاربة، ودخل فيها من غير حساب لعواقبها، فربح وخرج من السوق ظافراً محسوداً. ورأينا منهم من يدخل السوق ويزن الأمور بميزان العقل، ويحكم عليها حكماً منطقياً يقينياً، فيحجم عن الشراء، مع أن الواقع ربما لا يتفق مع رأيه، فأمثال هذه الحوادث لا يصح القياس عليها. ولو تأملت معنى تلك الآية، وتفهمت ما تحتويه من البيان، وما تدلى به من الحجة، لعرفت أن الله عنده مفاتح الغيب، وأننا لا نملك من أمورنا إلا أن نزنها بعقولنا، ونماشى الدليل ونستند إليه، ونعول عليه، فإذا عادى القدر مسعانا، فلا حول لنا ولا حيلة. إن الذي يستسلم للمضاربة إذا صحت معه الأحوال وجرت معه الأمور في طريق غير معقول، يوشك أن يرد منها مورداً يقضي على ماله، وما أحكم المثل المشهور "ليس المخاطر محموداً و إن سلم".

الشجاعة

الخوف غريزة كما علمت. أما الشجاعة فصفة كسبية تجود بها التربية ويصقلها التمرين. والجبان والشجاع سواءان عند الصدمة الأولى، ثم يتفرقان فيخور الجبان ويتعثر في أذيال الخيبة، ويحتال الشجاع ليتملص من الأذى. وقد أنصف ابن حزم ففسر الشجاعة: "بأنها بذل النفس للذود عن الدين أو الحريم أو الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض وسائر سبل الحق؛ والصبر على ما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عروض الدنيا تهور وحمق، وأحمق من ذلك من بذلها في منع الحقوق والواجبات، وأحمق من هؤلاء قوم لا يدرون فيم يبذلون أنفسهم، فيتعرضون للمهالك: إما إلى العار، وإما إلى النار".

إن الشجاع في نظر الخلقى من يصرف القوة التي وهبها الله له في شئون نفسه وعشيرته ووطنه والعالم الإنساني، والشجاعة رأس مال من يسكن الماء، ويلتحف السماء، دعامتها صلابة الفؤاد، والتمرين والجهاد، لا كما ظنها الهمج تنال بصنع الوالد الذي يخرج لصيد الأسد في الصحراء، يذبحه ويستخرج قلبه فتنضجه الأم وتطعمه أبناءها فيشبون على الشجاعة.

قال ملك لوزيره وهو يختبر حذقه: ائتني بأردأ طعام، في أقبح إناء، يحمله أحقر إنسان. فظن الوزير أن طلبة الملك سهلة ميسورة، فاستحضر فولاً ووضعه في وعاء من الخزف، واستأجر لحمله إلى الملك عاملاً حقير الملابس، وكاشفه بالأمر. فدهش العامل وقال للوزير: لقد أخطأت المراد، وحدت عن طريق السداد؛ دونك الطعام الذي تقدر الوجبة منه بعشرات من الجنيهات، وهو الطعام الغليظ الذي تضم المعدة دون هضمه؛ دونك الوعاء الذهبي المكلل باليواقيت، وقيمة الصحفة منه مئات من الجنيهات، وهو الوعاء الذي إذا كسر كانت الخسارة باهظة، دونك فلاناً الثرى الوارث المنغمس في النعيم والترف، اللاهي عن مهام الحياة، الذي لا يبالي أن يكيل المال جزافاً؛ خذ هذا الذي وصفته لك إلى الملك فإنه الذي عناه بطلبه. وأجرؤ وأقول: إني – وإن كنت فقيراً معدماً– ذو نفس شريفة غنية. وهل في شخص غيري يتحقق معنى الشجاعة وأنا أسعى إلى القوت بياض نهاري، ومتى انتهى النهار جئت بأجري الزهيد وصرفته على بيتي، معتقداً أنه ثمين، لأنه ثمرة عرق الجبين؟

نعم نتمثل الشجاعة في هذا الشخص وفي البناء مثلاً، ذلك الذي يقوم بعمله واقفاً على عود خشب قد يكسر به، أو يفلت منه فيهوى إلى الأرض، وهو على كل حال معرض لزمهرير البرد ووهج الشمس، قانع من القوت بالنزر اليسير، راض من الرزق بالأجر الزهيد.

كذلك تمثل الشجاعة في نفس العامل الذي انطوى به باطن الأرض، إما في مناجم الفحم بعيداً عن مناظر الكون الجميلة، متنفساً في جو من الغاز السام، وربما انفجرت فيه عين ماء، أو التهب فيه الغاز فيذوق الموت الزؤام، وإما في مسابك الحديد وقبس النار يلمع في الأفق، وآلاف الشرر تتصعد في الجو، ومذوب الحديد يجري كالماء في الجداول، إذا مس الجسم شيء منه ذهبت النفس شعاعاً.

كذلك تتمثل الشجاعة في نفوس المستكشفين الذين يهجرون أوطانهم وما حوته من نعيم، لتفقد البلاد النائية. واستخراج حاصلاتها والانتفاع بخيراتها، ويزيدون رفاهية العالم بما يوسعونه من الأرزاق عليهم وعلى الناس.

وتتمثل في نفس الجندي الذي يخرج إلى الحرب وعلى جسمه العدد، والجو متلبد بالبارود، يلقى إليه الأمر بالهجوم فينقض على الحصن المسلح، وينال منه إحدى السعادتين: الفوز على العدو أو الموت الشريف، ويبني له ولقومه حصناً من الفخر، ومكاناً من الرفعة، ومن أنا مثل خالد بن الوليد الذي قال وهو يحتضر: "لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء".

تمثل الشجاعة فيمن يسهرون للمصلحة ويجيدون المخترعات، ويزاولون التجارب على ظهر البسيطة، أو في الجو وقرار البحر والموت يهدد حياتهم. وكم ضحى بها العلماء، رغبة في إدراك طلبتهم، فماتوا شهداء المصلحة العامة، كالشخص الذي يخلص غيره من شر أحدق به، حباً في حياة أخيه، وإرضاء لضميره الشريف.

وتتمثل الشجاعة في نفس أصحاب المبادئ السامية، تأمل نصيحة أم عبد الله ابن الزبير له، وقلما سمعت بمثلها من أم إلى ولدها. دخل عبد الله على أمه فقال يا أماه: خذاني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبق معي إلا اليسير، ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟. فقالت: أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق فامض له فقد قبل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية. وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك. وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، كم خلودك في الدنيا؟ فقال يا أماه أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني. قالت: يا بني: إن الشاة المذبوحة لا تتألم بالسلخ، فامض على بصيرتك، واستعن بالله فترى لصاحب المبدأ عقيدة راسخة بنطاق لتأيدها ونشرها، غير مبال بسخط الساخطين، أو عقاب الحكام، وكل ما يلقاه من العدوان حينئذٍ يقع في نفسه موقع القبول. فكم صبر الأنبياء والحكماء على أذى الناس لاعتقادهم أن الحق ناصرهم. وكم تحمل جوناس هاناوى استهزاء الناس به، سائراً في شوارع لندن في يوم ممطر، حاملاً مظلة اخترعها لم يعهدها الناس من قبل. وقد لبث في جد متواصل حوالي 30 سنة لا يبالي بما يوجهونه نحوه، حتى نجح في نشر استعمالها.

هذه الجهود التي استلزمتها الشجاعة على ما فيها من السمو ورفعة القدر، يراها الحكيم دون شجاعة من يجاهد نفسه فيحضها على الفضائل، وبعدها عن الرذائل، ولا عجب فإن صلاح النفس دعامة صلاح الأمور.

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

التخوين والتشويق

كانت العقوبات البدنية فيما مضى أنجع علاج للتقصير، حتى زعم بعضهم أن الطفل إذا أخطأ فقد عاد إلى طبعه الفاسد، ولا يرجعه عنه إلا الإرهاق. وقد تبين لك مما كتبناه في باب الفطرة قيمة هذا الرأي. ومن رجا أن يزيد الخوف الانتباه قوةً ونشاطاً، فقد طلب شططاً. فإنه على العكس يدعو إلى البله والذعر، ويجعل الأمر البسيط صعب المنال. فلو سرق الطفل شيئاً وعوقب بالضرب الذي من شأنه أن تشمئز منه النفس. فإن السرقة وألم الضرب يرتبطان معاً في ذهنه، فيعرض أحدها عند عروض الآخر على سبيل تداعي المعاني. فيجتنب السرقة لما يترتب عليها من النتيجة المبغضة. وقد رأى العالم اسبنسر – وهو من غلاة الناقدين لهذه الطريقة – أن لا ملائمة بين السرقة والضرب، فإذا أخطأ الطفل فسرق، لا يليق بالمعلم أن يخطئ فيضربه، لأنه وقتما يريد تقويمه يقع هو نفسه في ذنب آخر؛ ونبالة مقصد التعليم تأبى ذلك، وتجيز له أن يستبدل بها طريقة العقاب الأدبي وهو أشد وقعاً في النفس، ذلك أن يأخذ المعلم من مال السارق ما يفي بالمبلغ المسروق صفقة واحدة أو نجوماً، كي لا يفقد صاحب الحق ماله، ولتقوى الرابطة بين المعلم والتلميذ.

وكم يبلغ تأثير المعلم إذا تفقد الشكوك النفسية وعمل على إزالتها. وأنفذ بصره في العواطف فاستثارها. لي ابن كان يناهز الرابعة من عمره أصابه قبض"إمساك"، فأعطيته كعكة فيها مشى "ملين"، وقلت له: إني اشتريت لك هذه فكلها لتبرأ من المرض، فرأيته وقع في ريبة من أمرها، ولما تفرست فيه أنه عدل عن تناولها، تخيرت طريقة أخرى أضمن لشوقه، وأبلغ في قبول نصحي، هي أني رجوته ألا يأكلها الآن، بل يبقيها لديه يتأمل ما احتوته من حسن رائع ورائحة ذكية، ولما تركته علمت أنه تناولها طائعاً مختاراً.

فالأوامر والنواهي لا تؤثر إلا إذا صادفت شوقاً، ولا مانع من أن يدع المعلم تلميذه يجرب ما تيسر من الأمور ليدرك نتيجة تجاربه وإذا عاد مخذولاً فقلما عاد إليها. هبك قلت له: "لا تمسك المبراة لأنها حادة وأخشى أن تجرحك". أتراه يطيعك ويعمل بنصيحتك؟ كلا. لكنه إذا أمسكها وأساء استعمالها، ثم أصابه جرح فجئت إليه وذكرته بالضرر الذي نشأ من سوء استعمالها، وأريته وجه الخطأ، وأظهرت له العطف والشفقة، وأرشدته إلى الطريقة المثلى، فإنه يكون لاش سميعاً مطيعاً، وتتربى فيه الإرادة الصادقة والنظر السديد.

فطريقة التشويق تلطف الطباع، وترهف حد الإرادة، وتقوى عرا المودة. وطريقة الإرهاب تسقم البدن، وتدفع الفكر إلى العمل قسراً. ولو تأملت هاتين الحالين لوجدت في كل منهما منزعاً مفيداً. على أن شئون الاجتماع لا يستطيع أن يصوغها الإنسان على وفق هواه فمرة تحلو ومرة أخرى تمر. ومن لم يمرن نفسه على وقع المصائب شقت عليه، ولا يستطيع مكافحتها؛ لذلك كان الأخذ بالتشويق وحده أو بالإرهاب وحده خروجاً بالتعليم الصحيح عن الجادة القويمة. والحكيم من يدمج الأمرين كما قال عمر ابن الخطاب: "لين في غير ضعف وشدة في غير عنف" أو كما قال الشاعر :

"فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم"

(3) غريز الهرب

إذا التقى القط بكلب فأعراض الفزع تبدو عليه: يقف شعره، وتتقفع أعضاؤه، وينتفخ بطنه، ويكشر عن أسنانه، ويرتفع صوته، يفعل هذا فعلاً غريزياً متى أحس من نفسه ضعفاً أمام عدوه، لا يزعجه بهذا الانقلاب الغريب قبلما يتخذ إلى الفرار سبيلاً. وترى السبع وهو سيد الحيوان يركن إلى الحيل عند لقاء عدوه، فيخشع أو يتقهقر حتى يستجمع قوته، ثم يتحين الفرص للافتراس. وقد جاء في المثل: مخز نبق لينباع[25].

إن الشجاع إذا فاجأه الخوف لا تفتر همته، ولا تزعزع عزيمته، بل يتريث ليوازن بين قوته وقوة خصمه، ويعالج الأمر لعله يجد مجالاً للفوز، وإلا التمس طريق الفرار صوناً لحياته ولا عار عليه، وينشط الجسم حينئذٍ نشاطاً قلما خطر له ببال. فقد حدث أحد السائحين أنه رأى شجاعاً فاراً من أسد يحاول افتراسه، وفي أثناء فراره تسلق جداراً عالياً، و

(25) ساكن لداهية يريدها.

ولما زال الخطر عاد هذا الشجاع إلى تسلق الجدار فشق عليه. وربما لا يحصل الهرب وإنما يقوم مقامه الاضطراب إذا اشتدت وطأة الخوف، كالذهول الذي يحسه المستيقظ وقد شبت النار بمنزله. وربما برق شعاع من نور عقله يثير فيه النشاط إلى إخماد النار أو الفرار طلباً للمساعدة.

رأى وليم جيمس أن هذا الاضطراب يحصل عقب الإحساس، ويحصل الخوف تبعاً للاضطراب، وانتقد قول بعضهم فلان ساءه حظه فحزن ثم بكى، ورأى فلان عدوه فخافه ثم فر. لأنه يرجح تقدم البكاء على الحزن في المثال الأول، وتقدم الفرار على الخوف في المثال الثاني؛ واستدل على رجحان رأيه بالاضطراب الذي نحسه أولاً متى بدأنا بالمسير في طريق مظلمة، ومتى باغتنا صوت مزعج، ومتى رأينا صاحباً يتقلب على مهاد الآلام.

وقد اتبع وليم جيمس هنا طريقة القرآن المبسوطة في هذه الآيات من سورة الكهف: {وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا} فإن تقدم ذكر الفرار على الرعب يشير إلى الترتيب الزماني في الجملة.

(4) غريزة الغضب

هي كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول، ولا صلة بينه وبين المعاني التي تفرغ لها الذهن. وتخالفها في أن الخوف يحمل الإنسان على الهزيمة والفرار، وأن الغضب يفضي إلى الهجوم والاشتجار.

عند الغضب يسرع الدم إلى القلب كما يحصل عند الخوف، ثم يثور فينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن فيحمر الوجه، وينتفخ الودجان، و يجيش الصدر، ويعبس الوجه، وتنكشف الشفتان عن الأسنان، وينطلق اللسان بالإقذاع، وتتأهب الأعضاء للفتك كالوحش الضاري ساعة الافتراس، وقد مثل الإمام الغزالي الدماغ عند الغضب بكهف أضرمت فيه نار فاسود جوه، وحمى مستقره، وامتلأت جوانبه الدخان وكان فيه سراج مضيء، فانطفأ نوره.

أعراض الغضب

ومتى احتدم الغضب في شخص وتوهجت سورته، ولعبت بالعقل شدته، حمل على ارتكاب الجرائم من غير مبالاة، وأثار الحرب من غير عناء، وأوعز إلى الانتقام ممن حوله ولو لم يكن لهم به صلة، وشفى الغليل بالأذى وفعل ما يتحاماه العقلاء. يخسر المقامر فيهيج غيظاً ويمزق أداة العب، وتعثر الرجل بالحجر فتدقه بالأرض دقا، ويكره الآكل الطعام فيكسر صحافه، ويسمع المجرم الحكم الصارم فيس القاضي، وكثيراً ما نسمع بحوادث الانتحار من جراء ثوران النفس عند الغضب.

وقد روى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك فتح المصحف فوقع بصره على هذه الآية {وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} فغضب ومزق المصحف، فقال:

تهددني بجبار عنيد فه أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل: يا رب مزقني الوليد

كذلك سمع المأمون على جلال قدره مدح العكوك في أبي دلف:

فـــإذا ولى أبـــو دلـــف ولــت الــدنــيــا عــلــى أثــرة
كــل من في الأرض من عرب بـــين باديـــه ومحـــتضـــــرة
مســـــتعـير منــك مـكـرمــة يـكـتســـــبـهـا يـوم مـفـتـخـرة

فغضب المأمون واعتذر له العكوك بأن المأمون وآل بيته لا يقاس أحد بهم، ويعجز لسان المديح عن تقدير وفير مآثرهم، فلم يقم المأمون لهذا الاعتذار وزناً وأهدر دمه. ونحن إذا أنكرنا على المأمون سورة الغضب في هذا المقام وفي غيره، والتصدي لإهانة العلماء الذين كانوا يذهبون إلى ما يخالف رأيه، فإننا لا ننكر على أخيه المعتصم سورة الغضب التي سادت عقله حينما سمع قول العربية في أرض عمورية من إقليم الروم: "لا معتصماه ولا معتصم اليوم" فإنها أثارت فيه حمية العرب، ولم يبال حينئذ بنصائح المنجمين الذين تخرصوا وكذبوا وأرادوا صده عن الغزوة وعن انتصاره للبائسة الحزينة، وقد انطلق بذلك لسان أبي تمام في قصيدته التي مطلعها:

لا ننكر الغضب الذي يتولانا من رؤية المنديات المخزيات التي يندي لها الجبين حياء. ومن سماع المكابرة في المناظرة، ومن التمسك بالرأي الذي لا يستند إلى الدليل، ولدى إغفال الحق، وإنكار الصدق، وعند الازدراء، وفي مواطن الإيذاء؛ فكان المصطفى يغضب فتحمر وجنتاه، ولم يخرجه الغضب عن محجة الصواب، حتى صح ما يقول أرسطو أي انتصار ينال في الحرب بلا غضب؟

إن الغضب كالأفعى ذات الملمس اللين إذا بطشت غدرت، وكالقوة الغاشمة إذا حكمت ظلمت، وكمسيل الماء ذي اللجة الجارفة لا يأمن من عثاره، من سار في تياره. حتى لقد أشار المصطفى على من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له: "لا تغضب"، و يعسر على غير الحكماء أن يضبطوا شكيمته، ويخففوا وطأته.

إن الغضب إذا هبط بمقدار مناسب كان منبهاً للحمية، محركاً للنفوس الأبية، موقظاً للنخوة، مثيراً للشجاعة والفتوة.

ولا خير في حلم إذا لم تكن لـه بوادر تحمى صـــفوه أن يكـدرا

كظم الغيظ

قال ابن الروي:

"توفى الـداء خير من تصـــد لأيســـره وإن قرب الطبيـب"

فينبغي للعاقل ألا يتأثر بفواعل الغضب، وأن يحارب وسائله ما استطاع ليكون عاملاً بأوامر الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} ولقد صدقت عزيمة رجلين سارت الركبان بشهرتهما في السماحة والحلم: معاوية بن أبي سفيان والأحنف بن قيس. كان معاوية يسمع كلام الناقدين

فلم تأخذه ضغينة ولم ينتقم منهم، وإنما كان هذا يدفعه إلى توخي العدالة، وإزالة أسباب المظالم؛ ولا تسل عن ثمرات صنيعه فكانت كلها خيراً وبركة. ومن مأثور حكمه "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت". ولما سئل عن ذلك قال: "كنت إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها". وأما الأحنف فقد جاءه رجل وأخذ يسبه والأحنف مطرق صامت، فلما رآه الرجل معرضاً عنه أقبل يعض إبهامه ويقول: يا سوءتاه، والله ما يمنعه من جوابي إلا هواني عليه. وروى المويلحي أن مالكاً سمع اثنين من حراسه يذمانه من وراء خيمته، فرفع الستارة وقال: "ابعدوا قليلاً خشية أن يسمع الملك محاورتكما.

وقال ابن المقفع: "إني علمت موطناً واحداً، فإن قدرت أن تستقبل الجد بالهزل فيه أصبت الرأي وظهرت على الأقران، وذلك أن يتوردك متورد بالقسة[26] والغضب، فتجيبه إجابة الهازل المداعب برحب من الذرع، وطلاقة من الوجه، وثبات من المنطق".

([26]) قارص الكلام.

هذه المرتبة من التسامح لا تنال إلا بتوفيق من الله، وتوطين النفس على المكاره، واحتمال أذى الناس، والترفع عن نقائصهم، كما يترفع السبع في قفصه عن النظر إلى من يحصبه، وما أحراه أن يلتمس المعاذير المسيئين بأنهم ليسوا من المكانة بالدرجة التي يعتد بها، أو بأنهم أساءوا من غير قصد ولا إرادة، أو بأنهم قصدوا الإساءة ليتعرفوا مقدار ما يسديه المحسن من المغفرة فيكفروا عن ذنوبهم، ويرجعوا باللائمة على نفوسهم. وقد اتسع لهذه الأحوال صدر هذه الآية الكريمة: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.

نعم لا يليق بنا أن نجبن أمام إساءة المسيئين لئلا يستهتروا بنا ويزيدونا بلاء. وإننا لو أنصفنا أنفسنا لأسعفنا المسيء بحلم نداوي به خرقه لعله يكبر النعمة، ويشكر الصنيعة، ويزنها بميزان عقله. حتى إذا رأينا فيه نزوعاً إلى الشر علمنا أننا غرسنا المعروف في أرض قاحلة فنستبدل بالإحسان. عقوبة الحرمان.

ويكون كظم الغيظ بالتجلد والتسلي، أما التجلد فهو نهاية ما تبلغه نفس الحليم من الصبر، وهو مفتاح الهوادة والأناة. وأبلغ ما نستشهد به في هذا المقام ما حكاه المويلحي أن وزيراً أراد أن ينصح الملك باجتناب الخمر لأنه يخذل النفوس في مواطن الإصابة، فلم يرتح ضمير الملك إلى هذه النصيحة التي أثارت في صدره نار الغيظ فهم بالانتقام: أمر بالأقداح فمدت، وأخذ يحسو الشراب حتى امتلأ، ثم أمر بابن الوزير فأجلسه على مرمى سهم، وقال لأبيه سأريك إذا كان للخمر تأثير في قواي العقلية؛ وهنا رمي السهم عن القوس فأصابه في قلبه إصابة أسقطته على الأرض صريعاً مضرجاً بدمه. رأي الوزير هذا المنظر الفظيع فتجلد، وقال الملك: فعلك هذا – أيها الملك – قد بلغ من الإصابة حداً لا يستطيع إله الصيد والقنص أن يدركه.

فقدر شأن هذا الحلم السديد، والنظر البعيد، في أشد ساعات المحن، وأفتك خاطرات الرزايا، ولو بدرت منه إذ ذاك فلتة من كلامه أو حركات أعضائه لكان هو وأهل بيته وقوداً للظى غيظ الملك.

ومن مخففات الألم المثير للغيظ استذكار حوادث الماضين ملوكاً كانوا أو أمراء، والمصيبة إذا عمت هانت. فكم سمعنا عن ملوك أصبحوا من الرعايا، وأمراء أذاقهم الأيام مرارة البلايا. وحيثما كان الإنسان عرضة للنوب والغير فما أحقه إذا حم القضاء أن يستسلم لحكمه، ويذر الغضب بفائق حزمه. وليس في الشكاية من بلاء سوى أنها تفتح للشامتين أبواب المهانة والازدراء.

هل للغاضب أن ينظر إلى وجهه في المرآة وقت الغضب؟ إذا فعل ذلك وجد وجهه الذي كان يقطر ماء البشر منه قد تلبدت به غيوم الكآبة، فصار قاطباً عابساً كالحاً مكفهرا، ومن ذرائع كظم الغيظ اجتناب الحسد. والحاسد يتطلع دائماً إلى نعم الله على عباده ولا يهنأ له حال. هلا علم أن الرزق مقسوم، بقدر معلوم. يحق له أن يفرح إذا رأى مظهر النعمة في أخيه فيتسنى له أن يقتبس منه العلم والجاه والقوة. وقد أشفق أبو الحسن التهامي على حساده بقوله:—

إني لأرحم حاسدي لشر ما ضمت صدورهم من الأوغار
نظروا صنيع الله في فعيونهم في جنة وقلوبهم في نار
لا ذنب لي قد رمت كتم فضائلي فكأنما برقعت وجه نهار
وسترتها بتواضعي فتطلعت أعناقهما تعلو على الأستار

والمرضى وأصحاب المطامع عرضة لبلايا الغضب، فليخفف الإنسان على نفسه وقع المرض وثقل المطامع.

مالي أراني إذا ما رمت مرتبة فنلتها طمحت نفسي إلى رتب

وكثيراً ما يفشل وهو يطالب الأمر الواحد، فكيف به إذا تشبعت المطالب وخرج من الجميع صفر اليدين؟

وإذا ساورتك هموم الغضب فأخلد إلى السكون، لأن الحركة تحدث الحرارة وهي تثير الغضب. وفي الحديث "إذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل، فإن النار لا يطفئها إلا الماء". عليك أن تتعهد بدنك بالنظافة، وجسمك بالتنزه، وأحشاءك بالرعاية، وعقلك بالراحة. وعليك أن تزيل عن صدرك صدأ الهموم بترتيل الشعر، وسماع الألحان، وإدمان النظر إلى بدائع الكون، والسير في الرياض وبين الأزاهر. وعليك أن تركن إلى مجالسة العلماء ومحادثتهم، فإنهما لحر الغضب برد وسلام.

المعلم والغضب

علمت أن الذهن ساعة الغضب يختل مزاجه ولا يعود قادراً على أن يجول جولة صادقة في تربية النشء، وقد يثور لأقل الأسباب ويبطش، ويذهب في ميدان التعذيب مذاهب شتى، ولذلك اشترطوا في المعلم أن يكون من الحليم والأناة والهوادة وترقب المصلحة بحيث يتمالك نفسه ويصدها عن الغضب إذا قصر التلميذ في واجبه العلمي والأدبي. وأجدر بالمعلم أن ينقب عن أسباب هذا الإهمال لعله يكون قد فرط في بيان الدرس، أو جاوز حداً لا يستطيع ذهن الطفل تمثيله واندماجه في سلك معلوماته. نعم إن التلميذ إذا أوجس خيفة من صارم العقاب يخمد فكره ويقف عند فهم أسهل المسائل، وربما داهن أو راءى وقلبه مملوء بالكراهة، فينبهم على المعلم مسلك الصواب، ولا يقدر على درس أطوار الطفل من خلال حركاته، على أن الغضب – مهما كان قليلاً – يجر إلى عواقب بينها وبين التأديب بون بعيد. ويحسن بي هنا أن أورد أمثلة تؤيد ذلك.

– غفل طفل عن حفظ درسه فأوقعه المعلم تحت طائلة العقاب، وضربه بمسطرة ضربة مبرحة فرح يده؛ شق ذلك على المعلم فاستعان بغيره على تضميد الجرح وتخفيف لوعة الألم، ولما اطلع والد الطفل على ما حصل استفظع العقوبة، وشفى غليله من المعلم بشكايته. فانظر كيف أدى الغضب بالمعلم إلى الخرق في الرأي ومضاعفة العذاب، "ومعظم النار من مستصغر الشرر".

– خرج طالب عن حد الأدب أثناء الدرس فهاج سخط المعلم، ولعله أسرف في العقوبة وكاشف التلاميذ بأمرها، بيد أن الناظر استعظم العقوبة واستبدل بها التأنيب إحقاقاً للحق، فتزعزع بعد ذلك مركز المعلم، ولم تعد عقوباته مرموقة بعين الاحترام.

هذا قليل من كثير لو أراد المنقب أن يبسطه لاتسع به المجال، لأن حوادث الغضاب كالشرر تتصعد من النار المتأججة لا نكاد نحصيها. والتلاميذ أكثر الناس مهارة في المكر، يزنون فطانة المعلم بما يبدونه من أمثال ذلك، فإذا آنسوا منه امتعاضاً وزللاً وانطلاقاً في الغضب استهتروا به، وزادوه هما، ودبروا له المكايد، وألصقوا به التهم. وإذا عرفوا فيه الاقتدار والحكمة هابوه، وامتلأت عيونهم وقلوهم منه مهابة واحتراماً.

(5) غريزة القهر والغلبة

وعند مسيس الحاجة تنزع النفس بطبيعتها إلى المنازعة والمدافعة والمجالدة واللجاجة مبدية ما عندها من قوة تحقق بها الفوز. تأمل القط هنا وإسرافه في البطش بالجرذان يطاردها ويسد عليها المنافذ ويغتالها بمخالبه الحادة وأنيابه المسنونة، وكثيراً ما تقف أمامه مذعورة من هول الموقف فتسهل له سبيل الفوز عليها والفتك بها. والديكة يهارش بعضها بعضاً، والخرفان تتناطح، والديك الرومي يهاجم لابس اللون الأحمر القاني، وربما كان هذا اللون رمزاً للحرب في نظره.

والإنسان بطش بقوته البدنية وبما عنده من قوة العقل والتدبير، فيخترع العدد والأسلحة ويصيد ما شاء من ضواري الحيوان وكواسر الطير ولو بعيدة عنه، وإذا تجرد من إنسانيته جرد سيفه على أخيه، وبطش به، وأنذر بشر مستطير، وهدد سلامة العالم. ومن أجله قالت الملائكة لبارئ جل وعلا: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء". واختال بقوته فخدعته وحالت بينه وبين الحق، فقديماً اعتدى أحد أبناء آدم على أخيه {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}. ومن ممارسته لقوته واعتماده عليها في أطوار حياته وعدم اكتراثه لتحري سبل الحق تسربت بالوراثة منه إلى ذريته، فبدت في البدوي والحضري وفي العالم والجاهل وفي كريم النفس ولئيمها "والكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع".

على الفروسية وحدها معول البدوي، فيما ينصب نفسه زعيماً على قومه، ويبذأ قرانه في حومة الوغى، ويصول على من يغمط حقه، و ينازل من يمس كرامة عشيرته ومن يلوذ به، ويبلى البلاء الحسن في المحافظة على شرفه، حتى أصبح الأخذ بالثأر من أقصى أمانيه. بذلك مجده الناس وكرموه وتماجدوا[27] به، وأحلوه سويداء قلوبهم، وأكبروا قدره وتنافسوا في الانتماء إليه بالقرابة والمصاهرة، وعاونوه على تنفيذ أغراضه، وجادوا له بنفوسهم لاعتقادهم أن وصمة العار لا يزيلها إلا الأخذ بالثار كما تزيل النار خبث المعادن.

([27]) تفاخروا وأظهروا مجدهم.

أما سكان المدن فشغلتهم حضارتهم ورفاهتهم عن المصارعة البدنية، وعدوا عمرهم أغلى من أن يقامروا به، فأنابوا عنهم حكومة يقظة مسلحة، وكلفوها الذود عنهم في الوقت العصيب، واستعانوا بها على حماية حقوقهم، ثم وجهوا قوتهم إلى تذليل القوى الطبيعة واستخدامها لتشييد قواعد العمران وترقية شئون الجماعات. بذلك استعاضوا عن خشونة البدوي دماثة الطبع وزينوا بها مجتمعاتهم، ورفعوا شأن من تحلى بها فصارت غريزة من طول ممارستها. ولا تكاد ترى عند أحدهم من الجراءة البدنية ما تراه في البدوي؛ بيد أن طبيعتهم الأصلية لا تزال تتغلب عليهم فيتحينون الفرص للإفلات من وطأة القانون، ويتخذون من أسنة ألسنتهم وقواطع حججهم ما هو أشد بأساً من الحسام. وإذا أعيتهم وسائل الإقناع واستمروا على تعصبهم لرأيهم خرجوا من حظيرة المجادلة إلى المشادة، فهددوا وأوعدوا. قال المتنبي في هذا المعنى وأجاد:

إمـا أنـفـس الأنـيـس ســـبـاع يـتـفـارســـن جـهـرة واغـتـيـالا
من أطاق التماس شـــيء غلابا واغتصـــابا لم يلتمســـه ســؤالا
كـل غـاد لحـاجـة يـتـمـنى أن يكون الغضـــنفر الرئبـالا

ومن دلائل تمجيد الناس للقوة البدنية إكبار لأبطال الحروب، ولا تجد أشد من المبارزة وسيلة لاحتدام الخواطر وجيشان القلوب وإضرام نار الحرب، يبرز من الجيشين بطلان للمشادة والمغاضبة، ثم ينتصر الفريقان كل لصاحبه ظالماً كان أو مظلوماً.

وربما كانت المبارزة آخر سهم في كنانة المتحاربين، ومفزع زعمائهم حقناً لدماء المستميتين. فقد دارت رحى الحرب بين على ومعاوية بيعت فيها النفوس بالثمن البخس، وخشي المسلمون اتساع نطاق الفتنة، فتقدم على إلى معاوية وقال له: "علام يقتتل الناس هلم إلى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور" وهذا مما امتاز به على من ضروب الحكمة. ومن غاب عمله هواه، وقلب العداوة صداقة، والمكافحة مصالحة، والحرب سلماً، كان أولى بالإعجاب وأحق بالإكبار، ومثل على من يجود بحياته لتقليم أظفار الفتنة.

وإلى عهد قريب كانت المبارزة مرجع المتنازعين يلجئون إليها للفصل في أمورهم، والمتفرجون يتهافتون على ميدانها، هاتفين مصفقين لمن يحرز الفوز، وهو يعد صاحب الحق في نظره ولو كان فيه دعيا. ولكي لا يتفاقم الشر يقف الأطباء من ورائهم لتضميد الجروح وإسعاف المصاب، ومتى شهد له الحاضرون بالفخر برد دمه الثائر، وانثنى إلى المهزوم عاطفاً عليه متقدماً إليه بوجه باش وصدر رحب، ويده ممدودة للمصافحة إذاناً بأن صلة الود قد عادت، وأوضار الضغينة قد التهبت واحترقت. والناس تلقاء هذه الغريزة صنفان: صنف بالغ في قهر غيره استرسالاً منه في مطالب هذه الغريزة، ومنهم قدامى الإغريق ومن جرى على شاكلتهم فقد اتخذوا للحرب إلهاً، وبلغ استهتارهم بالضعفاء حداً ممقوتاً، ذلك أنهم كانوا يرمون الطفل من حالق.

متى تسرب إليه المرض الذي يشل أعضاءه فيصبح مغلوباً على أمره، كلا على أهله وعشيرته، عائشاً في بوائق الذل، منذراً بذرية سقيمة، والحياة تتطلب الجهاد الدائم لمصارعة الشدائد والنوازل، وما لم تتحقق في الإنسان بشائر القوة فالموت خير منها. بهذا و بغيره ضل أتباع هذا المذهب وغلبوا اليأس على الرجاء، وجردوا قلوبهم من حلية الرأفة وهي أكبر مزايا الإنسان. ينصبون الفخاخ للضعفاء، ومتى صادوهم ارتكبوا مهم الفظائع وأذاقوهم مر العذاب، وكلما سمعوا منهم تأوهاً استخف بهم الطرب فازدادوا سرورا، وهؤلاء هم المردة الجبابرة السفاكون لدماء الأبرياء. وصنف آخر استعانوا بالقوة لتخفيف ويلات الإنسانية يجودون بمالهم وعمرهم، ويتجاوزون عن حقهم في القصاص وما العفو إلا عند المقدرة. فهؤلاء قد شايعوا دين الفطرة في أسمى مبادئه المبسوطة في هذه الآية: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}.

ثم كانت الرحمة المطلقة شعار فريق من الهنود حرموا ذبح الحيوان استفظاعاً لتعذيبه، واستنكاراً للنزول إلى مستوى الحيوان، ومن هؤلاء أبو العلاء المعري عاش نباتياً، ومن شدة تمسكه بمبدئه امتنع عن أكل اللحم حتى في وقت الحاجة، فقد روى أنه مد يده يوماً إلى طعام وصفه الطبيب فوجده دجاجة، فامتنع عن الطعام وخاطبها بقوله "استضعفوك فتتلوك ملا قتلوا شبلاً".

ومن يتفقد حالنا الاجتماعية ير أغرار الأقوياء يهزءون جهاراً بالضعفة، ويناوئونهم، ويستحلون أموالهم، منتحلين الأسباب التي تخولهم ارتكاب الظلم، وهي ديدن أهل النقيصة والإثم. وربما أبدوا مذهب الاشتراكية فيقولون: ما بالنا نرى الناس متفاوتين في اليسار، وأخلق بالأقوياء أن يكونوا به ممتازين. وربما استبدوا فاعتقدوا أن الناس فطروا على الظلم، واحترموا الظالمين ترويجاً لمذهب زهير ابن أبي سلمى "ومن لا يظلم الناس يظلم"، وربما تمثلوا بقول الإباحيين:

من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور

أما القوة الغاشمة فهي عارية مستردة، يذهب بزوالها فضل المستندين إليها؛ ولنور الحق ضياء لامع، ولشدته هيبة تخرا لها جباه الجبارة، فإذا ما برق امتدت له أعناق البائسين، وساروا بهدية مسترشدين. إن رفع العقيرة بالحق من دون الاستنصار بالقوة لا يجدي، لأن صوته وحده فاتر، وسلاح القوة وحده قاهر. وقسطاس العدل لا ينصب إلا بتناصرهما وتوازرهما. ومن جاهد في الحياة بدونهما معاً فلا محيص من انهزامه. وكما تكون القوة بالسلاح تكون باجتماع القلوب ومعاضدة الأيدي وطهارة النفوس من أوضار الحقد. عند ذلك يستند كل إلى صاحبه كما تستند الصخرة إلى الصخرة، فيكون منهما بناء راسخ يكافح الحدثان على مر الزمان.

الأمم كالأفراد تثيرها القوة، فتلهو عن الحق وتستهتر بالضعيف، وتريد أن تحافظ على عظمتها فتشيد الحصون وتعبئ الجنود، وإذا سئلت ماذا تقصد من وراء هذا، أجابت بأن الاستعداد للحرب من ذرائع السلم، ثم تخونها عقيدتها المتكلفة فتتنصل بسفساف الأمور لتسوغ إصلاء نار الحرب، فتندفع إليها اندفاع السهم إلى الرمية. ذلك لأن طبيعة القهر كمينه في النفوس تظهرها القوة ويخفيها الضعف. والسنن الكونية لا تدافع ولا تعارض، وليس للكائنات منها مهرب، والحرب من لوازم الحياة تقتضيها سنة تنازع البقاء. وربما تهادنت عناصرها زمناً ولكنها تعود إلى الخصام، فهدنتها على دخن[28]. إليك الصخر الأصم تخرج ناره بقدح الزناد، والأشجار الكثيفة في الأحراج تحركها الرياح فتحتك فروعها بعضها ببعض وتشتعل، وقد جاء المثل "في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار[29]".

([28]) صلح على فساد.

([29]) استكثراً من النار. والمرخ والعفار كلاهما شجر الورى.

وجوف الأرض في سعير دائم يندفع ماء البحر إليه، فإذا لمس النار استحال بخاراً تميد من زلزاله الأرض، وتخر من بطشه رواسي الجبال فتتناثر جزراً ووهاداً. وقد يخرج البخار من شق أرضي جاذباً معه مذوب المعادن والأحجار فتتراكم وتحدث الجبال. والماء يتأثر بالشمس فيستحيل بخاراً، يذهب إلى الجو صعداً وينعقد سحاباً، ثم يتكاثف وينزل إلى الأرض ماء. والحيوان يتغلب على النبات والإنسان يسطو على الحيوان، وعلى الإنسان تتغلب عوامل الفناء فيموت، وتمتزج أشلاؤه بالتراب ويصير غذاء للنبات، وهكذا تنتقل الكائنات من حياة إلى موت ومن موت إلى حياة بنظام دقيق لا يعتريه فتور ولا يصادفه خلل.

تثقيف هذه الغريزة

كل شيء في نظر الطفل داخل في حدود الممكنات. فإذا نال ما طلب منها فقد لبى نداء غريزة الملك، وإلا فإنه يغضب فتنه فيه هذه الغريزة ليريح أعضاءه الهائجة بالصياح والعويل والتمريغ على الأرض ولطم وجهه وتمزيق ثيابه، ولا يزال كذلك حتى تخمد ناره، ومن ذا الذي يستطيع كتمان هذا الجموح الذي تنوء بحمله صدور الأقوياء. كالدمع تذرفه العين عند الحزن، واشتداد النوح عند الفادحة، وهذا ما صير النسوة أصبر من الرجال على حمل المصائب، فان جمود العين عند الحزن تخشى عواقبه على الصحة، وقد استذرفت الخنساء دمعها عند ما اشتدت عليها لوعة الحزن بوفاة أخيها فقالت.

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

والإغضاء على بوادر الغضب أخف ضرراً من قمع القوة المتهيجة، والعاقل من يقابلها بالملاينة والملاطفة والباحثة في أسبابها حتى يهدأ الخاطر الثائر. روي أن ابن الراوندي قال:

كم عاقلٍ عاقل أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصـــير العالم النحرير زنديقا

فهاج لسماعهما أحد الحمقى، واستفظع صدورهما من عالم ديني وهم بقتله، فمضى قدماً إلى مصر وقابل ابن الراوندي عرضاً، وكاشفه بجلى الأمر، فرأى ابن الراوندي من الحكمة أن يتنكر، والتمس له عذراً في هذا التعصب الذي هو من بلايا الجهل. عند ذلك أخذ يحاوله في البحث عن ضالته المنشودة، ويحادثه في شئون الحياة للعقدة، ويطلعه على عجائب الخلاق، في قسمة الأرزاق، ويريه العالم بائساً محروماً، والجاهل منعماً قرير العين مخدوماً. وما زال ابن الراوندي به حتى أقنعه بصحة ما سمع فهدأ مزاجه المضطرب.

وللجماعات حماسة يبدونها في المواقف الدينية والوطنية تألماً من شيء تستنكره، فتتهيج أعصابها ويتولاها اليأس، وتسير في السبل هاتفة صارخة. فإذا أرغمها حفاظ الأمن على التزام السكينة اعتقدت أنها صودرت في شعورها، فيزداد ألمها، ويقودها الانفعال النفسي إلى أحرج الواقف. ولا شيء أجدى من مقابلتها باللين والحلم وسماحة الخلق، ولا علاج أنجع للغضبان من تهدئة ثائرة وتطيب خاطره.

والطفل النشيط يؤذيه الفراغ، فيتسلط على أهله، ويكدر عليهم صفاء عيشهم، ويستنزف ما يسلبه من أموالهم. فعلى المؤدب أن يشغل فكره وقت الفسحة والعمل بالمسليات، ليحول ذلك بينه وبين تدبير الفساد.

ونفس العصبيين تجيش عند الحوادث، فتسهل لهم ارتكاب الجناية تصريفاً لقوة القهر فترخص في نظرها الحياة، حتى لقد فشا داء الانتحار يستشفى به المصاب من آلام كظم الغيظ، فيتعاطى السمّ أو يهوى من المرتفعات أو يجني على نفسه بالحرق أو الغرق. والانتحار التدريجي أكثر فتكاً، لأنه استسلام إلى الأهواء التي هي حبائل الشيطان، والمادي يريح أعصاب العاكفين عليها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر.

لو بحثت لعلمت أن الغضب الجامح هو الداء العضال الذي يزحزح العقل عن أطواره و يزعزع أركان الجسم. وعلاجه معاملة الغضبان باللين، وتوصيته بالصبر على احتمال المكاره، وقلما أفادت النصيحة متى توافرت أسباب القوة، ولذلك توجهت عناية المؤدبين إلى توزيع هذه القوة في غير وجوه الضرر. فكروا في ضروب اللعب التي سنبسط الكلام عليها فيما بعد لتوجيه قوة اللاعبين إلى غرض لا يسمح للاعتداء. فكروا في الملاكمة وكسوا جُمع الكف بوسائد مرنة تخفف وقع الضرب بها. وفكروا في المغالبة بالعصى والرماح المغمودة النصول، لتمرين اليد ودفع الخطر. وفكروا في نظام الكشف الذي راج سوقه بين النشء للتدريب على الخشونة والجراءة وعيشة الخلاء، استكثاراً لأسباب الصحة، واستدراراً للخير واجتناباً للشر.

ما أسعد الأمم التي تضافرت أفرادها على مغالبة القوى الطبيعية، فلقد ذللوا تيارات الهواء والماء واستخلصوا منها قوة عنيفة، وجمعوا كثيراً من أشعة الشمس في بؤرة فاستحوذوا على حرارة قوية، وأفتنوا في استخدام الكهربائية والقوة البخارية، ولا يزال الفكر الإنساني يجول في فضاء العالم منقباً عن كنوزه المستورة وقواه الدفينة.

(6) غريزة المحاكاة

لكل حيوان استعداد خاص في المحاكاة، فالقرد يوزعه استعداده أن يحاكى الحركات البدنية، والببغاء تحاكي النطق؛ وبالمحاكاة استعان العلماء فعلموا الطيور المفردة ما شاءوا من النغمات، فوضعوها بحيث ترى صورتها في مرآة، ووضعوا وراء المرآة آلة صداحة، فيخيل إلى الطائر عند عزفها أن طائراً آخر يغني فيهم بمحاكاته. والحمام وقد اعتاد تناول الحب الصغير حتى إنه لم يعد قادراً على ازدراد الحب الكبير ولو أضناه الجوع، يجتمع مع الحمام الذي يتغذى بالحب الكبير فيندفع إلى محاكاته، وهذا سر محاكاة النظير.

إن الإنسان في طوره الأول حاكى الطبيعة والحيوان فيما سمع ورأى وصنع، فسمى طائفة من الأفعال بأصواتها، وقد ورد بين ألفاظ اللغة العربية حفيف الشجر، وخشخشة الثوب الجديد، وقعقعة السلاح، وصلصلة الحديد، وخرير الماء، وصرير القلم، وهرير الكلب، ودق الباب، وطنين الذباب، وكذلك بين ألفاظ اللغة الانجليزية هابل بابل **Hubble - Bubble** للنرجيلة،

وتريك تراك **Trick - Truck** للنرد، وهيكاب **Hiccough** للفواق[30] حاكى المغاور فبنى البيوت، ورأى الزنبار والهدهد يجصصان عشاشهما فطلى بيته بالجص، ورأى الذئب يقع في الغنم فتعلم الصيد، وحاكى الليف فنسج الشباك على منواله، وشاهد الحبة تسقط على الأرض فتنبت وتنمو حتى تصير دوحة، فحاكاها بالزراعة. وحاكى زخارف الطبيعة فنقش على الخشب والحجر ما راقه من النبات والزهر والحيوان والإنسان. وحاكى تغريد البلبل فغنى. وحاكى أخاه الإنسان في الترتيل والشعر والخطابة والملبس والصناعة وهكذا.

المحاكاة والحاجة إليها

يبتدئ الطفل بالمحاكاة وهو في الشهر الرابع من عمره، ويزداد بها غراماً كلما تقدمت به السن، لهيامه بتعرف الموجودات التي يجهلها، وسبيله الواحدة لذلك هي جنوحه لمحاكاة النظراء، ومحاكاة كل ماله تأثير في نفسه. يرى الفرس تعدو فتدفعه غريزة المحاكاة إلى ركوب عصاه. ويرى القطار فيجتمع مع إخوانه ويحاكونه.

---

(30) ريح شخص من الصدر.

وحاستي السمع والإبصار مجال عظيم في المحاكاة، لأنهما ينقلان إلى المخ أثر المحسوسات ذات الوقع الحسن فيحاكيها بصورة طبق الأصل. ومن هذا تعلم ضعف الأوامر المجردة من المحسوسات، إذ الأمور المعنوية تدق محاكاتها على ذهن الأطفال.

واعلم أن ضرورة الاجتماع تلجئ الإنسان إلى اقتفاء أثر سلفه ومعاشريه ومحاكاتهم ليحافظ على العادات القومية، وليتآزر بهم في قضاء مصالحه. كان عمر بن الخطاب ورعاً يحب المتقشفين، استدعى يوماً أبا موسى الأشعري ومن يليه من العمال للمثول في حضرته، فانطلق أحدهم وهو الربيع بن زياد الحارثي إلى مولى عمر، وسأله عما يروج عند عمر وينفق عليه، فأشار إلى خشونة العيش، فمضى ولبس جهة صوف وعمامة دسماء[31] وخفاً مطابقاً، وحضر بين يدي عمر في جملة العمال. فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع إلا عليه، فأدناه وسأله عن حاله، ثم أوصى أبا موسى الأشعري به، وما جاءت هذه الحظوة إلا من رائع تأثير المحاكاة. وقد ورد "الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف"، وفي المثل "لولا الوئام، لهلك الأنام".

([31]) ذات لون مغبر.

وإن أدنى أنواع المحاكاة ما حوفظ به على الأصل بدون تصرف ولا إتقان على النحو الذي يتبعه صناع الفخار في قنا، عادة ألفتها الأم الساذجة ووضعتها موضع الاحترام. زرت مصنعهم يوماً، ولما رأى بعضهم أن الشك داخلني في مقدرتهم الصناعية عمد إلى طين وسألني أن أقترح شيئاً يصنعه، ثم انبرى فصنع طستاً و إبريقاً يجمعان إلى دقة الصنعة رقة الذوق، ثم أعادها إلى عجين كما كان، ولم يرد أن يدخل على ما ورثه من أسلافه شيئاً خوفاً عليه، كأن بدعة الصناعة من البدع الدينية التي لا يسوغ إدخال التعديل عليها.

وإذا وصفنا المحاكاة بأنها من دعائم الحضارة وجب علينا أن نفسر ذلك بضرورة الاطلاع على المحاكي وبحثه وتمحيص أدلته، لتندفع النفس إلى محاكاته بوازع صادق. والمحاكاة روح توثق الرابطة بين الفرع وأصله، ومن هنا نشأت محبة المحافظة على القديم. وقد تغلو الأمة في احترام قديمها فتقتصر على ما أوصلته إليها الوراثة، وتغض الطرف عن التغيير الذي تدعو إليه الطبيعة وأطوارها، فتكسد بضاعتها، وتبور صناعتها، ويسل عليها الدهر سيف الحرمان، وتبطش بها عوامل الفناء.

ومن أمثلة الجمود والغلو في حي القديم والتحيز لمذهب "ليس في الإمكان أبدع مما كان" ما روى أن أحد الهنود الذين يحرمون قتل الحيوان وأكله، قد باحثه عالم ألماني وأراه بالعيان نقطة من الماء الذي يشربه تحت المنظار، فتخيلها لكبرها غديراً من الماء، قد اكتظ بالهوام السابحة فيه، فلم يقتنع الهندي بما رأى بعينيه، وسخر بقول هذا العالم، وكسر المنظار إصراراً على الباطل وعناداً للحق.

وقال الفرنسي كمبيرى: إن طالباً تعلم في أديار القرون الوسطى وصل إلى سمعه استكشاف كلف معتم في كرة الشمس فدهش وقال: "علم الله لو أنك قرأت بإمعان كتب أرسطو لوجدته وصف الشمس بأنها كوكب لا يعترى نوره ذبول، فما أبعد مسافة الخلف بين هذه الحقيقة ومزاعم المستكشفين! عليهم أن ينظفوا عدسة المنظار من أثر الغبار، ثم ينعموا النظر لعلهم يصرون الحق جلياً. أما إذا أخطأ بصرهم وشاهدوا ما شاهدوه أولاً، فليعلموا أن الكلف الذي رأوه إنما هو سحابة تغشى أعينهم". فما بال طالب العلم في الجيل الثاني عشر من الميلاد قد تمسك بقول أرسطو نابغة القرن الرابع قبل الميلاد،

ولم محفل بتجارب ستة عشر جيلاً ترقى في غضونها العقل الإنساني، وتقدم العلم، وكشفت التجارب عن حقائق كانت مستورة! ما باله نظر إلى المشاهد ومحصها بعقل غيره، وأهمل عقله من النظر، وعاقته الثقة بالمتقدمين عن استجلاء الحقائق، ولو كانت أعيننا تراها، والمراصد الفلكية تساعدها! أليس يدل ذلك على أنه اكتفى من البحث بالمحاكاة العمياء، وقضى على مواهبه، وعطلها من التنقيب.

وللمثال الحسن تأثير رائع في تثقيف الطباع، فالطفل الذي ينشأ بين أبوين فاضلين يحاكيهما، ويقتبس منهما لطيف القول ودقة الذوق وحسن الصنع وكمال البزة؛ وهو بعينه إذا عاشر منحطى الأخلاق سرت إليه روح العدوى من طريق المحاكاة. نعم للقدوة الصالحة تأثير مجيد في النفوس، ألم تر أنها نقلت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من رعاة أغنام، إلى ساسة عظام، رفعوا منار العدل، ونصروا الحق، وأحيوا موات العلم، وفجروا ينابيع الثروة. ومما روى أن جند واشنتون رئيس الممالك المتحدة افتتنوا به، فتفتحت لهم أكمام الفتوح.

ولما قام نذير الحرب بين الممالك المتحدة وفرنسا، استعار خلفه لنفسه اسم واشنتون وجرى على سننه، فسرت في العروق روح الحية والإقدام، وكان النصر حليف جيشه. التنويم المغناطيسي – الاستهواء – يوقظ غريزة المحاكاة من سباتها فيخضع المنوم لإرادة المنوم، ويطيعه بلا شعور، ويحاكيه بلا تبصر؛ وحوادث التحقيق الجنائي برأت شركاء بعض المجرمين، لأنهم كانوا عند اقتراف الجرائم مسلوبي الإرادة.

لا نريد أن يحترف المعلم بمهنة الاستهواء، وإنما نريد أن يكون كبير النفس، حسن الطوية، نافذ الرأي، قدوة في القول والفعل. ولعلك عرفت قيمة الأعرابيين النجديين نابر ودابر. كان نابر صالحاً تقياً، وكان دابر شريراً سمجاً، فسنحت الفرص يوماً لنابر أن يركب جواده وكان عزيزاً لديه، فهو في طريقه على دابر وقد لبس ثياب الضعف والمسكنة، فلما رآه رق لحاله وترجل وطلب إليه أن يركب الجواد.

وعند ما تسلم دابر زمامه – وكانت نفسه تتطلع من قبل إلى استلابه – ساقه مسرعاً، تاركاً مالكه يتفطر فؤاده حزناً على جواده المغصوب، وجميله المسلوب، فناداه نابر "ألا فاقترب مني – أيها الأخ – ولا أريد أن أشق عليك باسترداد جوادي، غير أن عندي لك نصيحة ولا أخالك إلا عاملاً بها، إني أرجو ألا تذكر لأحد ما فعلت معي، خشية أن تشح يد الكرماء، عن بذل العطاء، إذا هم سمعوا هذه الإساءة إزاء فعل الجميل"؛ هنالك صعق دابر من هول جريرته، وندم على ما فرط منه، ورد إلى صاحبه جواده. فما أبلغ تأثير هذا الكريم، في نفس اللئيم!

ولنا من أبي نصر الفارابي مثال حسن يدلنا على ما كان له من روعة التأثير في عقول جلسائه. فقد نبغ في درس اللغات حتى عرف منها أكثر من سبعين لساناً، وزاد فعرف كيف يخلب عقول الناس ويملك زمام عواطفهم بإرادة صادقة وبراعة في إيقاع الألحان الموسيقية. حضر يوماً مجلس سيف الدولة وكان المغنون يعزفون فخطأهم الفارابي، ثم اجترأ وتناول المعزف وركب عيدانه وعزف فضحك الحاضرون جميعهم، ثم ركبها تركيباً آخر وعزف بها فبكوا جميعاً، ثم ركبها تركيباً ثالثاً وعزف فناموا حتى البواب ثم تركهم وانصرف.

ويدلك على حب روسو للطبيعة المجردة من زخارف الصناعة أنه كلف تلميذه أن يحاكيها بالتصوير من دون تنظر إلى المبادئ التي وضعها علماء الفن، وهؤلاء يفضلون البدء بمحاكاة البسيط من الأمور كالخط المستقيم وأوضاعه وأشكاله، حتى إذا تم له ذلك ركب منه ما شاء من بدائع الكون. وأدنى درجات الرسم ما جاء من باب المحاكاة البحتة بحيث لا يسمح للطفل أن يزيد عليه شيئاً، ليختبر جولان نظره، واعتماده بجعل الصورة مطابقة للأصل، واعتماده على تمرين العين على النسب بين بعض الأجزاء وبعضها وبينها وبين الكل وتلي ذلك درجة يراد بها تمرين الحافظة والذاكرة، كأن تعرض الشكل على الطفل، حتى إذا شبعت منه نفسه لفت عنه نظره، وانطلق يجمع في رسمه ما عسى أن يكون وضعه وشكله، وهذه الدرجة تختلف باختلاف قدرة ملاحظته على ضبط المرئيات.

في ليلة عاشوراء اعتاد الشيعة أن يحتفلوا بموكب لهم في مصر حداداً على وفاة الحسين بن على. وفي أثناء مروري شاهدت رجلاً يجول بين المارة شاخص العينين، مستطلعاً حركات الواقفين وأزياءهم، مترقباً أوضاع المشاعل التي يسير القوم في ضوئها، وإذا هو مصور توجهت نفسه إلى درس عناصر هذا المشهد، ليفرغه في قالب الرسم من حافظته.

وفوق هذه الدرجة مرتبة من أحرزها فقد برع وعد من كبار المصورين، وعماد هذه المرتبة على قدرة الخيال على تصوير المعاني وإلباسها ثوباً حسياً يوحي إلى الذوق اختيار ما يكون له حسن الوقع وعميق الأثر، فتراه يقرأ الحادثة التاريخية، ثم يرقمها على القرطاس برسم يشف عن معانيها، ويجمع من رموزها طرفاً لا يستعصى على اللبيب فهمها. يستطيع الرسام والحفار تصوير المعاني الحقيقية والخيالية كما يستطيع الكاتب أن يصورها، غير أن الأولين يمتازان بأن لغتهما يفهمها الناس على السواء. ومن بارع الخيال الذي ينم عن الحقيقة أن نائماً صحا في باكورة يوم صافي الأديم عليل النسيم، فاختار لهذا المعنى تمثالاً نقشه على صورة صبي غائص في نوم عميق. وابتكر مصور مشهداً للبؤس فتخيل قافلة تسير في البيداء وقد اشتد المرض برجل منها فتخلف عنها. غير أن رفقاءه قبل أن يتركوه قيدوا جمله بجواره، فلم يلبث الرجل أن مات، أما الجمل فقد تقطعت أحشاؤه من ألم الجوع والعطش واشتداد الحر، وأقبلت إليه ضواري الوحش وكواسر الطير وصارت تتدانى منه كل لحظت فيه الضعف، والجمل المسكين ينظر إليها نظرة الخائف،

ويستسلم لبطشها استسلام الضيف، تذوب نفسه حسرات عند ما يلوي رقبته ليراقبها ولا يستطيع دفع الشر. كان تيمورلنك أعور أعرج، وكلما رأى صورته على حقيقتها استشاط غيظاً وأوقع الأذى براسمها، فرسمه مصور متهيئا للصيد، جالساً على إحدى ركبتيه، مصوباً بندقيته، ناظراً إلى الهدف بعين واحدة، فكانت براعته في اختيار هذه الفرصة من دواعي استحسان الصورة بوضعها الحقيقي.

وقد طالب معلم الإنشاء أن يحاكي الطفل النماذج الأدبية بين منثور ومنظوم، يحفظها ويستذكرها ويرتلها ويمثلها محاكياً واضعها؛ ثم ينتقل به درجة فيطالبه بمحاكاة معناها متصرفاً في ألفاظها وتراكيبها بنثر منظومها أو نظم منثورها. ومن مباشرة هذه المعاني وإبداء القدرة على أدائها والتصرف فيها على النهج الذي يرتضيه البلغاء ولا ينفر منه الأدباء، يحصل للخاطر لقاح، وتتربى عنده ملكة الإنشاء، وبها يسترسل في الأغراض، وتأتي إليه المعاني متدفقة بدون تكلف.

والغيور على نشر اللغة العربية يذيع استعمال المفردات الفصيحة، والأساليب الصحيحة، بطرق المحاكاة اللفظية والكتابية، وبعض الناس أقدر من بعض على ولوج سبل التأثير؛ وليس بعجيب أن يتهيأ لأحدهم أسلوب دون أسلوب فلان مع كثرة ما يحاول من محاكاته، لأنه يحمل بين جنبيه سر هذا الإخفاق. والإنسان بعد الإمعان يستطيع أن يستوضح أوصاف الكاتب من أسلوب كتابته، حتى لقد بلغ الحد عند بعضهم من شدة حذقه واتساع نطاق اطلاعه أن يميز أسلوب الكتب المخرومة ويعزوها لمؤلفيها ولا يكاد يخطئ.

متى تحصل المحاكاة؟

إن الجذل والسرور من الشيء يدفعان النفس إلى محاكاته، ومتى وصلت صورته إلى العقل نهض للموازنة بين النموذج وما تؤديه الأعضاء، والتمرين كفيل باستيفاء ما بينهما من الشبه.

وقد يكون وازع المحاكاة محض الاحترام، إذا بلغ النموذج من الكمال مرتبة الملوك والقواد العظام، يفهمان هذا فيطرقان سبل الإصلاح متخذين من قوة المحاكاة عضداً قوياً. وسنداً عظيماً قيل إنه جاء الملكة الكسندرة (ملكة الانجليز) وفد من الفلاحين يستغيثون من ضرر دويبة تختفي في الأرض، وتغذى بجذور النبات فيذبل. هنالك أمرت الملكة بصنع معطف لها من فرو هذه الدويبة وما رأته الأوانس دثاراً للملكة حتى تنافسن في لبسه، وتنافس الصيادون في صيده، وكانت محاكاتهن للملكة سبباً لقطع دابر هذا الحيوان؛ وذوق الملكة على كل حال. هو نموذج الجمال بدون جدال، والناس لتعلقهم بالعظماء يحتذونهم في اللبس والسير والحديث والكتابة.

وللمعلم الكفء في نفس تلاميذه هذه المنزلة، يحاكونه في كل عمل يفعله لاعتقادهم أنه لا يختار إلا الأصلح؛ إذن يحق له أن يتجنب الشبهات التي ربما أولها المتساهلون، وحاكوه فيها فيضلون. تأمل تحرز سقراط قبيل تنفيذ حكم الإعدام فيه، وقد أبى قبول نصيحة صديق له بالهرب من السجن، والنجاة بحياته إلى حيث يعيش عيشة سعيدة. نفر من هذه النصيحة خوفاً على سمعته أن تشوها معرة الفرار من وجه القضاء، وكراهة أن يتأولها أتباعه من بعده فيسوغون الهرب لأنفسهم ويحكمون به، ويفتحون على الأمة من طريق المحاكاة باب الضلال والشرود.

رأى بعضهم أن المحاكاة يشتد وازعها إذا أسن المعلم وزادته الأيام خبرة بالأمور، وعرك الدهر في حالي لينه وصلابته، واتسع عنده أفق العلم الصحيح، وفهم الطبع البشرى في أطوار الحياة من الشبيبة إلى الكبر حتى صار أصح رأياً، وأكثر عطفاً، وأقوى حجة، وأرسخ في العلم قدماً، وأمضى في التجارب عزماً، هؤلاء يعتقدون أن الآباء غالباً يزلون عند تعليم أبنائهم بأنفسهم، لما اشتمل عليه وجدان الوالد من الحنو،

ومطالب التعليم تستدعى الجفاء أحياناً؛ أو للتسامح الذي يتوقعه الولد متى قصر في أداء الواجب وخرج به العصيان عن الجادة؛ أو لأن فرط محبة الوالد لولده توزعه أن يركب معه متن الشطط، ويكلفه ما لا يطيق غيرة عليه؛ أو لأن الوالد لا يجرؤ أحد أن يتطاول عليه مستعيناً بالقانون في الإضرار به إذا هو أفرط في عقاب ابنه.

ورأى آخرون أن صغار السن من المعلمين أنفذ حكماً، وأقوى في الطفل أثراً، وأملاك لزمام إرادته، وأكثر معرفة بميول النشء لقرب العهد بهم؛ فإذا انصرفت همتهم لدرسها كان نصيبهم منها أبلغ من نصيب الكهول، وأغناهم ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التي يمتاز بها المعمرون؛ وأن مهمة التعليم في الطور الأول ينبغي أن يسلم زمامها إلى النساء لما عندهن من العطف والصبر والقدرة على فهم أساليب الطفل وتيسير التنزل إلى أفقه.

يطرد هذا في أنثى الحيوان، فالدجاجة تلاحظ أفراخها وتلقنها الإرشادات بقوقائها، والعصفورة تعلم صغارها الطيران بعد تكامل ريشهن فتخرجهن من العش، وتطير أمامهن وتستحثهن على محاكاتها، حتى إذا قعد بين الخوف عن ذلك خففت لوعتهن وحرضهن على الطاعة بالزقزقة أو النقر.

وللتلاميذ بعضهم في بعض تأثير لا يستهان به، فطن إليه أرنولد(32) في الجيل الماضي فقرر أن كبار التلاميذ يدرسون في باكورة النهار نصيبهم من نظريات العلم، ثم يتولون بعد ذلك تعليم الصغار من إخوانهم تطبيقاً للعلم على العمل. وسواء ألاحظ التأثير البليغ أم الاقتصاد في الإنفاق فإن طريقته وجدت من النفوس مكاناً، وسعى المربون جهدهم في تقليل معايبها.

(32) توماس أرنولد Arnold توفي سنة 1842 كان ناظر مدرسة ثانوية في إنجلترا أدخل فيها ما شاء من النظام حتى ذاع صيتها. وأشتهر طلابها بالرسوخ في الأدب وحرية الفكر في المسائل الدينية والسياسية.

حدثني ناظر مدرسة أنه كان يباشر تعليم ابنه لصغر سنه، وكان به شفيقاً متسامحاً، ولفرط رحمته إياه كان ينتصر له إذا نازع غيره، ويميل إلى جانبه تنشيطاً له؛ فأطمعته هذه الرأفة في الأذى والعبث بالحقوق. رافقه مرة – وقد توجه والده إلى صفوف التلاميذ الواقفين في ساحة المدرسة – فرأى منظراً عجيباً، رآهم عند ما شخصوا إلى والده هدءوا وخشعوا، ورفعوا أيديهم إلى الرءوس احتراماً له، وتجلت فيهم الطاعة بأجلى مظاهرها، رأى الطفل هذا كله، وأخذت المحاكاة تجري مجراها، وما لبث إلا قليلا حتى تغيرت أطواره مع أبيه، وصار من الأخلاق على جانب عظيم، وهذه ثمار تأثير الشيء في نظيره. "إن الحديد بالحديد يفلح"

(7) غريزة المباراة

يهوى الحيوان والإنسان مباراة الأقران للفوز عليهم، ولا يعتد بما يعانيه من المشاق في سبيلها. فالدابة تسير وحدها وتجهدها المسافة القصيرة، حتى إذا سارت غيرها من الدواب تحملت ما لا طاقة لها به من الجهد ونسيت آلامه رغبة في المباراة. بيد أن أصائل الجياد لا هم لها إلا أن تنطلق كالسهم إلى الرمية سواء أسارت وحدها أم سايرت غيرها، كأنها تجرد من شخصها مناظراً تباريه على سبيل الخيال. قال المعري:

ولما لم يسابقهن شيء من الحيوان سابقن الظلالا

والطفل كثيراً ما يتفق مع إخوانه على المباراة عدواً في ساحة المدرسة، ثم ينسى حدود قدرته على الجري، ويصرف قوته كلها في مبدأ الشوط، فيفتر نشاطه وتخور قواه قبل الوصول إلى قصب السبق "إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى". وقد تخونه نفسه فتنزله في ميدان المباراة قبل موازنة قوته بقوة نظرائه.

وإن من حـارب من لا يقوى لحـربـه جـر إلـيـه الـبـلـوى

وكم ينهض الإنسان وحده لإدراك أمنية تموج في صدره ويئوب منها بصفقة المغبون، فلا يحزن على فشله حزنه إذا بارى غيره وفشل في إدراك غرضه.

الحاجة إلى المباراة

أصبحت التنافسية أساساً لجلال الأعمال، ومفتاحاً لأبواب المعالي، ولا يكاد يخلو منها ميدان. تطرح المسائل على بساط البحث فيتبارى في حلها الأكفاء، يقيم أحدهم الحجة على دعواه، وينقضه الآخر بالدليل، ولا يزالون في أخذ ورد وجهاد وجلاد، حتى تنجلي عن سماء الحقيقة غيوم الشبه. يقرأ الناقدون المؤلف وينعمون النظر في قضاياه، و يسبرون غور علاقتها بالحقائق، ولا ينتهون منه حتى يكونوا قد قتلوها بحثاً وتمحيصاً، وميزوا صوابها من خطا "والحقيقة بنت البحث". والمصانع تتبارى في إجادة السلع وتخفيض أثمانها فيزداد المبدعون بيعاً والمعجبون بها شراء، كأن الهمم مخبوءة في الصدور تظهرها المباراة وتشحذها المشاركة. ولهذا رجحت كفة التعلم في المدارس عليها في المنازل.

آراء المربين في غريزة المباراة

(1) حتم اليسوعيون استعمال المباراة لما فيها من تقويم معوج الفطرة، وضربوا صفحاً عما تجره من عوامل الحقد، وقطع أواصر الإخاء. وغلوا فأباحوا من أجلها التجسس وجعلوه داخلاً في مضمون المباراة، لأن التلاميذ أعرف من غيرهم بما يفشو بينهم من الرذائل، فإذا تسابقوا في إظهارها للمعلمين تسنى لأولي الشأن أن يعالجوها. وقد شددوا النكير في العقاب البدني تشنيعاً للخطيئة، حتى كان لهم في المدرسة جلاد لإنقاذ العقوبة.

(2) ورأى الأمريكيون نقيض ما قرر اليسوعيون، وعارضوا مذهبهم مصرحين بأن الفطرة خير محض على النهج الذي شرحناه في هذا الكتاب. رأوا أن المباراة تنطوي على رذيلة الأثرة وعلى بعض القرناء، وليس بين المتنافسين والمتحاسدين إلا حجاب رقيق. يعرف هذا من قصر به السعي عن الفوز في ميدان المسابقة، فإنه يحمل في نفسه الضغينة لمنافسه، ويود لو تبطش به المكاره ليخلو له الجو، معتقداً أن الغاية تبرر الوساطة.

وقد بلغت كراهتهم فيها أن جردوا منها نظام المدارس، فتمنعوا الدرجات وتقدير المكافآت، وقرروا من مذهب الاشتراكية: أن الناس كلهم سواسية.

قد اتبع مذهبهم هذا أحرار المصريين إذ نادوا بإلغاء الرتب والأوسمة فقد قال زعيمهم[33]: "كفى الناس أن يكونوا مختلفين في الصور الطبيعية والمواهب المعنوية، فليس من حسن تدبير الأمم أن نزيد هذا الخلاف بأيدينا، ونوسع دائرة الفروق فيما بيننا. إنها (الحكومات الملكية) تفرق بين الناس في معنى الشرف، مع أنه يكفي في أن يكون الإنسان شريفاً ألا يكون قد ارتكب فاحشة مبينة. تأتي هذه الحكومات إلى الشرف الذي هو أظهر معنى استوى الناس فيه، فتجعله طبقات لا لعلة ظاهرة، ولكن لمجرد الجاذبية، كأنها تعمل على التفريق بين المتشابهين، فتعطي زيداً رتبة تكبر بها اسمه ونفسه؛ وتعطى عمراً نوطاً يزين به صدره، ويعلى قدره؛ وتحرم الثالث كل ذلك. فلا ندري أنشكو الطبيعة في تفضيلها بعضاً على بعض بالخلقة والمواهب والميول؟

[33] أحمد لطفي السيد بك في الجريدة يوم **30** مارس سنة **1911**.

أم نشكو الحكومة لتفضيلها بعضاً على بعض بالألقاب والأنواط؟ أم نشكو الحظ الإنساني الذي جعلنا تحت رحمة الطبيعة مرة، وتحت رحمة الحكومة مرة أخرى؟ كلتاهما تثمر شهواتنا، وتجرنا من جهتنا الضعيفة إلى حيث تفسد علينا أخلاقنا. وتنغص علينا عيشتنا، وتجعلنا دائماً كارهين لهذا الوجود المحبوب."

هذان رأيان إذا أنعمت النظر فيهما تجدها جاوزاً حداً لاعتدال؛ غلا المذهب الأول في جعل المباراة عماد الفضائل، وأفرط الثاني في اعتبار المباراة ذريعة الرذائل؛ والحقيقة أن المباراة ككل شيء لها فضائل ومثالب، فهي إذا أحسنا استعمالها بشير السعادة، وإذا تغلغلنا فيها خرجنا عن الحادة كانت نذير الشقاء وعامل التفريق؛ والعاقل يجعلها كالنار تفيده في الدفء والطبخ إذا أوقدها بمحكمة، وتحدث لهيباً وحريقاً إذا أشعلها ولم يعن بالاحتراس منها؛ أو كحرارة القلب إذا اعتدلت حفظت لجسم الصحة، وإذا زادت صارت حمى تنهك القوى، وتبيد الحياة.

(3) رأى روسو أن المنافسة تمدح وتذم من وجهين: فتمدح لأنها تدفع إلى الجهاد في ميدان الحياة، وتذم لأنها تحدث الجفاء والقطيعة، وتعكر صفاء الولاء بين الإخوان. والفضائل كلها أوساط بين الأطراف.

طرق روسو باب المباراة من وجهين، مع العلم بأنه فضل التعليم الفردي على التعليم المدرسي.

أولاً– حث "إميل" على مباراة المعلم، على شرط أن يتنزل المعلم إلى درجة تزيد قليلاً على الأفق المناسب للتلاميذ، ولهذه الزيادة يستنهضه بالمنافسة في أمر هو داخل في حدود قدرته. وأنت خبير أن المبتدئ يفرح إذا رأى الفرق بينه وبين معلمه يسيراً، وينقبض يأساً، ويزيده الخيال تعساً، إذا رأى معلمه أسبق منه بمراحل؛ ومن نتائج هذا اليأس نفار الذهن من المحاكاة.

عهدنا الطفل يصمت أحياناً عن الإجابة عن سؤال يلقي عليه؛ ولعل هذا قد نشأ من خوفه التعثر في أذيال الخطأ، عارفاً غزير علم معلمه، معتقداً أنه منزه عن الغلطات، كثير الحسنات. فإذا رأى معلمه أخطأ مثله، ثم عاد إلى خطئه فأصلحه، واسترشد برأي العقلاء لرتق الفتق، وتلمس مواضع الصواب، أفتظن أن خوفه يعاوده؟ كلا، بل يظهر فيه مقدار كبير من الإقدام والصراحة والاجتهاد.

وثانياً– حث إميل على أن يوازن بين أعمال يومه وأمسه، متوقعاً أن يكون عمل اليوم أصلح من عمل الأمس، لأنه اليوم أكبر سناً، وأغزر عقلاً، وأشد مرونة وقدرة على تنفيذ الأمور. أفرض أن الطفل رسم صورة ثم ألزمه المعلم الاحتفاظ بها، ووضعها على الجدار، راقماً عليها تاريخ البدء، والتمام، فإنه يرى من مجموع أمثال هذه الصورة عقداً مرتباً على حسب ترتيب أزمنتها، وبالحري مرتباً بحسب الجودة التي يجود بها تقادم الزمن والتمرين والتهذيب. ولا يكاد يطلع عليها صانعها حتى يراها متدرجة في سلم الرقي، متقدمة في طريق البراعة، بعيدة عن مخازي الحقد، وقد سبقه إلى هذا المعنى رجلان: هي أعشى همدان والمعري قال الأول:

رأيتك أمس خير بني لؤى وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وقال الثاني:

ينافس يومي في أمسي تشرفاً وتحسد أسحاري على الأصائل

(**4**) ورأى "كانت" أن أحسن ما تكون المنافسة إذا توجهت عزيمة المتنافسين إلى الغاية دون الوسائل، فالحقد المستر ذل إنما يعترض المنافس وهو سارٍ في طريقه إلى الغاية، فإذا قطع الطريق إليها بعيداً عن الضغينة، ناظراً إلى نور الحقائق الوضاء، فقد حمد السري. وكأني بعقلاء المؤلفين وأهل الابتداع بدون أيديهم لمصالحة من يتقدون أعمالهم ويميزون غثها من سمينها. ونحن إذا سوغنا للناقد تقرير الحق حباً في الحق، فلا نسوغ له التشهير بالزلة والطعن في قائلها، فإنه لا يدري كم عانى من المتاعب في التأليف والابتداع، والعمل الإنساني – مهما بلغ من التدقيق – عرضة للخطأ. {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (**22**) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (**23**) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (**24**) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (**25**) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}

فوائد المباراة

الأمريكيون لم يهتموا بفوائد المباراة للقاعدة الأصولية: "درء المضار مقدم على جلب المنافع، وإلا فأي باب من أبواب الحياة يستغنى عن المباراة؟ نعم إن المباراة فتحت لأهل النقيصة أبواب الخزي، فاستباح الطالب الغش في الامتحان، وراءى في تحصيل العلم، وحشاً عقله بعلوم لاحظ له منها إلا استدراك الفوز على الأقران، حتى إذا انتهى الامتحان طوي صحف العلم، وتناسى قضاياه، وفعل ما ينهى العلم عنه. وكم من مجرمين يتهافتون على النقيصة، ويتبارون في ولوج غمراتها؛ وكم من أغنياء يتنافسون في الإسراف إجابة لمطامعهم السافلة. فالمباراة التي من هذا القبيل ممقوتة بلا نزاع. ومن ينكر أن المباراة حلت في جميع عصور التاريخ محلاً فخماً، وقطعت بالمدنية مراحل بعيدة المدى؟ نرى الأدب العربي مثلاً نهض نهوضاً بديعاً في عصر الدولة العباسية، ونبحث عن السبب فنجد الأدباء تنافسوا في رفع منارة، وفي الحظوة عند الخلفاء الذين كانوا يجلون منزلة الأدب. ونجد الآن في الطيران سار أشواطاً سريعة تجاوز بها أدوار النشوء، ولا نجد سبب ذلك إلا المباراة حباً في الذكر وجزيل الأجر.

كذلك دخلت المباراة مبيعاتنا ومشترياتنا، وفي التأليف ومواضع الابتداع، وفي الغلبة والسيادة؛ فهي روح فياضة تثير الهمم، أصبحت بها الأمم أكثر نشاطاً، وأشد إقداماً، وأجود عملاً. ولم تعدم المعارض ودور التحف نصيبها من المباراة بين الأمم، ورأينا في رحابها – أينما وجدت – فروع العلم وضروب الصناعة كأغصان الكرم مدلاة لمن يقطف ثمارها، معروضة للناظرين من درجة السذاجة إلى قمة الحسن والإبداع، كأنها تنادي الإنسان أن يجول ببصره في آثار السلف على ترتيب وجودها في سلم الارتقاء، لعله يحتذيها ويختط لنفسه مكاناً يناسب زمنه وعقله و بيئته، لتجرى السنة الطبيعية مجراها في الإتقان.

والمجلات والمحافل كذالات ميادين للمباراة يطلع فيها القارئ على ثمرات العقول، ويتعرف سريان نور الحق. وكم رأينا من أناس استحكم فيهم داء الأثرة فخافوا أن يسبقهم غيرهم إذا باراهم، فكتموا العلم في صدورهم وضنوا به عن الإنفاق؛ فهؤلاء إذا انقضت آجالهم ماتوا ودفنت معهم تجاربهم، وحرموا العالم ثمرتها، وأهمل ذكرهم من تاريخ نهضة العلوم.

وكم من أناس تباروا في الإصلاح، واستشاروا الرأي العام على لسان الصحف في حكمة عثروا عليها، أو صنعة ابتدعوها؛ أو أثارة من علم دونوها ودعموها بالتجارب الصحيحة، فذكرها التاريخ مقرونة بالفخر، وردد الخلف صداها مقروناً بالإعجاب، ثم جاءت على أثرهم أمم جعلت خاتمة مطاف سلفها مبدأ لأعمالها، واندفعت في ميدان المباراة بجد وإخلاص، فهؤلاء خليقون بالسيادة وتسخير الأمم لإرادتهم، مؤكدون عرا الرابطة التي أذن الله أن توثق في سبيل التعارف {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}.

المباراة في المدرسة

المباراة من الغرائز التي تستدعي رعاية وضبطاً، وهي كالأرض الخصبة تجود بالخيرات إذا خدمت، وتنبت الحسك إذا أهملت. وجدير بالمتسابقين أن يكونوا من سن متناسبة، وأن تكون رقابة المعلمين عليهم متينة، ليحولوا بينهم وبين الجموح وسوء المعاملة اللذين يحدثان عادة بين المتسابقين. وعليهم أن يجعلوا نصب أعينهم غاية محبوبة كالجوائز يستحثون هممهم على إدراكها، ومتى تذوقوا طعم العلم لم يكن هناك حاجة إليها، بل يكون حب العلم والتوسع فيه رائداً للإكباب عليه.

وللمعاهد عند الأمم الراقية عناية بشأن المكافآت، يوزعونها في حفلات مشهودة يؤمها الآباء ومن يهمهم أمر النشء، وفيها ينتهز المعلمون الفرص فيحادثون الآباء في ميول أبنائهم التي يشاهدونها فهم، ويحثون معهم في تقويمها واختيار ما يناسبها من العلوم والفنون، ويذكرون لهم عجائب الفطرة في تباين القوى. وأحسن من الجائزة المادية كلمة الشكر يسمعها التلميذ من المعلم في حضرة إخوانه، رأيت معلماً أصلح أمالي تلاميذه وقدر درجاتها وأعاد الدفاتر إليهم، ثم سألهم: من نال درجة الفوقان؟ فوقف تلميذان وملامح السرور بادية على وجوهما فأثنى عليهما، ولم يذكر أسماء الضعفاء الذين أهملوا جانبي الصواب والإتقان، واكتفى بتوعدهم إذا عادوا إلى مثل هذا التقصير.

اعتاد معلم في أثناء الدرس الأخير من الأسبوع أن يقف تلاميذه حوله ذات اليمين وذات الشمال، وأمر أحد الجانبين أن يطرح على الجانب الآخر أسئلة من دروس الأسبوع يختارها كما يشاء. ومتى كبا جواد المسئول من الجانب الأيمن، وقدر السائل – وكان من الجانب الأيسر – على الإجابة عنها، كان له أن يحتل مكانه، وكلما انتهى بهم التنافس إلى ترتيب حفظوه إلى الأسبوع الذي يليه.

شاهدتهم بين يدي هذا التنافس يختارون الأسئلة الغامضة ويعودون ألسنتهم التعبير عنها وعن أجوبتها، ويناضلون لإظهار الحق، ويسارعون إلى إحراز الثناء، ويجاهدون في تقوم معوج نفوسهم، نازعين عنها طلاء الغرور والخيلاء كأنهم يقولون:

وحيثما كلنا يرمي إلى غرض　　　فحبذا ناضل منا ومنضول

(8) غريزة الفخر

المحاكاة تتحول إلى مباراة والمباراة تتحول إلى فخر وخيلاء، سجية ظاهرة الأثر في عالم الحيوان والإنسان. فالحصان وهو بمرأى ومسمع حصان آخر ينفخ أنفه، ويحني رقبته، ويرفع ذيله، ويمشي مشية الإعجاب والصلف، ويصهل مشيراً إلى ما كان في صدره من حب الفخر.

والطاووس يدل في مشيته، وينشر ريشه ذا اللون الزاهي مباهياً به، فتجده كالعروس يختال من فرط ما منحته الفطرة من الجمال، ويسمع الناس صوته لعلهم يلتفتون إليه.

يبدو الفخر من الأطفال وهم على وشك المشي، وعندما يستطيعون الإعراب عما يدور بخلدهم، وحيثما يشاهدون ارتياح الناس إلى أفعالهم. سرح نظرك في ميولهم إذا لبسوا قشيب الثياب في حفلات الأفراح والأعياد، تجدهم يتيهون إذا رمقتهم العيون في غدواتهم وروحاتهم، وجل أمانيهم أن يسألوا عن نوعها وثمنها وحسن هندامها، ويسرهم الإطناب في ذكر أوصافها ولا يأنفون من المبالغة. ومتى عادوا إلى منازلهم ولم يجدوا للفخر مجالاً طووها، واكتفوا من اللبس بما يسد الحاجة.

وكما تجد الطفل مطبوعاً على حب الفخر، تجد قلوب الرجال ولاسيما أولى المواهب السامية في الخطابة والشعر والناظرة قد أشربت محبته، وكلمة المديح تبعث في نفوسهم همة وإقداماً وإتقاناً. وقد سمع المصطفى أناساً يطرون شخصاً فقال: "لقد قصمتم ظهر الرجل" ولأنه إذ يسمع المديح لا يتمالك نفسه أن يستزيد من أسبابه، وربما طاش سهم إرادته فأورده موارد الهلاك.

عرف الصحفيون الغربيون طبيعة الأوانس وما ويهوينه من أفانين التجمل والفخر، فلم يصفوا محفلاً إلا جعلوا همهم تفصيل ما أبدعن من اللبس، وما أفرطن من التنسيق. وأهل الترف والبذخ يقيمون المآدب ويصفون عليها أطيب المطاعم والمشارب، ويتأنقون في اللبس والأكل والركوب والسكنى ليجعلوا من ذكرهم أحاديث للناس، ولا يبالون أأنفقوا فيها جميع ثروتهم، أم طوحت بهم طوائح الديون.

قال الله تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} وفي هذا القول إشارة إلى مثوبة من يتجرد من إرادة العلو والفساد معاً، أما العلو وحده الجاري على سننه المشروعة فلم يغمطه أحد مقامه بين درجات الكمال. ولدى نزول الوحي بهذه الآية قال علي بن أبي طالب: "أما الفساد فلا نبغي وأما العلو ففي النفس منه شيء".

ولولا الفخر ما خاض القواد سبل المنايا برباطة جأش، ولا دأب أساطين العلم وفرسان البلاغة في البحث والتنقيب، وهو بغية النفوس، تهجر من أجله اللذائذ وتضحي بكل عزيز في سبيله.

ودائماً تطمح النفس إلى الموازنة بين ما أوتيت من فضل وما ناله الخلطاء والمعاشرون، حتى إذا شفت الموازنة عن شرف حسبها، وعلو مكانها من العزيمة والإرادة، وغزارة ثروتها من المال والولد، تجد شعور الشمم يتولاها، فلا تحيد عن الفخر قيد أنمله. والنفس الكاملة لا تندفع حينئذ في تيار الزهو والغرور، بل تستزيد من محاكاة نماذج الفضائل التي زخرت بها تراجم العظماء، وربما لعبت بها فواعل الغرور فسارت بها في أودية الصلف والكبرياء، فتنحل رابطة الوئام بينها وبين الناس، وتبوء بالخسران.

والفخر بالمحتد معدود عند الأمم عامة من أسمى الأقدار، وكان للعرب حظ وافر منه، ذلك لأن الأصل الشريف ينتقل إلى الذرية بالوراثة كما أسهبت الكلام عنه في باب الوراثة، أو لأن الانتساب في ذاته يهيئ الخلف لاقتفاء أثر السلف الصالح احتفاظاً بسلسلة النسب الشريف. وما أغبى من يفتخر بنسبة المتصل بالأتقياء وهو يشرد عن الصلاح. فعمله حينئذٍ مناقض لشرف الانتماء! قال البحتري مشيراً إلى هذا:

ولســــت أعتـد للفتى شـــرفـاً حتى يرى في فعـالـه حســـبـه

وقد قال المصطفى لنفر من قريش في معرض الفخر بنسبه: "أنا خيركم بيتاً وخيركم والداً"؛ وقال في معرض الفخر بأدبه: "أدبني ربي فأحسن تأديبي"

كذلك افتخر أبو بكر الصديق فقال في خطبته يوم السقيفة: "نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوها، وأمسهم رحماً برسول الله". وكان الحسن ابن علي يفخر بأنه يمت إلى المصطفي بالقرابة، وإلى العمل الصالح بالهمة والإقدام. صعد المنبر يوماً وكان معاوية – أمير المؤمنين – حاضراً فأفاض الحديث فخراً بنسبه. فامتعض منه معاوية وبكته بقوله: "يا حسن قد كنت ترجو أن تكون خليفة" فانتقل الحسن إلى التعريض بمعاوية بدون مبالاة، لعلمه أن جلال نسبه بالمصطفى يعضده ويصد عنه كيد المعتدين.

وكان كعب بن زهير مولعاً بالفخر بجودة شعره، حتى كان إذا أنشد شعراً قال لنفسه: "أحسنت وجاوزت حد الإحسان".

وافتخر سيف الدولة بأنه أغزى الملوك، فقد جمع نفض الغبار الذي يتلبد عليه في غزواته، وصنع منه لبنة، وأوصى أن يوضع خده عليها في لحده، فأنفذوا وصيته. وغلا الاخوص في الفخر بنفسه فقال:

وإذا ســألت عن الكرام وجدتني   كالشـــمس لا تخفى بكل مكان

ولا تكاد تجد إنساناً أنكر صولة الفخر وما له من المكانة الشماء في النفوس، وكُتُب الأدب مكتظة به وتدعو إليه إذا كان حقاً غير منتحل {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}.

تجد الروح السامية لا تكتفي بقيادة الجسم وتسلم زمامه وحده بل تود لو أنها احتلت الأجسام الأخر، وصرفتها على حسب ميولها، وحلت فيها محل التبجيل. ولا يكون ذلك إلا إذا اندمجت مصلحتها في مصلحة النفوس، وتجردت من الأغراض الشخصية البحتة. كان مجرى مسافراً، وبينما كان يطل من نافذة عربة القطار بصر بشخص مشرف على الغرق، فمد يده إلى حبل الخطر فشده ووقف القطار، ثم نزل وذهب مسرعاً إلى الغريق فانتشله وعاد به إلى الشاطئ حياً، ثم عاد فركب. هنالك أكبره الركاب، وصافحوه بيد السرور والإعجاب. إذ لم تحل سرعة القطار، بينه وبين إنقاذ نسمة تلعب بها أيدي الأخطار. فإلى مثل هذا الرجل تنطلق الألسنة بالشكر. وإلى أمثاله ينسب الفخر، أولئك الذين ظفروا من العلم بغاية نبيلة، ومن الصناعة بثمرة جليلة، وتزين صدور التاريخ بمثل هذا المجد الأثيل، والباع الطويل. وما ظنك بعمل صالح يعمله الإنسان يبغى به كشف جهالة، أو إنهاضاً من عثرة، أو إيقاظاً من غفلة؟

نعم قد يكون مصدر الفخر جمال البدن وصحته، وقد يكون بالرياسة وبالكياسة وبالبطش والمال والأولاد، ولو نظر الإنسان إلى عواقب ذلك لعلم أنها عرض زائل، فمصير الجسم إلى الزوال، ومصير الصحة إلى الانحلال، والقوة إلى الضعف، والمال كالمسافر يحل ويرحل. ومن تذكر صروف الدهر وراقب تقلبات الأمور لا يطمئن له قلب، وما هي إلا كلمة القضاء حتى يتغير سعد الإنسان إلى نحوسه، وصعوده في مراتب الدنيا إلى نزوله. فما أشقى من يفتخر بشيء يرقب القضاء عليه في غده! وما الفخر إلا بالعقل الحصيف الذي يرشد الإنسان إلى ضروب الكمال، فهو الذخر والموئل، وهو الدعامة التي تشيد عليها جلائل الأعمال.

وإذا أطلق الإنسان نفسه على سجيتها ما أشفقت على البائس، ولا رحمت لوعة الفقير، بل تتبدل بالإشفاق عليه جموداً، وبالعطف إعراضاً وصدوداً، وبالميل جفاء، وبالحنو غلظة واعتداء. ومن عجب أنك ترى هذا الشخص عينه إذا حشر بين إخوانه يتورط فيخرج عن طبعه ويجود بما يزيد على وسعه إيثاراً للفخر، وكفى به للخيرات وازعاً، وعن الرذائل رادعاً، بهذا يتبرع منافساً جلساءه في مقدار عطائه، وما هي إلا فترة حتى تراه قد انقلب على عقبه فنسى ما أبرمه بالأمس، واستنزل غضب الناس عليه بسحب ما وهبه، وهذا هو ديدن النفوس الصغيرة.

وقد اجترأ أكثر الناس على أن يكيلوا الفخر لأنفسهم جزافاً بدون حق، يلجئون إلى الشعراء يستحثونهم بالعطايا على صوغ عبارات المدح، وما أكثره لمن لا خلاق لهم! وقد مدح ابن نباتة الشاعر فخر الملك – وزير بني بويه – بقوله:

لكـل فتى قرين حين يســمو وفخر الملـك ليس لـه قرين
أنـخ بجنـابـة وانـزل عـليـه على حكم الوفا وأنا الضـمين

فجاء إلى فخر الملك رجل يستجديه فلم يعطه شيئاً، فمضى إلى القاضي وادعى على ابن بناتة الشاعر أنه ضمين غارم، فاستمهله حتى وصل إلى فخر الملك وأخبره القصة، فقال الرجل: أملت قال: مائة دينار، فأعطاه إياها، ثم قال لابن نباته: إذا مدحتني فلا تعد تضمن عني شيئاً، وقد يصف الشاعر نفسه بما ليس فيه كالجبان يخلو له الجو، فيطلب النزال والطعان يجني بهما على نفسه. من ذلك أن المتنبي سار في البيداء فاعتدى عليه "فاتك"، ولما لاذ بالفرار ذكره بقوله:

الخيـل والليـل والبيـداء تعرفني والسـيف والرمح والقرطاس والقلم

فاغتر بشعره الذي اعتقد صحته، وكان من أمره أن تصدى لقتال خصمه، فحاق به فخره الكاذب، وأوقعه في شراك الموت.

الفخر والتلميذ

يحق للتلميذ أن يفتخر بالفوقان على أقرانه لأنه ثمره جده؛ يحق له أن يفتخر بما ادخر من المال بدون تقتير ولا سفهٍ عاقداً عزيمته على صرفه في وجوه البر، وإلا عد فخره خزياً وعاراً، يحق له الفخر بالإنفاق على العجزة والبائسين تخفيفاً للوعتهم وحثاً لعواطف الجامدين، فإن أكثر البخلاء ينفقون المال لا حباً في الإنفاق بل مجاراة للمحسنين ودفعاً لمعرة البخل، وتسكيناً لثائرة الهجائين؛ يحق له الفخر بإهداء الكتب للمعاهد؛ وبالسعي لرفع منار العلم، وبإطعام اليتامى ومعالجة المرضى؛ يحق له أن يفتخر كما افتخر رسول الله بقوله: "أعطيت جوامع الكلم" فإن في هذا تحدثاً بنعم الله.

إننا ننكر عليه أن يفرغ حديثه في قالب الفخفخة فيؤلم عواطف معاشريه، وبذلك ينحرفون عنه فيخسرهم عند مسيس الحاجة، ويخسرون به فرداً عاملاً من المجموع العام. ننكر عليه أن يحبذ نفسه بأنه نال جائزة أو شهادة، أو يضعهما في منزله على مرأى من زائريه، فإن شهادة الأعمال المبرورة خير وأبقى. أيها المفتخر اجعل من عملك لساناً ناطقاً صادقاً، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال؛ افتخر بالجد والسهر للمصلحة ونصرة الضعفاء، وخدمة الوطن وبذل الوسع في ترقية شئونه وإرشاد أهل الضلال.

واتبع نصيحة ابن المقفع حيث يقول: "إن استطعت أن تضع نفسك دون غايتك برتبة في كل مجلس ومقام ومقال ورأي وفعل فافعل، فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحط إليها نفسك، وتقريبهم إياك إلى المجلس الذي تباعدت منه، وتعظيمهم من أمرك ما لم تعظم، وتزيينهم من كلامك ورأيك وفعلك ما لم تزين هو الجمال".

(9) غريزة الملك والاقتناء

ما أبعد الحيوان عن مطامع الملك والاقتناء! يستغنى عن اللباس يستر به جسمه. ويكتفي بالنزر اليسير من الطعام الذي يجده بلا عناء، ويرضى من السكنى بالمأوى الحقير يكمن فيه سواد الليل، ويحفظ فيه نسله سواء أكان على فرع شجرة بعيدة المنال، أم في أرض جدباء لا تتطلع إليها أنظار الأعداء. فهذه المطامع القليلة لفتت نظره عن الملك فاستراح، وعاشت أفراده في وئام، ولم يحصل بينهم من التنازع ما يحصل غالباً بين أفراد الإنسان.

والدنيا في نظر البدوي ملكٌ شائع، ينتجع منها ما يطيب له فيها المرعى الذي يكفيه ومن يعوله قانعاً من القوت بالكفاف، فلذلك عاش هنيء البال قرير العين. ثم تسربت المطامع إلى قلب الإنسان لما زاد نسله وبرقت أمامه بوارق الحضارة، فأصبح لا يقتصر من المسكن وغيره على ما يكفيه طول حياته، بل أغار على جيرانه، وتوسل بالطرق المشروعة وغير المشروعة إلى السرقة والاغتصاب؛

ولو فكر لعلم أن الأرض تستهويه بجمالها ليملكها، وتحثه غريزة الملك ليعمرها، ثم تتبادلها الأيدي بالميراث والبيع جيلاً بعد جيل، حتى إنك لو أحصيت من ملكوا على التوالي قطعة صغيرة من الأرض لأعياك العد، وتملكتك الدهشة من أن الأرض لا تزال كما كانت، وأن لا ملاكها هم في الحقيقة خدام سخرتهم هذه الغريزة لإصلاحها، وهذه من سنن الكون البديعة.

وعلى حطام الدنيا يتنازع الأصدقاء أحياناً، ويرغب كل منهم في أن يملكه وحده، ولا يرضيهم أن يقسموه بينهم. فشت هذه الحال بين صغار السن وكبارهم على السواء "يشيب ابن آدم ويشب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل". نعم إن الإنسان – مهما بلغت درجته من العلم – لا يكاد يرى شيئاً طريفاً حتى تجيش نفسه بحب ملكه، مع أنه قد يكون في حل من النظر إليه أو التمتع باستئجاره. فما سر هذا؟ ذلك لأن في الملك معنى نفسياً تصبو إليه النفس، هو حرية التصرف فيه بالتغيير الذي يتفق مع ذوق المالك، والمستأجر مسلوب الحرية، لا يتعدى الحدود التي يرسمها له المالك ليضمن سلامة العين المستأجرة، ومع ذلك فهو مهدد بفسخ عقد الإجارة وبغير ذلك من ضروب المهانة.

فوائد الملك

إن اختيار مكان البيت مثلاً وحرية التصرف فيه بتنسيق البناء وترتيب الأثاث وغرس الأشجار مظهر من مظاهر ذوق المالك. ملك الطفل كتاباً تجده أحياناً يمزقه منقاداً إلى ذلك بغريزة سيأتي شرحها، وأحياناً يُغلفه وينمق عليه اسمه، ويوسع له ركناً في خزانته يغدو ويروح إليها، ويقر به عيناً ولو لم يقرأ فيه، ويقيد به من الشوارد ما شاءت ميوله. وإذا أتيح له أب يحترم فيه هذه الغريزة كان من مقتضيات هذا الاحترام أن يحتفظ بالكتب التي ملكه إياها صغيراً، ويسلمه إياها كبيراً، ليتيسر له أن يراجع ما درسه فيها، وأن يتذكر مقدار جولان ذهنه في مضامينها في عهد الطفولة، والطرق التي اتبعها المعلم معه فتنفعه الذكرى.

إذا عرفت فائدة الملك أمكنك الحكم على قصار النظر الذين يخشون نزول الفاقة بأبنائهم وحفدتهم فيحبسون عليهم أملاكهم، ويغلون أيديهم عن التصرف فيها، ولا يكاد ينقضي الجيل حتى يزداد النسل ويقل الريع، فتنصرف عنايتهم عن إصلاحه لحاجتهم إلى النفقة، وانفكاك رابطة الإخاء فيما بينهم، فيئول هذا الملك إلى خرائب، ويصبح مصدر تنازع مستمر، وسبباً لفقر لا طاقة لم بتحمله. ولو عقلوا لتركوا لورثتهم هذا الملك يقتسمونه بينهم اقتساماً شرعياً ليتصرفوا بمواهبهم فيه. فإنهم إذا صلحوا استفادوا منه وعمروه، وإذا فسدوا خرج من أيديهم وانتقل إلى من يصلحه؛ وهذه نتيجة طبيعية للإهمال الذي هو سبيل العظة، قال علي بن أبي طالب: "ما ذهب من مالك ما وعظك".

يُحسن المعلمون والآباء صنعاً إذا تضافروا على تقويم هذه الغريزة، فحظ الآباء إعطاء أبنائهم مصروفهم اليومي، حظ المعلمين موالاة الحث على ادخاره، ومناقشتهم في وجوه الصرف في المقتنيات، ملاحظين أن الأخيرة تحتاج إلى أضعاف ما تحتاج إليه الأولى من الحكمة والسداد ومعرفة قيم الأشياء، وهي تتنوع تبعاً لما ركز في قيم نفس المقدر. إليك قطعة الخزف القديمة، يشتريها بوزنها ذهباً من يعلم أنها تسد الثلمة بين التحف العادية وترشد إلى تاريخ الصناعة في عصرها؛ والخطوط الأثرية تشترى بثمن غال لأنها تسد فرغاً يلائمها؛ وعشاق التاريخ يجمعون محنط الحشرات وما انقضى عهده من الثياب والآنية ومعدات الحرب، ويباهي الأغنياء بالصور التي رسمها رافاييل ويشترونها بآلاف الجنيهات، لأن التاريخ حفظ للراسم البارع هذه المهارة ودقة الصنعة، فتهافت عليها وعلى أمثالها عشاق الفن،

وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة، وكان القوم عليه أشد حرصاً، وتنافسوا في ملكه وفي تقدير ثمنه. وللعلماء شغف باقتناء الأسفار لاسيما ذات الخط اليدوي، يجمعونها للاستفادة من محتوياتها ومن الذوق الفني السائد في عصره. ولهم كذلك شغف بالأسفار إلى الممالك النائية يقرءون فيها ما سطرته يد الطبيعة، ويقتبسون منها ما جادت به أنوار الحقيقة، فيقفون على العادات وما تدرجوا إليه في سبل الحضارة.

يخرج الأطفال للتنزه ويسرهم إجابة مطالب هذه الغريزة يجمع ما تمتد إليه أيديهم من الصدف والأحجار، وإذا عادوا إلى منازلهم طرحوه في ناحية منه وقلما أعاروه التفاتا. فلينتهز الآباء هذه الفرصة السانحة، وليفسحوا لهذه المقتنيات مكاناً خاصاً لينسق فيه الأبناء ما يعثرون عليه من الطرف، فإن ترداد النظر إليها يحتم على البحث عن فوائدها. أما الكتب فهي كنز العلوم وخلاصة الأفكار سهر العلماء في الحصول عليها وتدوينها، فحق لنا أن نفاخر باقتنائها، ونزين مها حجراتنا

، ونزيد بقراءتها معلوماتنا. ولم يكن للفقراء فيما مضى مندوحة لشرائها لغلاء ثمنها، أما الآن وقد ذاعت الطباعة وراج سوق الكتب ورخصت أسعارها، فيحق لنا أن ننشط المؤلفين بشراء مؤلفاتهم، وأن نحبب إلى أبنائنا شراءها مما يقتصدونه من المال، ونعرفهم سبل الاحتفاظ بها.

وقد كانت الكتب إلى عهد قريب تصرف للتلاميذ على سبيل العارية، ثم ترد بعد الفراغ من الدرس. حمدنا الله على تغيير هذه الخطة السقيمة، لأن فيها حرمان الطفل لذة الملك، وحرمانه مراجعة الدروس في أوقات العطلة، وحرمانه الاحتفاظ بالكتب التي زودته بالعلم؛ وقيمة الاحتفاظ بها ثمينة يدركها الطفل متى كبر.

وللمقتنيات حظ وافر من العناية عند كثير من الأمم المتمدينة، وأمنية الرجل منهم إذا هاجر أو ساح في بلد أن يعود إلى منزله، ويعرض فيه كل ما جمعه من المقتنيات، ويدعو إليها زائريه ويحادثهم في تاريخ العثور عليها. فهل لنا من مربين يحركون فينا هذا الميل؟

لا يكاد يخلو إنسان من شيء يقتنيه ويبالغ في الحصول عليه. رأينا من يقتني المصورات التي أبدعتها أنامل مهرة المصورين أمثال رينولد فقد رسم وجه ابنة أمير وهي في طور الطفولة، رسمها في خمسة أوضاع وأفاض عليها روح الملائكة، فاجتمع من حسن تنسيقها وما أسبغ عليها من اللون مثال من الجمال له روعة كروعة الشعر، والشعر والرسم أخوان وهما وليدا الخيال، وقد عرضت في لندن صورة من رسمه وهي من مقتنيات أحد الأغنياء فبلغت قيمتها **52** ألفاً من الجنيهات.

ورأينا من أولع بالنبات يبني له السقائف الزجاجية، ويتخذ لها النوافذ والمدافئ ومقاييس الحرارة، ويهمه أن يصل منها إلى ورقة نضرة، أو زهرة بديعة، أو ثمرة نادرة، يقدمها في المعارض الزراعية دليلاً على أنه أفرغ الوسع وأجاد، ورأينا من يجمع أوراق النبات المختلفة الأشكال وأنواع الأزهار، يضغطها ويتخذ منها مجموعات لدراسة التاريخ. ورأينا من يهتم باقتناء الدواجن والطير المغرد والحيوان الوحشي والخيل والكلاب والقطط، يراقبها ويدرس طبائعها، ويجعلها سلوته في زمن العطلة. ورأينا من يجمع النصب التي تمثل الإنسان في أطواره المختلفة،

ويؤلفها تأليفاً يصح أن يسمى ديوان الهيئة الإنسانية. ولم تصل الأمم الحية إلى هذه الدرجة إلا بفضل التعليم، فقد عنى المربون بمراقبة أذواق المتعلمين وميولهم، وأيقظوا الشعور الغريزي الكامن منذ الصغر حتى نما، وصار ملكة يعول عليها في تقدير الحسن؛ وتمييز الجمال، وتدقيق النظر إلى كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التي تدل على بارئها بجميل صنعها. ونحن إذا دخلنا بستاناً فأيسر شيء نراه فيه صنوف الورد والزهر، وندهش من حسن أوضاعها وذكاء ريحها وبهاء لونها، ونود لو أنها تبقى على حالها طويلاً لتزداد حواسنا بها تمتعا، وهذا هو السر في أن صورها في شكلها الصناعي أغلى منها في شكلها الطبيعي، إذ لا يستطيع الصور البارع أن يخرج لنا هذه الصورة طبق الأصل إلا بعد إمعان طويل لدقائق القدرة الإلهية، وعناء كبير في سبيل المحاكاة.

والحكومة كالأفراد تغلو في اقتناء النفائس على قدر عزمها العلمي والمالي. نرى في مصر داري التحف المصرية والعربية وقد غصت رحابهما بمتروكات الآباء التي تقادم عليها العهد. ولست تجد بينها من طرائف العصور الحديثة ما يدل على فضل ونهوض، وإذا شخصت إلى دور الأمم الحية التي من هذا القبيل وجدت ذخائرها القديمة والحديثة قد التأمت، ولا تكاد تجد فيها صناعة أهمل تاريخها. ففيها نماذج الآلات والأساطيل مرتبة بحسب عصورها وتدرجها في التحسين.

(10 - 11) غريزتا التحليل والتركيب

يولد الطفل جاهلاً ما يحيط به من الكائنات، ولا يستطيع فهمها إلا بمعونة الآباء والمعلمين، ولما لم يقدروا على سبر غور ميوله وجب عليهم أن يفوضوا إليه استجلاء الحقائق واختبار الأمور بما ركز في جبلته من غريزتي التحليل والتركيب. يتناول الصورة مثلاً فيرتاح إلى النظرة الأولى لها لغرابتها، ثم يصيرها الاستعمال مبتذلة لولا ما يدخله فيها من التغيير، ولا نعجب إذا رأيناه يعبث بها لعله يصل إلى وضع مناسب يؤثر فيه التأثير الرائع. يأخذ اللعبة ولا يكاد يمضي اليوم حتى يكسرها. يمسك الساعة فتدهشه دقاتها، ويحاول فتح غطائها ليقف على السر المكنون في باطنها، وإذا أعياه ذلك كسرها لا حباً في الإتلاف كما وهم المخطئون، بل طموحاً إلى علم تجريبي يطفئ به أوار ظمئه.

ومما يدل على أن الطفل مولع التركيب أنه ينبري لصنع طيارة مثلاً إذا اجتمع عنده الخيزران والورق، وينبري لصنع الكيس إذا توافرت لديه القصاصات، ويقيم البيت مما يقع في يده من الأشياء. وقد تحرك هذا الميل في صدري وأنا صغير، وانتهزت فرصة فراغي وصنعت ما كنت أجمعه من المواد عجلة تدور بمحرك، وكان شوقي إلى إتمامها وتنفيذ ما دار بخلدي من أمرها يحملني على مقاساة التعب بدون شعور.

على التحليل والتركيب عماد اللغات، لاحتياجنا في منشآتنا إلى مفردات صحيحة فصيحة نستعيرها من تحليل أساليب البلغاء، ثم نصوغها صوغاً جديداً يعرب عما يدور بخلدنا من المعاني، ونسدل عليه ثوب التأثير. ويعول علماء الأعضاء على التحليل والتركيب، فيتنافسون في تشريح الحيوان الحي وتجريده من أجزاء مخه ومراقبة حركاته لعلهم يدرسون علاقتها بالمدركات. وقد توسعوا فعرضوا على من سئم الحياة أموالاً طائلة ليسمح لهم أن يجروا التجارب في جسمه أثناء حياته، فيعرفوا كيف تؤدى أعضاؤه الباطنية وظائفها.

وعلى الجملة لا يستطيع مبدع أن يحول على بصيرة في ميادين الأعمال بدون أن يتخذ من هاتين الغريزتين رائداً له، ونحن إذا خفنا عبث الطفل بأثاث منازلنا، وأغلقنا أمامه أبواب التجارب التي يستفيد منها العلم الصحيح بما يحيط به أمناً الخطر طبعاً، غير أنه ينمو فاتر القوى جامد الذهن من جراء إهمال هاتين الغريزتين، ومن أجل ذلك فكر المربي "فروبل" فصنع لعبا تقبل الفك والربط، والتحليل والتركيب. ولبعضهم نماذج مصنوعة من الخشب وشى ظاهرها بصور رائعة يفكها الطفل ثم يهيم شوقاً بإعادتها كما كانت، ودليله على ذلك بدو تلك الصور بشكلها الأصلي، ويتولى بنفسه تركيبها لاستحالة قيام بعض أجزائها مقام بعض، ولا بد أن يصل بنفسه إلى وضعها الذي كانت عليه طال به الزمن أو قصر، وعجينة الصلصال الشائعة الآن في المدارس أداة وضعت لهذه الغاية، تسهل على الطفل محاكاة النماذج وتقويم اعوجاج مصنوعاته بنفسه.

(12) غريزة الاستطلاع

غريزة الاستطلاع جلية الظهور في النمل وهو يتخذ لجيشه كشافة لفحص الأمور، وهي كذلك جلية في الطفل حتى قيل: "نفس الطفل طلعة"، فالرضيع إذا قربت إصبعك من فمه تعلق به عسى أن يكون ثدي أمه. ويبكي ليستطلع حنو أمه عليه. والأم الواقفة على سر هذه الغريزة إذا رأت طفلها ينتحب لنيل غرض معين لا تقرب منه هذا الغرض، وإنما تحمل الطفل إليه ليقترب هو منه، وتكرار هذا يعود الطفل السعي إلى مرغوبه. نطرق أبواب أصحابنا فنسأل الطفل الذي يقابلنا: هل والداك في المنزل؟ فلا يجيب عن سؤالنا بل يلقى إلينا سؤالاً مثله: متى جئت من السفر؟ وهل اشتريت لي لعبة؟ وهل شاهدت ما اقتنيته؟ ..الخ. فتحت يوماً كيساً أمام ابن إلى يناهز الرابعة من عمره فقال: هل تعطيني قرشاً؟ ولما رآه مفعماً لم ينتظر الجواب، بل وجه سؤالاً آخر: من أين أتيت بما فيه؟ وهكذا اطردت أسئلته بنظام يدل على أن نفسه جوالة مستطلعة.

والطفل عند ما تؤثر فيه روعة الطبيعة يشرئب إليها فيسأل جلساءه أسئلة غامضة رغبة في كشف غموضها: لماذا تشرق الشمس؟ ماذا يجعل الريح هاباً؟ كيف يستحيل الحب شجراً؟ فما أصبر الحكماء على الإجابة عنها! لأنها عماد الحقيقة في ذهنه. ومسار يعرفون به غور ذكائه، ونبراس يهتدون به إلى معرفة إرادته. أما الجهلاء فينفرون من سماعها، وينكرون عليه عرضها، وربما أساءوا إليه ستراً لجهلهم، ويكون حرمانه الإجابة قاضياً على ما عنده من رمق فتنطفئ فيه جمرة النبوغ وسرعان ما تخمد.

رأيت بعض الصبيان يطرقون أبواب المنازل في غفلة أصحابها، ثم يهربون ويقفون بعيداً يستطلعون أمراً يتوقعونه من الساكنين؛ ونرى الناس مكتظين في الطرق فنتساءل عن السبب. نعم قد تجاهل الإنسان فيسأل الناس عن أسباب الأمور ونتائجها وهو عارف بها، ليقف على ما عندهم من ذكاء وعلم كما كان يفعل سقراط.

ويبلغ الاستطلاع غايته عند قائد الجيش الذي يتأثر عدوه، وعند العالم المدقق والكاتب والحاسب، وعند القاضي لتحري جانب الصدق مني تجهمت الأمور وتلاطمت أمواج المنازعات، وعند السياسي الذي يمارس الطبائع، ويقيس حاضر الأمة ومستقبلها بماضيها، وعند المعلم الذي يتفقد الميول ويساير الملكات الذهنية؛ ولكل شخص ميزة فطرية لو استطلعها المعلم وسار بها في طريق الكمال لمهدت لصاحبها سبيل النبوغ؛ ومن غفل عنها لحقه الفشل لا محالة، فقد اتفق على زيارة معلم في درس إملاء وقد نهى تلاميذه عن السؤال أثناء الكتابة، وخانته فطانته فلم يفسر أولاً غامض الألفاظ والأساليب على حسب النظام الطبيعي؛ وبينما هو يملي قاطعه أحد التلاميذ فسأله عن معنى كلمة، فاستشاط المعلم غيظاً من مخالفته الأمر وعاقبه، غافلاً عن مطالب غريزة الاستطلاع، ولو كان عاقلاً لتنبه لخطئه وقت سؤال الطفل إياه غير مكترث للوعيد، ولالتمس له عذراً في عدم قبول النصح.

بحكم هذه الغريزة يتسرع الطلاب، فيسألون المعلم عن أمر لم يتمم تمحيصه، وينتقدونه قبل استيعابه، وقبل معرفة أسبابه، لأن حب الاستطلاع كالبخار يجيش به صدر المشتاق إلى معرفة الحقائق المجد لإدراكها؛ ولذلك تراه وهو في مضمار البحث والتنقيب لاهياً عن نفسه، متحملاً آلام المشقة. لعلك سمعت وصف الموكب الملكي الذي أعد لتشييع جنازة الطيب الذكر إدوارد السابع ملك الإنجليز وما أحاط بها من مظاهر الأبهة والجلال، تسير فيها الجند من أقطاب المعمورة والملوك حملة التيجان، والأمراء والأعيان؟ ذهب بعض أصحابي إلى لندن مبكرين إلى حيث تسنى لهم رؤيتها، ووقفوا على أقدامهم زهاء إحدى عشرة ساعة، والناس من حولهم يموجون حتى انسدت به المنافذ على اتساعها، وشق عليهم أن يتحركوا أو يستريحوا أو يأكلوا أو يتنفسوا؛ صبروا على ألوان العذاب ليستلذوا مشاهدة هذا الموكب البديع، وليستطلعوا جهد الحكومة في ترتيبه وتنسيقه، فصارت نار نفوسهم المضطربة برداً وسلاماً.

قال معلم لتلاميذه وهو يستطلع جولان أفكارهم: رأيت طفلاً محموماً اختلط بإخوانه فأعداهم، اذكروا لي أمثلة تشبه ذلك. فأجاب أحدهم بأن عينه رمدت فأصاب الرمد عينه الأخرى، وأن طفلاً حصب فأعدى الأطفال المختلطين به، وهكذا عرضوا من الأمثلة ما يفيد أن عدوى المرض تنتقل من عضو إلى آخر، ومن جسم إلى آخر، كما تنتقل الحرارة في أجزاء قضيب أحمى طرفه؛ وفهموا أن الذرات السابحة في الجو تخرج من المريض فتصيب السليم، وأن الذباب يتهافت على المرضى وعلى الأقذار فيحمل بأرجله جراثيم المرض ويلقح بها الأصحاء؛ وخليق بمن يريد الاحتفاظ بصحته ألا يكن الأحياء القذرة.

وهذه شروط الاستطلاع الواجب مراعاتها:

ليس الإنسان أن يسأل أو ينتقد حتى يتمكن من الفهم، اللهم إلا إذا عرضت أثناء البحث شكوك تعكر عليه صفاء الحقيقة. فإذا كان هذا، فأنصح للمعلم ألا يجيبه نصا، بل يحيله إلى سابق علمه، ويطالبه بإجالة فكره، أو بحثه على مراجعة رفقائه، أو على الاطلاع على أبواب يقرؤها من كتاب. كذلك يلتقي المعلم على مسمع تلاميذه حكاية تنم عن خلال محمودة، ويستطلع مبلغ تحليلهم لعناصرها، أو مرض مصوراً على مرأى منهم، ثم يستره عنهم ويستفسرهم مشتملاته كماً وشكلاً ولوناً. وكذلك يحاورهم في غرض معين وينتبههم على التوسع فيه بمراجعة كتب يسميها، ويستحث همتهم على تمحيصه والاستدلال عليه وذكر ما فيه من ضعف وقوة. وأخيراً يلقى عليهم قضايا العلوم، ويطالبهم بتأيدها بالبراهين، أو يكلفهم حل المسائل وتطبيق ذلك على ما درسوه.

(13) غريزة اللعب

الجد واللعب مظهران للحياة، فإذا نهضنا إلى إدراك غرض وشغلتنا الغاية عن الالتذاذ بالحركة وما يصادفنا في غضونها من التمتع بالمشاهد الجميلة والمسموعات الرائعة عدداً هذه الحركة جداً؛ وإذا تلمسنا الحركة وجعلناها لنا غرضاً ولم نتطلع إلى شيء وراءها طال بنا الزمن فيها أو قصر عدداً هذه الحركة لهواً ولعباً. يحس الفرق بين الجد واللعب من يحبس فكره منقباً عن أمر، مدلياً بالحجة على صحة قضيته، أو موازناً بين أمر ونظيره، فالذهن حينئذٍ لا يرتاح إليه ارتياحه إلى لذة السمر والتنقل في الحديث لأدنى ملابسة.

حقق اسبنسر أن اللعب من مستلزمات الحياة تخرج به القوة الزائدة على الحاجة كما يخرج بخار المراجل المستغنى عنه. وحقق غيره أن اللعب منزع يرشد المعلم إلى معرفة الميول النفسية الكامنة، فما أحقه موضوعاً للدراسة: أرأيت الأطفال وقد خطر بفكرهم محاكاة القطار فانطلقوا يعدون وقد أمسك كل منهم ذيل ثوب صاحبه؟ أرأيتهم وقد حاكوا الحصان والسائق، ونفس كل منهم مولعة بالبراعة في التمثيل؛ تجدهم أحياناً يتناوبون الأمر بين رئيس ومرءوس، ليجرب كل منهم مطامعه وهمته عند اختلاف المواقف، وأحياناً يجمد كل منهم ويصبح أكثر التصاقاً بما اختاره أولاً، فلا يفكر من يمثل الحصان أن يطلب الوقوف في مكان صاحبه، ولا يفكر من يمثل السائق أن يتنزل عن موقفه، كأن نفس الثاني قد طمحت إلى العظمة والاستئثار، وكأن نفس الأول قد ركزت فيها أصول المذلة والصغار. الحركات هاتين النفسين تميزها الحكيم ويتنبأ عن مستقبلهما بالسعود والنحوس.

وهل رأيت الطفلة تطوى عطافها (شالها)، وتتخذ منه مثل العروس، تسميها وتلبسها ما جمعته من الثياب، وتحملها على كتفها، وتجلسها على حجرها وتناغيها، وتعطف عليها عطف الأم على رضيعها. تفعل الطفلة هذا مع أنها ربما لا ترى من أمها مثل هذا العطف والحنان. ذلك لأنها مدفوعة بدافع غريزة اللعب والعطف الأموي.

أطوار اللعب

(1) الطور الأول وهو طور الطفولة ينتمي إلى السنة السادسة، والطفل حينئذ يسد باللعب مطامعه الذاتية ولو حصل منها إيلام المعاشرين، فيكثر من الثرثرة والاضطراب والبكاء والنحيب والعويل والضحك والقهقهة والغناء، وإذا قيل له: "ابتعد عن فعل ما يتأذى منه غيرك"، ثار غضبه وعمل على نقيض ما يطلب منه، وأدخله العناد في ميادين التصنع والمكر.

يجدر بالمعلمين أن يراقبوا الأطفال وهم في هذا الطور، فيسعدوهم ويسعدوا أنفسهم بما يقتبسون من الفوائد كما كان يفعل الأحنف ابن قيس والغزالي وروسو وبستالوتزي، فإنهم كانوا يستفيدون من ممارسة تعليم الأطفال ما لا يستفيدون من الكتب.

رأيت أبنائي يختلفون إلى ساحة المنزل، ويجلسون فيها على هضبة رمل ويتقاسمون العمل، فيصنعون بيتاً وينسقون التماثيل أمامه لمحاكاة المثال الذي أثر في نفوسهم. هذا وأمثاله هو شأن الأطفال يساقون بدافع الفطرة إلى إبراز ما يموج في عقولهم من الخواطر، ويودون لو يطول بهم الأمد ليزيدوا عملهم تنسيقاً وإتقاناً.

(2) الطور الثاني وهو بين السابعة والثانية عشرة، والطفل يتعلم في هذا الطور تلك الحركات التي تقوى الدورة الدموية والعضلات كلعبة الإطار والجدف والجري والمصارعة؛ ويتعلم من الحركات ما بنمي ملكة التنقيب ويصقل الفراسة ويشحذ الكياسة، كلعبة الاختفاء والبحث الفاشية بين صبيان مصر، وعند كثير من الشعوب، حاكوا بها الإنسان في عهده الأول الذي اعتاد فيه الصيد، وحمى نفسه من بطش الوحش.

وكثيراً ما نرى الأطفال يلعبون بالكرات الصغيرة، و يتغنون عند اللعب بها حاسبين عدد حركاتها، لاهين بها عن إحساس التعب. تجدهم وهم في بحبوحة الراحة يكون لتمرين الأعصاب والعضلات، ويوفقون بين الحركات تنفيذاً لمطالب حاستي اللمس والإبصار، سالكين السبل التي تجعل أمام مرموقة بين السداد.

نراهم يجتمعون زرافات للعب الكرة فيصنعونها من خلق الثياب، وينتقون من يحسن الرماية فيقفونه عند الهدف، وهو يدفعها إلى إخوانه الواقفين على أبعاد مختلفة منه، فإذا تلقفها أحدهم، أو رماها فأصابت الهدف، حق له أن يذهب إلى موقف الصدارة بلا معارض. ومن خرق سياج هذا القانون عرض نفسه لسهام الملام.

ومن الألاعيب التي تغرس حب الشجاعة والإقدام ما يفعله السودانيون في حفلاتهم، كأن يتجرد الشاب من ردائه، وينطلق إلى الميدان حيث يضربه الجلاد بالسوط على جسده ضرباً مبرحاً فيسيل منه الدم، وهو مع ذلك لا يبدي مللاً ولا ضجراً، فإذا طال به الأمد على هذه الحال زغردت له النساء، ودقت له الطبول، ولا ينفك يباهي بآثار هذا الضرب مادام حياً، وهي في نظره وفي عرف قومه سمات الفروسية والثبات.

ومن الألاعيب التي تشحذ الملاحظة والخيال والفكر ما ذاع من الأحاجي التي تضرب في مغازٍ شتى، ويندفع ذهن الناشئ بمحض هواه إلى البحث عن مضامينها، ولذلك عددتها من اللعب.

كنا ونحن صبية إذا قدم إلى منزلنا زائر التففنا حوله، وسألناه أن يختبر مداركنا في شيء منها لعلنا نوفق إلى الجواب. فكم ردد بيننا هذه العبارات "أده أد النمنمة، يجيب الخيل ملجمه" قاصداً حروف الكتابة. "أده أد الكف، يقتل ميه وألف" قاصداً المشط. "لابسة ألف خلقة، وقاعدة في الحلقة" قاصداً الكرنب، "العجوزة كاشة، وفيها أشة"، قاصداً الزبيبة وهكذا. كنا عند سماعها نتنافس في تصوير الإجابة معتمدين على الخيال، وكم لبثنا سواد ليلنا على هذه الحال وقلما طاف بأعيننا لذيذ المنام. ولملاحتها أفرد لها الأدباء أبواباً، قال البها زهير في القفل:

وأســـود عـارٍ أنحل البرد جســـمـه وما زال من أوصـــافه الحرص والمنع
وأعجب شـــيء كونه الدهر حارســاً وليس لــه عين وليس لــه سمع

(3) الطور الأخير وهو طويل الأمد، غير أن الألاعيب المتداولة فيه اجتماعية الصبغة غالباً، وقد يقصد منها تنشيط الجسم بعد الفتور الناجم من الأشغال الفكرية؛ ولهذه الألاعيب فوائد عدة أخصها ما تعقده بين اللاعبين من روابط الود، وما تنتهي إليه من نسيان الفرد مصلحته الذاتية، وربما أفناها في خدمة المجتمع؛ لذلك عنيت بها الأمم الراقية، وفسحت لها المجال بين ساعات الدراسة، وفي أوقات الفراغ من الأعمال، فأسست الأندية للخطابة والألعاب البدنية والمبارزة والجدف وركوب الخيل وتسنم الجبال والتمثيل وقطع المراحل مشياً على الأقدام ولعب الشطرنج ..الخ.

علمت أن قضايا العلوم إنما تثبت في الذهن إذا كانت غضة شهية، وتزيدها الطرق جفاءً إذا كانت جدية، لذلك لا نعجب إذا رأينا الطفل يذهب إلى المدرسة فاتر القوة، خاثر العزيمة، خائب الأمل، متعثراً في ذيول الملل؛ وكيف لا ينقبض صدره ولا تبكي عيناه، وقد غادر مكانه في منزله وبين يدي أبويه حراً في تصرفاته. ولقد استذكر الحكيم فروبل أطواره الأولى وما عانى من الآلام، فقال: إن نفسه وهو طفل تعلقت ببناء كنيسة راقه شكلها، فجمع الخشب والطوب والحجر وانبرى العمل، ولما أعياه الأمر ولم يجد مرشداً دك البناء وتحول عنه ولبث طوال عمره يندب ما قاساه من انصراف المعلمين عنه، واشتغالهم بأمورهم عن مراقبة هذه الميول، وبما كانوا يعتدون على الفطرة في سيرها، ويشددون النكير عليه إذا خالف أوامرهم الجافة.

كانوا كذلك في عصر فروبل ولا يزال كثير منهم في عصرنا يأنفون من تعليم الصبيان، ويضيقون ذرعاً بحسن معاشرتهم، و يتلمسون البعد عنهم كلما سنحت الفرصة. ومتى أسنوا يعدون تعليم الصبيان نزولاً عن المستوى اللائق بهم، ولو فطنوا لأدركوا أن ممارسة الأطفال تحتاج إلى رعاية الخبير وصبر الحكيم وعلاج الطبيب وامتداد نظرات الفيلسوف الذي يمارس التعليم مستعيناً بالغرائز فيثير أحياناً غريزة المحاكاة والمباراة والمنافسة، وأحياناً يتخذ من التشويق عضداً فيسوق إليهم الطرف على سبيل الجزاء، وأحياناً يحبب إليهم العلم والحظ بالنشيد والأغاني، وأحياناً يجلسهم ويقفهم كي لا يكون للملل عليهم نفوذ، فيذعنون إليه ويطيعونه عن رغبة.

درس فروبل هذه الشئون في نفسه وفي الأطفال الذين عهد إليه في تربيتهم، فوفق إلى تأسيس المعهد الذي سماه "روضة الأطفال" لينم عن الغرض منه، وهو إلباس المدلولات العلمية ثوب الزخرف وأسلوب الألاعيب؛ وقد توسع أتباعه في هذا المقصد وابتدعوا ما شاءوا من النماذج الكفيلة بالغاية المنشودة، وهي إقبال الطفل على العلم محض الرغبة.

رأى فروبل أن الكرة أداة لا تستعصي على الحركة في أي وضع، فصنعها من الخشب، ووضعها أمام الطفل بحيث تتدحرج يمنةً ويسرةً منه وإليه؛ وصنعها من المطاط لتخف بمرونتها وهي في قبضته، يرسلها إلى الفضاء ويتلقفها، أو يرمي بها إلى الأرض أو على الجدار فلا تتلف ولا يتلف بها ما تلامسه؛ أو تربط بخيط من المطاط موصول طرفه بالإصبع، ترسل إلى غرض ثم ترد منه؛ أو تعلق بخيط وتحرك حركات ذبذبية؛ أو تدار على محيط دائرة. والطفل حينئذٍ يتناولها ويقلبها ويتأملها ويدير بيديه حولها، ويفحص عن مرونتها وصلابتها وشكلها وثقلها ولونها، ويكلف أداء حركات يحاكي بها ما يؤديه المعلم أمامه، ويشرحها بلسانه، ويسأل عن تفسير ما غمض منها، فيمرن على الطاعة وإجادة العمل، ويزداد دربة بتمييز الأشياء والتعبير عنها.

وقد عول المؤدبون على اللعب، واختاروا للألاعيب أشكالاً حاكوا بها مختلف الآلات، ليحيط النشء علماً بما أخرجته الصناعة في عالم الوجود استعداداً لدرس المجتمع الإنساني الذي سيعيشون فيه. ولم يكن عرض هذه النماذج مقصوراً على الصبيان بل تطرق إلى عشاق التاريخ، فإنها صيغت بحيث تشرح الأزياء والعادات والأخلاق. ويرى المطلع عليها أحوال الأمم وهم في المصانع يشتغلون، وفي المنازل يتزاورون، وعلى الموائد يجلسون، وفي المحافل والمتنزهات يغدون ويروحون؛ تعرض بها الأذواق المتباينة في بناء القصور وتزيينها، وتنسيق الحدائق وتجويدها، والسفن وتسليحها، والقلاع وتحصينها. وقد أفردت لهما في المعارض المشهورة أمكنة لما لها من رائع الأثر في التربية العامة. وقد تصدى "ساندو" للعلاج بالحركات البدنية، يختار منها ما يلائم المريض بعد تشخيص مرضه. وقد دل الإحصاء على نقص في نسبة الموتى بين أفراد الحيوان الذي يتجشم الصعوبات ويتسنم المرتفعات، حتى صح ما يقولونه: الموت سكون والحياة حركة.

(14) غريزة الطرب من الغناء

الغناء كاللعب معدود من مظاهر الحركة البدنية، يحدث من اهتزاز أوتار الحلق اهتزازاً يخرج الصوت خفيفاً وشديداً، مرتفعاً ومنخفضاً بحال تعرف بالنغم والتلحين. والناس يتفاوتون في مبلغ التأثر به، ولذلك تجد البارعين في الغناء يطوفون على ضروب الأنغام، وينوعون استعمالها، ويرجعونها لعلها تهز الأريحية، وتضرب على الوتر الحساس الذي يطرب النفوس.

بهذا يمكننا تعليل نفار النفس من الصوت الجاري على وتيرة واحدة كصوت البوق وطنين الذباب وقوقاء الدجاجة ونقيق الضفادع في الغدران وسقسقة العصافير على الأغصان. وربما خالطه رنين موسيقي يجعله مصدر ارتياح، كهزيز الريح وهدير النهر وزقاء الديك وصداح البلبل وهديل الحمام وسجع القمري وإن لم يكن معناه مفهوماً. وماذا عسى أن يدل تغريد الطائر وهو في أعماق قفصه؟ أهو يشكو السآمة من وحشة الحبس؟ أم يسري به تباريح الحزن؟ أم يصدح فرحاً لأن العادة أنسته حاله الأولى، وجعلت له من القفص موطناً مقبولاً، قال المعري:

أبكت تلك الحمامة أم غنت على فرع غصنها المياد

والغناء يؤثر في نفس المغني أضعاف تأثيره في نفس السامع، فيلهيه عن طعامه وشرابه وسائر لذاته، نقل المبرد عن عمر الوادي أنه قال: "أقبلت من مكة أريد المدينة جعلت أسير في صدٍ[34] من الأرض، فسمعت غناء لم أسمع مثله، فقلت والله لأتوصلً إليه ولو بذهاب نفسي، فانحدرت إليه فإذا عبد أسود، فقلت له: أعد علي ما سمعت. فقال لي: "والله لو كان عندي قرى أقريك ما فعلت، ولكني أجعله قراك، فإني ربما غنيت هذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيته وأنا كسلان فأنشط، وربما غنيته وأنا عطشان فأروى. ثم انبرى يغنيني.

وكنت إذا ما زرت سعدي بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

إلى آخر ما أنشد. قال عمر: حفظته عنه ثم تغنيت به على الحال التي وصفها فإذا هو كما ذكر.

([34]) المكان المرتفع من الجبال.

وفي إن الحيوان كالإنسان يطرب من الغناء، فالقردة والدببة والفيلة والهواة تهتز عند سماعه هزاً يدل على ارتياح واطمئنان. فقد روي أن من أفاعي الهند هامة كثيرة الفتك بالسكان يسمونها الكبرى، تعد ضحاياها بالآلاف كل سنة، وهي مع شدة جموحها وعدوانها يذللها الغناء. فإذا سمعته وهي في أعماق أجحارها تخرج متهادية، ثم تنصيب درقتها نحو المغني، وتهتز يمنة ويسرة على رنين النغمات، وتتخذ فيها أعصاب الحذر فتستسلم للصيادين. – والإبل وهي أغلظ الحيوان أكياداً – تضنيها المفاوز، ولولا حداء الحادي لتقطعت ظهورها من ثقل الأحمال، في الأسفار الطوال.

وزنوج السودان يتهافتون على صوت الغناء، آتين إليه من كل حدب، عاقدين له حفلات الرقص، رافعين عقيرتهم من شدة تأثيره في أمزجتهم.

والطفل الرضيع يدهمه الحزن، وتحثه العبرة، ويبرح به البكاء، تغنيه أمه "نم يا حبيبي بسلام" فيهدأ مضطرب مزاجه، وينام آمناً مستريحاً، ذلك لأن نفثات الغناء كالسحر تشجيه وتنسيه أحزانه.

والعمال يطول بهم زمن العناء البدني فيستأنسون بالغناء ويزدادون به قوة وإقداماً ونشاطاً. وقد يلهي الغناء أرباب المهن عن مزاولتها، قال لص عن نفسه: انزبقت ذات ليلة في ملهى موسيقي لأترقب فرصة السرقة، ولما ارتفع صوت الغناء المشجي غاب صوابي وألهاني الإنصات له عن مزاولة مهنتي، فخرجت من الملهى مملوء الأذنين، صفر اليدين.

وللأمم في فضل الغناء حكايات متداولة ربما عزاها السامع إلى مبالغة الخيال، وليس بكثير على لغة للعواطف أن تتسيطر على النفوس وتفعل بها فعل السحر. قيل إن مدينة هملين في ألمانيا.

كانت تموج بالفيران من صنوف شتى، تعيث في الأرض وتشارك السكان في أرزاقهم، وتكدر عليهم صفاء عيشهم، وتبدد متاعهم. إذا جلسوا مجالس الأنس هالهم ديبها فبدلوا بالأنس وحشة، وإذا ناموا أزعجهم طيفها في أحلامهم، وإذا قدمت لهم الموائد أقاموا عليها الحراس تقيهم فتكاتها، وترد عنهم هجماتها، وربما خافوها فولوا مذعورين، وخرجوا على وجوههم هامين، ودائماً كانت دهشتهم منها ملء قلوبهم وحديث سمرهم. وما سمعوا علاجاً لإبادة الفيران إلا جربوه، ولا عرفوا فخاً إلا نصبوه، وقلما صادوا منها شيئاً يذكر. فاجتمع مندوبوهم ليتفاوضوا في أنجع الوسائل لإبادتها، واستئصال شأفتها. وبنماهم يطارحون الآراء، إذا شيخ أشيب طويل القامة نحيف الجسم باش الوجه غريب الزى وعلى عنقه مزمار، أقبل وعرض عليهم أن يزيل عنهم هذه الغمة إذا وعدوه بالمكافأة، فأطمعوه في الأجر إذا نجحت حيلته، ومنوه بصداقتهم متى تحققت بشارته. فخرج الرجل من فوره إلى الشارع، وأخذ يعزف بلحن مشج، فما لبثت الفيران أن خرجت من مخابئها مسحورة لا تلوى إلا على صوته. وكلما مر بشارع خرجت أسراب فيرانه تتنافس وثوباً وقفزاً في اللحاق به. فسار الرجل ووراءه منها جيش عرمرم إلى أن وصل إلى النهر وهنالك أغرقها.

ذاع هذا الخبر فطار السكان فرحاً به، وتبادلوا فيما بينهم عبارات الشكر لله تعالى على تطهير المدينة من أوضار عدوهم اللدود. ولما قضى الرجل مهمته عاد إليهم مستنجزاً وعدهم، فوجموا وهزئوا بقوله وغمطوا حقه، فاستشاط غيظاً وعمد إلى الانتقام، نخرج مسرعاً وتناول مزماره وأخذ يعزف بتلحين بديع، فما سمعه إنسان حتى اقترب منه وسار معه، فتبعه الأطفال والصبيان والشبان والشيب والكهول وعلى وجوههم سيمى الفرح والاستبشار، كما ترى في الصورة السابقة. فما عتم أن جاوز بهم حدود المدينة، وتغلغل في مجاهل قاحلة، وفر منهم كأنما ركب جناحي نعامة، وتركهم فتاهوا، وانقطعت عن أهلهم أخبارهم. فقدر كيف تكون براعة هذا الرجل في التأثير بالغناء الذي تصبو إليه نفس الحيوان والإنسان.

وإذا انتقلنا إلى أسمى مراتب الإنسان، وتفقدنا الفلاسفة وقادة الأفكار وتحرينا ميولهم وجدناها تصبو إلى الغناء بدرجة ليس وراءها مزيد. أثر عن معاوية أنه رافق عمرو بن العاص، وتوجها إلى عبد الله ابن جعفر ليعيبا عليه جلوسه في مجلس الغناء، وعند ما أنصت معاوية إلى تلحين الغناء سرت فيه نشوة الطرب، فأخذ يحرك يديه ورجليه يضرب بها وجه السرير الذي كان جالساً عليه، فقال له عمرو: اتئد يا أمير المؤمنين، فإن الذي جئت لتلحاه أحسن منك حالاً وأقل حركة. فقال له معاوية: اسكت لا أبا لك فإن كل كريم طروب. وكذلك حضر الرشيد محفل غناء فسمع إبراهيم بن الهدى يفتى بأبيات لمروان بن أبي حفصة:

طـرقـتـك زائـرة في خـيـالهـا زهـراء تخـلـط بالجـمـال دلالهـا
هل تطمســـون من الســـماء نجومها بأكـفـكـم أو تســـترون هـلالهـا
أو تـدفـعـون مـقـالـة مـن ربـكـم جـبريـل بـلـغـهـا الـنـبي فـقـالهـا

فطرب الرشيد حتى صار من شدة نشوته يقوم ويقعد.

وعلى الجملة فالناس بطبيعتهم يطربون بالغناء لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم، حضريهم وبدويهم، عالمهم وجاهلهم، وربما كانت نفوس المفكرين أشوق لسماعه، وأشد تعطشاً لإيقاعه، لاحتياجهم إلى ما يسرى عنهم الهموم، ويذهب عنهم عناء التفكير. وماذا عسى أن نقول في الغناء وهو التيار الروحاني ينبعث فيصيب القلوب، ويملك قيادها قسراً، ويستخف بالجسم، فتثور الأعضاء، ويضطرب الجنان وهتف اللسان، ويهلل ويكبر، ويستعيد ويستزيد. وهذه الانفصالات نتيجة انبساط الأعضاء وسريان الدم فيها سرياناً يزيد حركة النفس زيادة مقبولة كما حققته تجارب الحكماء. وبهذه الزيادة يكون انتعاش الجسم وانشراح الصدر.

قال حكيم يوماً لتلميذه وقد عزفت الموسيقي: أفهمت؟ قال: نعم. قال له: بل لم تفهم، لأني لا أرى فيك سرور الفهم. وقد استعان به الأطباء لمعالجة الأمراض العصبية، واستعان به النفسيون لتذليل الخواطر الأبية. فإذا كان هذا هو حال الغناء وحده، فما ظنك به إذا شارك الشعر وامتزج به؟ وللشعر كالغناء وتنسيق وطلاوة تأخذ بمجامع القلوب، واجتماعها معاً يوقظ التدبر والتفكر لتقدير المعاني التي يحويها الشعر في أغراض الغزل والحماسة والفخر والتسلية والشوق والزهد والرثاء والأسف والمدح والوصف. ما أحلى وقع الغناء على النفس إذا لحن المغني هذه الأبيات!

وأقسم ما أدنيت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

ولو نقبت عن تاريخ الغناء وما له من الأثر السامي في إحياء العواطف ما وجدت أمة خاضت غمار الحياة السعيدة بدونه. وإذا كانت متاعب الحياة تفل عزم النفس فإن سرور الغناء يشحذها ويعيد إليها حدتها الأولى. به كانت ملوك الفرس تلهى المحزون وتعلل المريض وتشغله عن التفكير في مصائبه. وقديماً أبدع الإغريق في صناعته أيما إبداع، وتوسلوا به في قضاء الحوائج، حتى كان إذا دجاليل الفتنة استدعوا زعماءها إلى حفلة الغناء، وأسمعوهم النصائح بلسان الغناء والموسيقى فيلين طباعهم، ويكبح جماحهم. وكذلك عول عليه العرب في مهام أمورهم، فكانوا إذا استصرخوا للحرب خرج نساؤهم مغنيات، يستنهضن الرجال للذود عن الحريم والوطن، فينسى الجندي نفسه عند سماع نبراته، ويحمل على العدو معرضاً حياته للخطر، والحياة أعز شيء للإنسان.

إذا ترنم شـــادٍ للجبـان بـه لاقى المنـايا بلا خوف ولا فرق

ناهيك بالعصر العباسي الذي ازدهى بجمال الشعر ورائع الغناء، فاحتفى به الخلفاء، وأسدوا الجوائز إلى المجيدين فيه. صبت إليه نفوس العامة والخاصة بعد أن هدأت الخواطر من أنباء الغزو، وبعد أن شبعت من ثمار الفتح، وورفت عليها ظلال الحضارة، فاتخذت من لسانه ترجماناً يعرب عن أغراضها. كان العباس بن الأحنف ينظم الشعر الرصين، وكان أبو إسحق إبراهيم الموصلي يغنيه في حضرة الرشيد فينصت إليه، ويقبل عليه، ويهتدي بهديه. وكان الغناء إذ ذاك مفزع الأمة تلجأ إليه عند الحادث الجلل لتثير به سورة الغضب استعداداً للمهاجمة. ولما هموا بالوقيعة بين الرشيد والبرامكة أسمعوه بلسان قينة قول عمر بن أبي ربيعة:—

ليـت هنـداً أنجزتنـا مـا تعـد وشـــفـت أنفســنـا مما نجـد
واســـتـبـدت مـرة واحـدة إنمـا العـاجز من لا يســتبـد

فانحرف الرشيد عنهم كأن لم يكن بينه وبينهم ولاء، ولم يقبل فيهم قول شفيع، وزج بهم إلى أعماق السجون.

وكما خيل إلى "ترتيني" أنه سمع غناء الشيطان في الحلم بما قصصته في باب الخيال، خيل إلى أبي إسحق الموصلي أنه سمع غناء الشيطان في اليقظة، ذلك أنه خرج في ليلة ممطرة يتجسس من مغن يشاركه في إحياء حفلة، فقابله ضرير استدعاه إلى منزله، ثم شرع أبو إسحق يغني معجباً بصوته فاستخف به الضرير، وقال له: لقد قاربت أن تكون مغنياً وتناول العود فجسه، وضرب على أوتاره في نغمة ليس لأبي إسحق عهد بسماعها، فدهش مما سمع. ولما خرج الأعمى ودعه أبو إسحق فإذا هو قد غاب، ولم يدر أفي السماء صعد، أم في الأرض هبط، فخيل إلى أبي إسحق أن هذا الضرير شيطان تنكر له في هذه الصورة، لينزله من عالي غلوائه.

وربما اشترك المغنون والعازفون، واستعملوا من آلات العزف البربط[35] والمزهر[36] والقانون والقيثارة[37] والرق والناي، فيخرج من صوتها مزيج ذو نبرات بديعة تفعل في النفس فعل السحر الحلال. ولم يكن الغناء مقصوراً على مجالس اللهو، بل اتسع له المجال كذلك في مجالس العبادة منذ زمن داود عليه السلام. ومنه استعير نوع من الترتيل في المساجد والكنائس، وتصدى له قراء القرآن بالإجادة، فاجتذبوا به المسامع، وشنفوها بحكمه وأحكامه. وقد ورد "زينوا القرآن بأصواتك".

كان الإغريق أشد الأمم اعتداداً بالغناء واهتماماً به في المدارس، مرنوا عليه الأطفال منذ الصغر، فعودوهم النفخ في الناي والضرب على الأوتار. ونحن إذا أسعدنا الحظ أكبرنا قدر الغناء، فأدخلنا تعليمه في المدارس، واستعنا به لترتيل الأناشيد القومية والمحفوظات الشعرية.

([35]) العود

([36]) العود كذلك

([37]) الكمنجة

كان فروبل يتنزل إلى مستوى الصبيان ليتعرف ميولهم وما يتشوفون إليه. مر يوماً بامرأة على إحدى ذراعيها غلام، ورآها تتقدم به إلى دجاجة، وظلت تحاكي قوقاءها، وتحرك أصابعها لتدعوها إليه، فما عتم الطفل أن حاكاها بأصابعه وصوته، فكان لهذا المشهد تأثير رائع في نفس فروبل حبب إليه نظم النشيد، فألف منه ما سماه "دعوة الدجاج" وهكذا ظل يترقب الفرص، وينظم الأشعار الرصينة الجزلة، في المغازي الرقيقة البديعة. فإذا تاق الطفل إلى صنع طيارة مثلاً، فقد حان الوقت لسماع النشيد الملحن في هذا المعنى. وإذا توجهت نفسه إلى مداعبة القط أو إلى الإعجاب بالحمام وقد بهره بهاء ريشه وخفة حركاته ورائع غنائه، فقد استعد للإنصات النشيد يجمع هذه الأغراض، وحينئذٍ تطمح نفسه إلى ترتيل النشيد في وقت تتوق فيه إلى التهذيب والتثقيف.

يجمل بنا أن نحبب إلى الأطفال ترتيل الأناشيد أثناء اللعب، فإن اجتماعهما معاً ينشط الجسم، وينعش الروح، ويبرز الشعر في أجمل حلة، ويقوم فيهم آلة النطق، ويذهب عنهم سآمة القراءة المجردة من رخامة الصوت. نريد أن ندخل تدريس الغناء في مناهج مدارسنا لنعيد ما درس من صناعة أسلافنا، ولنستخدم قوته الروحانية في تذليل مصاعب الحياة، فإن نفوسنا كثيراً ما تعروها السآمة فتحتاج إلى ما ينبهها. ونحن إذا أدركنا هذه الغاية فقد حق لنا أن نجرد سيف عزيمتنا لمحاربة الوصمة التي دهمت الغناء، فقد تناوله أهل البطالة، واتخذوه ذريعة لرواج الخلاعة والمجون والهزل وسخيف النطق، فشوهوا اللغة العربية واستعاضوا عن ألفاظها الشريفة تراكيب أجنبية لا ضرورة لها. ولا سبيل لتعويد المسامع ما نرغب فيه من رواج الألفاظ الفذة والتراكيب الجزلة إلا بجودة الترتيل وحسن الغناء. فليمد الأدباء والمغنون أيديهم للأخذ بناصرها، فالآمال معقودة بمساعدتهم.

(15) غريزة الادخار

تتجلى هذه الغريزة في صنفين من الحيوان وهما: النحل والنمل؛ فالنحل يصنع خلاياه من الشمع ويدخر فيها العسل مما يقطفه من رحيق الأزهار، ليغذي نسله وليتغذى به عند الحاجة؛ والنمل يبني قريته في جذوع الأشجار وفي الجدران وفي باطن الأرض، ويتخذ فيها غرفاً يدخر في بعضها قوته ويحفظ في بعضها نوعاً من الحشرات التي تفرز اللبن لغذائه.

ولو تأملت النمل لوجدته كالنحل في شغل شاغل، تخرج النملة من قريتها، وإذا عثرت في طريقها على حبة خفيفة حملتها أو جرتها، وإلا رجعت لتدعو شركاءها، وكلما مرت بنملة لمستها بزبانييها تستحثها على المساعدة، وبهذا يتضافر النمل جميعاً على العمل. حاملاً ما قدر عليه من أصناف الغذاء إلى قريته حيث ترتبه الأمهات، ويجزئنه متى خفن الإنبات. ويستمر النمل كادا على هذا المنوال طول الصيف.

وقد شاهد جيمس هذه الغريزة ظاهرة الأثر في كلب صيد ولد في أرض إصطبل ونقل صغيراً إلى منزل فرشت أرضه بالطنافس، رآه يحاول نبش الأرض ليخفي قفازاً أمسكه بفمه، وما زال بالبساط في خدشه وأخفى به القفاز، فعل هذا أربع مرات ثم انقطع عن فعله لأنه لم يجد مجالاً لتمرين هذه الغريزة. فلو كان ما في فمه قطعة لحم مثلاً بدل هذا القفاز، وكانت الأرض صالحة للنبش لاستطاع أن يدخر ما زاد على قوته ليركن إليه عند الحاجة.

هذه الغريزة مؤقتة تظهر إلى سن محدودة في الحيوان وفي الإنسان، وفي غضون هذا الزمن تذبل أو تنمو إذا أهملت أو روعيت نجد الطفل إذا أعطى مأكولاً تناول منه ما استطاع، وأبقى في يده ما زاد عليه، وربما أودعه مكاناً وأخفاه من الأعين. كذلك نراه يجمع في "الحصالة" فضلة ماله، حتى إذا غصت بالنقود كسرها وعبث بما فيها، والطفل محتاج دائماً إلى من ينبهه على وجوه الصرف الحقيقية. وما ظنك بالآباء الذين يكتفون بجمع المال لأبنائهم ويهملونهم من تمرين ملكة الادخار؟ ما ظنك بهم وقد انقضت آجالهم وتركوا هذا المال للورثة الذين لا يحسنون رقابته ولا يعرفون طرق تثميره؟ إنهم وقد فعلوا ذلك قد أخطئوا السبيل الموصلة إلى صيانة أموالهم وبقاء ذريتهم على النهج الذي يأملونه، لأن الأموال لا يصونها إلا أناس خبروا ألوان المشقة في جمعها ومرنوا أنفسهم على تثميرها.

يقول الفتى ثمرت مـالي وإنمـا		لوارثـه مـا ثمر المـال كـاسـبـه
يحاسـب فيه نفسـه في حياته		ويتركـه نهبـاً لمن لا يحـاسـبـه

فالمال – وهو أخو الروح، وأجر للجهود المضنية، ووسيط نبيل الحاجات، وستر من لا تسمو به الخصال، ولسان فصيح المقال، وسلاح في ميدان الكفاح والنضال – قد أصبح الشغل الشاغل.

الفهرس